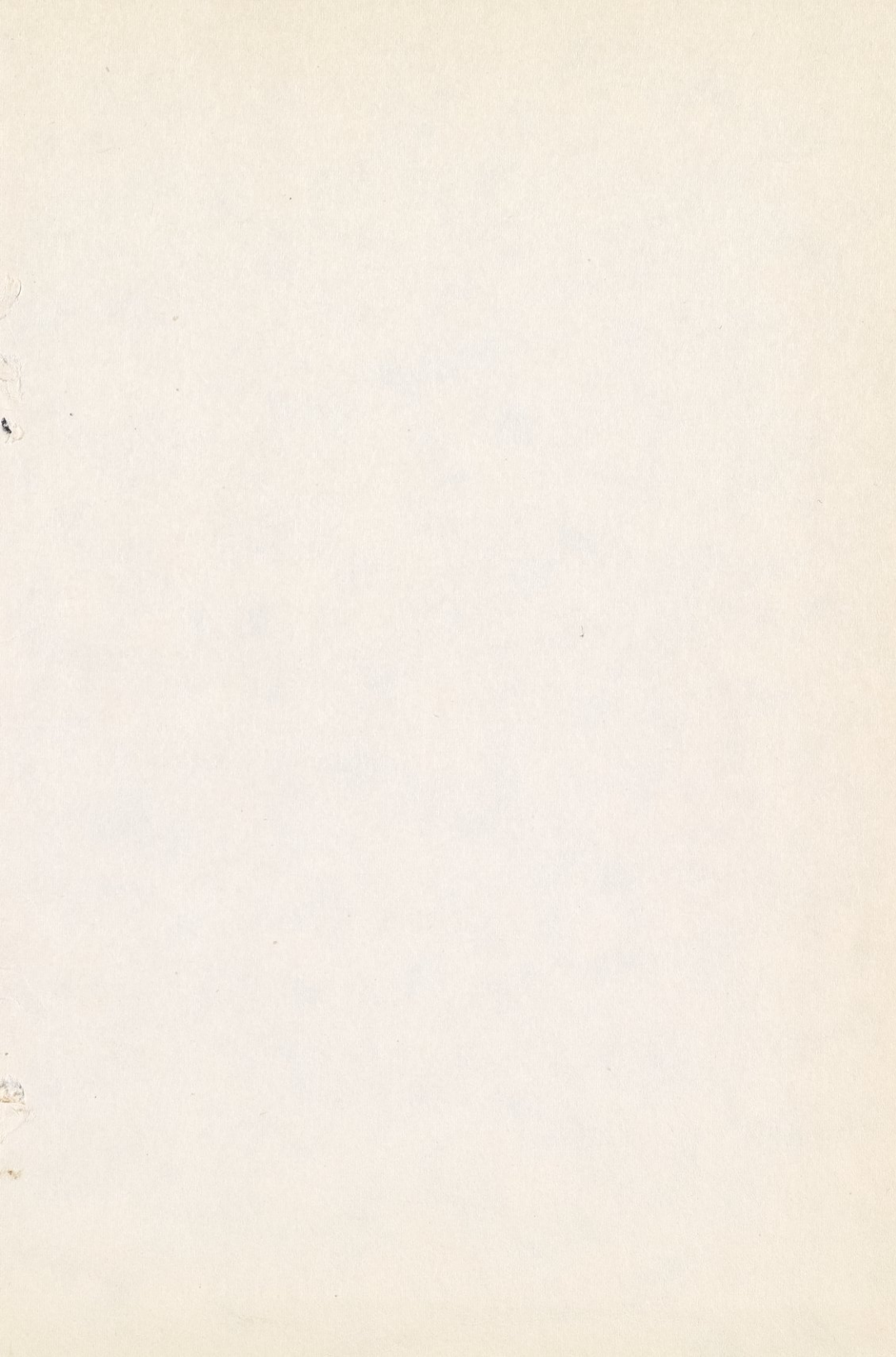


GENERAL
LIBRARY



يونس أحمد السامرائي

البحرِيُّ فِي سَامِرَاءَ

حَقِّ نَهَائَةٍ عَصَرَ الْمُتَوَكَّلُ

(ساعدت وزارة الثقافة والاعلام على نشره)

مطبعة الارشاد - بغداد

١٩٧٠

PJ
7745
.B8
Z85

v. 1

1981 9-24-82

مقدمة

كتب عن البحري كثيرون ، ولا غرو فهو أحد كبار شعراء القرن الثالث الهجري ، ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق . وقد لقي من الاقبال على شعره ، والاحتفال به ما لم يلقه شاعر قبله ، كما تيسر له ان يكون شاعر البلاط العباسي حقبة من الزمن لم تيسر لشاعر آخر ؛ فتغنى بأوصاف من اتصل بهم من الخلفاء ورجال الدولة ، وأشاد بأعمالهم ، ونادهم في مجالسهم ، وخلد آثارهم ، ودافع عن حكمهم وسياستهم ، وسجل كل صغيرة وكبيرة لهم ، فكان ديوانه - بحق - سجلاً ضخماً لفترة من ازهى القترات العباسية في المجالات : السياسية والعلمية والادبية والحضارية وغيرها .

نعم كتب عن الشعراء الكثيرون ، ولكنني حاولت في هذا البحث أن أكتب عن البحري بطريقة أخرى ، حاولت أن أسلسل مع الشاعر منذ وطئت قدمه أرض سامراء مسترفداً ، وحاولت أن استشهد بكل ما نظمه في خلفاء هذه المدينة ورجالها ، وكنت اجتريء أحياناً بأجزاء من القصائد وأهمل في الغالب المقدمات الغزلية التي التزمها البحري في عموم شعره . وأنا أعرف جيداً ان في النصوص التي استشهدت بها شيئاً من التكرار ، تكرار المعاني والاصناف التي كان الشاعر يقيم فيها قصيده ، ولكنني ازعم ان البحري كان - على الرغم من ذلك - بارعاً في تناول الموضوع وانتقاء اللفظ حتى ليخيل الى القارئ أن ليس هناك تكرار يدعو الى السأم والملل . ان فكرة الكتابة عن البحري في سامراء طرأت عليّ وأنا أعدّ رسالتي عن (سامراء في ادب القرن الثالث الهجري) اذ وجدت ان لهذا الشاعر أثراً بعيداً في تخليد هذه المدينة ، وتخليد خلفائها ورجالها ، بما نظمه من رائع الشعر ، وبارع القصيد .

لقد جهد البحري - بحق عند اتصاله بخلفاء هذه المدينة - ان يعصر ذهنه ، ويكدّ قريحته ، ويستنفد كل ما رزقه من مكنة أدبية ، وطاقة فنية ،

ليرتفع بشعره الى أقصى درجات الجودة والبراعة .

وان نظرة سريعة الى شعره هذا لتظهر بجلاء ما كان عليه من الروعة والسمو والاجادة ، ولهذا فما يكاد مصدر قديم او حديث يتحدث عن شعر البحري ، يخلو من نموذج او نماذج من هذا الشعر الذي قاله في خلفاء هذه المدينة وآثارها .

ان هذا البحث يتناول حياة الشاعر في هذه المدينة ، في الحقبة التي عاشها فيها ، منذ اختلافه اليها الى آخر عهد المتوكل ، وهي فترة تعدت من أهم فترات حياة الشاعر لما لقيه فيها من الصيت المدوي ، والثراء العريض .
واني لارجو أن اكون قد وفقت في رسم صورة واضحة لهذا الجزء المهم من حياة هذا الشاعر الكبير .

يونس أحمد السامرائي

تمهيد :

بناء سامراء :

لعل من أهم الاحداث العمرانية في القرن الثالث الهجري هو ابتناء مدينة سامراء ، واتخاذها حاضرة للخلافة العباسية مدة اربت على نصف قرن من الزمن ، الأمر الذي أثر على بغداد الحاضرة الأصلية تأثيراً كبيراً في نواح شتى •

وذهب المؤرخون - بعد انشاء هذه المدينة واشتهارها - يضرّبون في أحشاء الزمن السحيق للوقوف على أصلها وعراقتها فذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، ولكنهم يكادون يتفقون على ان موضعها كان مأهولاً منذ العصور الضاربة في اعماق ما قبل التاريخ ، وانه كان يعرف باسماء تكاد هي الأخرى تكون متقاربة من حيث المادة الاشتقاقية •

وذهب المؤرخون كذلك يتلمسون الاسباب التي حدث بالمعصم الى ابتناء هذه المدينة واتخاذها عاصمة له دون بغداد ، فذكروا أسباباً عديدة تحل في جملتها الى عوامل : دينية وسياسية واجتماعية وغيرها^(١) •

والحق ان ابتناء هذه المدينة كان حدثاً مهماً في غضون القرن الثالث الهجري ، اذ استطاعت ان تزاخم العاصمة الاصلية بغداد وتحتل مركزها العلمي والادبي والسياسي والاجتماعي والمعماري وما الى ذلك ، كما تهيأ لها ان تكون المدينة العباسية الاولى طوال الحقبة التي مكثت فيها عاصمة للخلافة العباسية ، فقصدها العلماء والادباء ، وأمّهات الفقهاء والمحدثون ، واختلف اليها أصحاب الفنون والحرف المتنوعة ، وأصبحت قبلة لكل من ينشد مركزاً سياسياً واجتماعياً ، كما غدت مبعثى لكل من يرجو ثراء عريضاً وصيتاً مدوياً •

والغريب في أمر هذه المدينة ، ان ابتناءها كان سريعاً جداً ، وانها

(١) أنظر : رسالتنا : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري

اشتملت على عمائر ومبان تكاد تنفرد بها دون غيرها من المدن ، حتى أصبحت
- بحق - مدينة القصور والبرك والرياض ♦

وكان من حسن طالع هذه المدينة ان يهباً لها بعض أفذاذ الشعراء وعلى
رأسهم ابو عبادة البحرري الذي لم يأل جهداً في تخليد عمائرهما وقصورها ،
فاندفع يشيد بكل ما قام به خلفاؤها من اعمال عمرانية وسياسية واجتماعية
حتى ليكد ديوانه ينطوى في اغلبه على اعمال اولئك الخلفاء في هذه المدينة ♦

ومما يسترعي النظر في أمر هذه المدينة كذلك اللدد الحاد الذي
نشب بينها وبين بغداد ، او على الاصح بين أهلها وأهل بغداد والذين استمر
بينهما قوياً غنياً حتى بعد ان خربت سامراء واندثرت وانتقل مركز الحكم
الى بغداد ثانية في اواخر عهد الخليفة المعتمد ، وهو نزاع - فيما نحسب -
سياسي بين العرب والأتراك ، يمثل الجانب الاول منه أهل بغداد ، ويمثل
الثاني أهل سامراء ومن الطريف في أمر هذه المدينة ايضاً اسمها واللغات
الواردة فيه ، فليس لمدينة أخرى - فيما نظن - من الاسماء العديدة واللغات
الكثيرة ما لمدينة سامراء هذه !

ولعل طول اسمها - وهو سرّ من رأى - الذي أطلقه عليها - كما
يقال المعتصم - وتركيبه من فعلين يتوسطهما اسم - كان مدعاة لتفنن الشعراء
والادباء في تحويره وتخفيفه ، ونحته وتطويره ، فكان من جراء ذلك هذه
اللغات المتعددة لهذا الاسم والتي جاءت في تضاعيف الكتب والدواوين ،
والتي كانت كلها لا تتعدى السرور بالمدينة بعد ازدهارها ، او الاستياء منها
بعد خرابها ♦

والملاحظ انه على الرغم من كثرة اللغويين واختلافهم الى هذه المدينة
الجديدة فان أحداً منهم لم يحاول - على ما يظهر - ابداء رأى حول هذا
الاسم الغريب ♦

وان هذا الاسم وهو « سرّ من رأى » قد ورد في شعر الشعراء

وتصانيف الادباء والمؤرخين والبلدانيين منذ تأسيس هذه المدينة في سنة
احدى وعشرين ومائتين للهجرة •

ومن اسمائها : زوراء بنى العباس والعسكر ، وسُرَّ من رأى ،
وسرَّ من رأى وسُرَّ من رئي وسُرَّ من را وسُرَّ مرى ، وسُرَّ من راء ،
وسرَّ من راء وسرور من رأى ، وسُرَّاء ، وسرَّاء ، وساء من رأى ،
وسامره ، وسامرآ ، وسامراء^(١) •

ومما يلفت النظر في أمر هذه المدينة نشأتها السريعة وازدهارها العظيم
في كل شأن من الشؤون ، بيد ان هذا الازدهار لم يدم طويلاً اذ سرعان
ما دبَّ فيها الخراب والاندراس عقب انتقال الخلفاء العباسيين منها الى بغداد
ثانية • فأصبحت قصورها وعمائرها أطلالاً وآكاماً تمتد الى مسافات شاسعة
تبعث في النفس ألماً وحسرة ، وفي القلب عظة وعبرة ، فندبها الشعراء ،
وبكاها الادباء ، وقد تكلمنا على ذلك مفصلاً في كتابنا « سامراء في ادب القرن
الثالث الهجرى » فلا حاجة الى تكراره هنا مرة أخرى^(٢) •

هذه المدينة العظيمة الزاهرة هي التي قبض لابي عبادة البحرى أن
يقضي في ربوعها زهرة حياته وعنفوان شبابه ، ويواكب فيها الأحداث
الخطيرة التي مرت بخلفائها ووزرائها ، فسجل كل ذلك تسجيلاً دقيقاً
صادقاً مما سنشير اليه في اعقاب هذا التمهيد •

(١) يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث
الهجرى » حيث فصلنا القول هناك وذكرنا الشواهد الكثيرة على ذلك •
(٢) وصف ابن المعتز كثيراً خراب سامراء واندراسها ، ومن ذلك
- وهو مما لم نذكره في رسالتنا - قوله :

ألم ترني ربطت بشر أرض فهل انا واجد منها انفلاتا
وصارت (سرّ من رى ساء من رى) فلا سقيت ولا كسيت نباتا
اذا ما المرء أصبح (ساءلوه) وقالوا كيف بت وكيف باتا
(ديوان ابن المعتز) ج ٦٢/٢ طبعة استانبول وفي الديوان (سر من رأى
وساء من رأى) بالهمزة والصوات كما اثبتناه لئلا يختل الوزن • وكذلك
جاءت فيه (سائلوه) والصواب ما أثبتناه •

البحتري قبل اختلافه الى سامراء :

كثيراً ما يمهّد الدارسون لحياة الشعراء والادباء بشيء عن عصر
الاديب او الشاعر، يتناولون فيه الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية وما الى
ذلك ، مما يلقي ضوء كاشفاً على كثير من تصرفات الاديب واطوار حياته ،
وهو عمل يقره البحث العلمي الصحيح ، وبخاصة اذا ما توخى الباحث
الدراسة الشاملة لجوانب حياة الاديب وتناجه الفكري . غير اننا - على
الرغم من ذلك - لم نأخذ بهذا المنهج في بحثنا هذا ، لاننا في الواقع نتوخى
من هذه الدراسة ما يتصل بحياة الشاعر في غضون الحقبة التي أمضاها في
كتف خلفاء هذه المدينة ووزرائها ورجالاتها ، ولهذا فسنحاول الاسترسال
مع الحوادث التي عاصرها الشاعر وعاشها ، على ان نسجل خلال ذلك ما
يعنّ لنا من الأمور المتصلة بحياته وأخلاقه وادبه .

ونرى من المفيد استكمالاً للدراسة ان نلم بشيء من اولى شاعرنا قبل
ان يختلف الى هذه المدينة ويتسنى له الاتصال بخلفائها وامرائها ووزرائها
ورجالاتها .

ولد البحتري - على الأرجح الاقوال - سنة ست ومائتين للهجرة (١)
في مدينة « منبج » الواقعة عند مفترق الطرق التجارية بين حلب والفرات (٢)
ونشأ وتخرج بها ، في ظروف ما تزال ملفعة بغلالة من الغموض والابهام ،
لان المراجع المختلفة لا تحدثنا بشيء كثير عن ذلك .

وكانت منبج هذه مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق
واسعة ، وفتى فيح على وج4 الارض ، وآبار عذبة صالحة للشرب ، وقد
وصفها بعضهم للرشيد حين مرّ بها فقال : عذبة الماء ، باردة الهواء ، قليلة

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٤٤٧/١٣ ، وفيات الاعيان لابن خلكان

٨١/٥ ، تاريخ الادب العربي لبروكلمان ٤٨/٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٤٧/١٣ ، وفيات الاعيان ٧٤/٥ ، اخبار البحتري

للصولي ص ٦ وأشار ابن خلكان الى رواية أخرى تقول : انه ولد في زردفنة
وهي قرية من قرى منبج .

الادواء ، كما وصف ليلها بانه سحر كله . . . ومن هنا ذهب كثير من الدارسين الى تعليل جمال شعر البحري ورقته (١) .

واذا كانت منبع البيئة الاولى التي امدت الشاعر بصور الجمال ومفاتيح الطبيعة ، فان هناك بيئة اخرى كان لها اثر لا ينكر في صقل مواهبه وارهاف حسه ، وامداده بمعين لا ينضب من سحر مجالي الطبيعة ، ومما تفتنت به يد الانسان الصانع من ضروب التزيين والتلوين والابداع ، وأعني بها بيئة سامراء حاضرة الخلافة العباسية ، ومرناد شاعرنا البحري . فهذه المدينة مشهورة بلطافة الهواء ، وغزارة الماء ، وصلاح التربة (٢) ، كما تمتاز بركة الليل ، وبرد الضحى ، واعتدال الأصيل ، على حد قول البحري من قصيدة له يمتدح بها المتوكل ويصف أحد قصوره بعد قفوله من دمشق :

محل يطيب العيش رقة ليله وبرد ضحاه واعتدال أصيله (٣)
ولا شك في أن ماشاده الخلفاء من القصور الضخمة والعمائر الفخمة ، وما أنشأوه من البرك الفسيحة ، والحدائق الفن ، وما كانت تموج به تلك القصور من اجناس الجوارى والغلمان ، كل ذلك كان من العوامل التي زادت في رقة شعر شاعرنا وجماله ، ومن ثم كثرت اوصافه لهذه القصور والبرك والرياض كثرة تلفت النظر حقاً .

شبل الوليد في ظل ابوين لم يكونا من ذوى اليسار - على ما يبدو - ومن المحتمل انه تلقى تعليمه الاولى كما يتلقاه أبناء الطبقة الفقيرة فتلقف ما قدر عليه من علوم العربية ومعارفها ، ويظهر ان مخايل النجابة قد بدت عليه وهو في ريعان الصبا ، فاستهواه الشعر فمال اليه وعالجه وهو فتى ، وقصد به اول ما قصد باعة البصل والباذنجان ومن لف لفهم يمدحهم وينسدهم في ذهابه واياه (٤) .

-
- (١) أنظر : حياة البحري وفنه للدكتور أحمد بدوي ص ٤٢ .
(٢) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٣ .
(٣) أنظر : قصيدة البحري في (عدول المتوكل عن بغداد الى سامراء) في الفصل الثالث .
(٤) أنظر : تاريخ بغداد ١٣/٤٤٧ ، ووفيات الاعيان ٧٤/٥ .

وفي حياة البحري مسألة اخرى ما يزال الغموض يكتنفها وهي صلته
بأبي تمام ولقاؤه له وأخذه عنه ، والعمل بنصيحته ♦

فيقال ان اول لقاء بين الشاعرين كان في حمص حيث قصد البحري
- وكان اول أمره في الشعر ونبأته فيه - ابا تمام ليعرض عليه شعره كما
كان يعرضه الشعراء ، فلما رآه وسمع شعره وترك الناس وأقبل عليه وقال
له انت أشعر من أنشدني ، ثم رأى رثاً حالته فزوده بكتاب الى أهل معرفة
النعمان يوصيهم به خيراً فآكروموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم^(١) ♦
ويقال ان أول لقاء بينهما كان في مجلس أبي سعيد محمد بن يوسف

الثغرى حيث دخل البحري عليه وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أفأق صبّ من هوى فأفأقا أم خان عهداً او أطاع صديقا

فلما أتمها اعترضه رجل كان في المجلس فادعى ان القصيدة له وانهم
البحري بسرقتها ، واندفع ينشد ابياتاً منها ، فبهت البحري ووجم ، وتدخل
أبو سعيد في الامر فاعلم البحري بان الرجل كان أبا تمام فقام اليه وعانقه
وبدأت العلاقة بينهما^(٢) ♦

ويبدو ان الصولي راوي هذين الخبرين قد شك في الثاني منهما فعقب
عليه بقوله : « ولعل هذا قبل مصيره الى معرفة النعمان »^(٣) ♦

وإذا صح ان القصيدة التي مدح بها البحري ابا سعيد كانت في سنة
٢٣١ هـ كما يؤرخها شارح ديوانه^(٤) ، فمعنى هذا ان البحري كان في
الخامسة والعشرين من عمره ، وهو على هذا لم يكن اول أمره بالشعر
ونبأته فيه ، اذا ما علمنا انه عالجه وهو حدث صغير ، فهو قد استوى شاعراً
مهماً حتى ادعى ابو تمام - وهو الشاعر الطائر الصيت - ان ما أنشده كان

(١) أنظر : أخبار البحري للصولي ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٧ ♦

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣ ♦

(٣) أخبار أبي تمام ص ٦٥ ♦

(٤) ديوان البحري ١٤٤٩/٣ الحاشية (طبعة الصيرفي) ♦

من شعره^(١) . هذا على ان لقاءه في حمص ما زال مبهماً غامضاً ، ولا ندرى لمن كتب ابو تمام من أهل معرفة النعمان في اكرام الشاعر ، ومن الذي دفع له اربعة آلاف درهم ، وما هو الشعر الذي قاله هناك ؟
وأكبر الظن ان هاتين الروايتين لا تقومان على سند قوي من الحقيقة والواقع .

وأما تعقيب الصولي على الخبر الثاني فأمر يلفت النظر أيضاً ، اذ معنى ذلك ان لقاء الشعارين في مجلس أبي سعيد قد سبق لقاؤهما في حمص . وهذا يفتده قول البحري انه كان اول أمره بالشعر ونبأته فيه .
وهذا اللقاء بين الشعارين يجرنا الى مسألة أخرى وهي هل تتلمذ البحري لابي تمام وأخذ عنه ؟

يرى بعض الدارسين - استناداً الى الروايتين السابقتين ، الى ما كان يعترف به البحري حين يسأل عن المفاضلة بين شاعريته وشاعرية ابي تمام - بأفضلية أبي تمام واستاذيته له^(٢) - ان البحري تتلمذ لابي تمام وعنه أخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى في حين يرى آخرون ان العلاقة بينهما لم تصل الى علاقة الطالب بالاستاذ ، وان كل ما في الامر - اذا صح - انها اجتماعا وتعارفا وقرط كل منهما الآخر ، وبقياً على علاقة حسنة ، ويعضد هذا الرأي اختلاف الشعارين في خصائصهما الفنية واتجاهاتهما الشعرية^(٣) .

(١) انظر : الموازنة للآمدي ٨/١ ، واخبار ابي تمام ص ١٠٥ - ١٠٦ ، واخبار البحري ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) أنظر : اخبار ابي تمام ص ٥٧ ، ٦٠ .

(٣) أنظر : الموازنة للآمدي ٦/١ ، وفي الادب العباسي للدكتور محمد مهدي البصير ص ٢٣٠ - ٢٣١ الطبعة الثانية ، مما يجدر ذكره ان ليس للبحري في رثاء أبي تمام الا خمسة أبيات نظمها بعد وفاة دعبل ذكر فيها الشعارين ضمن هجائه للخنعمي . ومعلوم ان أبا تمام توفي سنة ٢٣١هـ ، وان وفاة دعبل كانت في سنة ٢٤٦هـ .

ومما روى عن صلة الشاعرين ببعضهما الوصية التي نصح بها أبو تمام للبحثري وادعاه أن يأخذ نفسه بها في معالجة القريرض والتي جاء فيها : « قال الوليد بن عبيد البحثري : كنت في حدائتي إروم الشعر ، وكنت أرجع فيه الى طبع ، ولم أكن أفق على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان اول ما قال لي : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وانت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت المسحر ، وذلك ان النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فإذا أخذت في مديح سيد ذى أياد فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معاملة ، وشرف مقامه ، ونضد المعاني ، واحذر المجهول منها - واياك ان تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد ، واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنت العلماء فأقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله . قال : فاعملت نفسي فيما قال فوفقت على السياسة » (١) .

واغلب الظن ان هذه الوصية لم تصدر عن ابي تمام ، لانها بعيدة كل البعد - في محتواها - عن شعره وخصائصه ، فلو كانت صادرة عنه ، لكان هو اولي من غيره بتطبيق ما جاء فيها !

(١) زهر الآداب للحصري ١٠/١ - ١٢١ ، وأنظر : العمدة لابن رشيق ١١٤/٢ - ١١٥ ، والموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ص ١٢٨ - ١٢٩ ، ويبدو ان الدكتور يعتقد بصحة هذه الوصية بدليل تعليقه عليها في كتابه آنف الذكر .

ويخيل اليها انها وضعت بعد استقراء شعر البحري ، لانها تمثل الى حد بعيد كثيراً من خصائص شعره التي عرف بها .

★ ★ ★

كان البحري في مطلع حياته كثير الاسفار والتطواف ، فجاب عدداً من المدن السورية ، وزار الأهواز والعراق ، وقيل انه قصد مصرأ أيضاً ، قام بكل ذلك قبل أن يلقى عصا ترحاله في الحاضرة العباسية سامراء .
والحق ان البحري كان دؤوباً ، شديد العزم ، قوِّي المهمة ، واسع الآمال ، وفي شعره كثير من الاشارات التي تنبئ عن ذلك ، قال وهو ابن ست عشرة سنة :

وقائلة والدمع يصبغ خدها

رويدك يا ابن الست شمرة كم تسري

فقلت : أحقُ الناس بالعزم والسرى

طلاب المعالي صاحب الست والعشر

سأخبط وجه الدهر والليل ، أو أرى

تمزق ثوب الليل في وضح الفجر

وأوتر عتسي في المهامه والقللا

على قرب عرسي في السواجير او أترى (١)

وقال مشيراً الى علو همته واسفاره وه وفي حدود الست عشرة من

عمره أيضاً :

نكرتسي ، فقلت : لا تكررني

لم أحل عن خلافتي واعتيادي

إن تريني ترى حساماً صقيلاً

مشرفياً من السيوف الحداد

(١) ديوان البحري ١٠٨١/٢ - ١٨٠٢ . السواجير : نهر مشهور

من عمل منبج بسوريا .

ثاني الليل ، ثالث البيد والسيـ
ر ، نديم النجوم ، ترب السهاد
ليلة بالشأم تُمَّت بالأهـ
وواز يوماً ويلة بالسواد^(١)

وطني حيث حطت العيس رحلي
وذراعي الوساد وهو مهادي^(٢)
وقال أيضا من قصيدة له في مدح مالك بن طوق ، وهو في العشرين
من عمره :

مالي وللإيام صرف صرفها
حالي ، وأكثر في البلاد تقلبي ؟
فأكون طورا مشرقا للمشرق الـ
أقصى ، وطورا مغربا للمغرب
وإذا الزمان كسك حلة مُعَدَم
فالبس له حلل النوى وتغرب
ولقد أبيت مع الكواكب راكباً
أعجازها بعزيمة كالكوكب^(٣)
وقصد البحري كثيرا من القادة والعمال^(٤) مادحا لهم وطالبا ردهم ،

(١) السواد : يراد به رستاق العراق وضياعها .

(٢) نفسه ٦١٩/١ - ٦٢٠ .

(٣) نفسه ٧٩/١ - ٨٠ طبعة الصيرفي .

(٤) لا يسعنا الكلام على مدائحه في القادة والعمال والكتاب في غضون
الفترة التي سبقت ترده على سامراء ، ولكننا نرى من المستحسن
الإشارة إليها :

١ - في آل الثغري (٢٥) خمس وعشرون قصيدة ومقطعة .

٢ - في آل حميد الطوسي (١٧) سبع عشرة قصيدة ومقطعة .

٣ - في مر بن علي الطائي (٥) .

٤ - في ابي جعفر القمي (٤) .

وكان في مقدمتهم أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآل حميد الطوسي فكانوا يشيرونه ويجزلون له العطاء • وقد روى عنه انه قال : « أنشدت أبا تمام شعرا في بعض بني حميد وصلت به الى مال له خطر ، فقال لي : أحسنت انت أمير الشعراء بعدي ••• » (١) •

وقال في مدح مالك بن طوق ، وفيه اعتراف بجزيل عطائه ، ووفرة سخائه :

اني اتيتك طالبا فبسطت من
أملئ ، وأنجحَ جودُ كفك مطبئي
فشبت من برِّ لديك ونائل
ورويت من أهل لديك ومرحب
وغدوت خير حياطة مني على
نفسي ، وأرأف بي هنالك من أبي
أعطيتني حتى حسبت جزيل ما
أعطيتيه ودیعة لم توهب (٢)

ويبدو ان البحثري كان مبتلى بداء الجشع منذ مطلع حياته ، فهو لا يشبع ولا يريد أن يشبع مما كان يسبغ عليه من العطايا ويُفَاض عليه من النعم - على الرغم من اشارته في الايات السابقة الى ذلك - فتراه يسلك كل ذريعة مع مدوحه ليظهر عوزه ، ويستدر عطفه ، ولو كان ما يلتمسه

-
- ٥ - في ابي مسلم الكجى (٣) •
 - ٦ - في أبي الخطاب الطائي (٢) •
 - ٧ - في يحيى بن المعلى (٢) •
 - ٨ - في خالد بن يزيد الشيباني (١)
 - ٩ - في مالك بن طوق (١)
 - ١٠ - في أحمد بن عبدالوهاب الكاتب (١) •
 - ١١ - في حمد بن محمد بن ابي نصر الكاتب (١) •
 - (١) أخبار البحثري ص ٦٩ •
 - (٢) الديوان ١/٨١ - ٨٢ •

منه صغيراً •

قال لابي جعفر القمي يستهديه أضحية :

جُعلت فداك ! لي خبر طريف
وأنت بكل مكرمة خير
غداة النحر ينحر كل قومٍ
ولا شاة لدي ولا بعير
بلى ! عندي حمار لي ، فقل لي
أقبل من مضجها الحمير ؟
لئن لم تفده - تفديك - نفسي
بذبح فهو في غده نحير (١)

ويظهر ان بعض من كان ينتجعهم ويسترفدهم يدون حiale شيئاً من
المطالعة والتسويق ، وربما حجبه عنهم ، فتراه - عند ذلك - يتدنى في
مطلبه ، ويتقاصر عما وعد به ، ويبدى قبوله لأدنى ما يسمح به • قال من
أبيات في احد مدوحيه :

أجباباً بعد المديح ومطلا
بعد وعد ، من ذا بهذين يرضى ؟
يا كثير المطال ، كم والى كم
أتقاضاك موعداً ليس يقضى
كلما سرت في اقتضائك مالي
عقاً ، سرت في مطالك ركضاً
قد حططنا بعض ما كان في الوعد
د لنا واجباً لتخبر بعضاً

(١) نفسه ١٠٩٦/٢ •

واقصرنا على الدنانير فاجعل

سها لنا نحلة وان شئت قرضا^(١)

واستطاع البحري بما تجمع لديه من مال ان يقتني بعض الضياع ،
وكان يفرع الى ممدوحيه حين يطالب بشيء من الخراج ، وجاء ذلك في
الابيات التي قصد بها محمد بن يوسف وهي :

نفسى تقيك ووالداي كلاهما

وجميع من ولدا - من الاسواء

ثقل الخراج على دين مؤلم

ولديك ما اشتكته دوائي

ان البقية من خراجي قدرها

ما ان يكون لديك قدر غداء

فامنن على بصوم يوم واحد

واجعل غداك لي فيه غنائي^(٢)

(١) الديوان ١٢٢٠/٢ .

(٢) نفسه ٤٤/١ .

الفصل الاول

اختلاف البحري الى سامراء :

متى بدأ الشاعر يختلف الى هذه المدينة ؟ ومن هم الشخصوس الذين تعرف بهم أولاً ؟

الواقع انه ليس من السهل - اذا ما توخينا الدقة - الاجابة عن هذين السؤالين فليس بالامكان تحديد الزمن الذي بدأ به الشاعر الاختلاف الى هذه المدينة ، كما لا سبيل الى معرفة الشخصوس الاولى التي اتصل بها . فالمرجع القديمة لا تهدينا الى الخطوط الاولى لحياة الشاعر وصلته بهذه المدينة ورجاله ، فهذا الصولي وهو أول من جمع اخباره لم يحاول ان يجلو هذه الناحية ، واكتفى بسرد روايات شتى تتصل بأخبار البحري وعلاقته بالخلفاء والوزراء والادباء ، وهي أخبار لا تكشف كما قلنا عن الخطوط الاولى لهذه الناحية من حياة الشاعر . وكذلك فعل من جاء بعده ، فالاصفهاني أشار في أغانيه الى انه : « شاعر فاضل نصيح حسن المذهب ، نقي الكلام مطبوع . . . له تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر سوى الهجاء »^(١) . ولم يشر الى صلته بالخلفاء والرجال الا اشارات سريعة لا تلقى ضوءاً كبيراً على هذا الجانب من حياته .

والخطيب البغدادي اكتفى بالقول بان الشاعر « من أهل منبج ، بها ولد ونشأ وتأدب ، وخرج منها الى العراق فمدح جعفر المتوكل على الله وخلقاً من الاكابر والرؤساء »^(٢) وحذا حذوه ابن خلكان فأشار الى ان الشاعر : « كان مقيماً بالعراق في خدمة المتوكل ، والفتح بن خاقان ، وله الحرمة التامة ، فلما قتلا كما هو مشهور في أمرهما ، رجس الى منبج . . . »^(٣) .

-
- (١) الاغاني ١٦٧/١٨ طبعة الساسي .
 - (٢) تاريخ بغداد ٤٤٦/١٣ .
 - (٣) وفيات الاعيان ٨٣/٥ .

أما المراجع الحديثة ، فقد مر أكثر أصحابها بهذه المرحلة من حياة الشاعر مراسريعا ، وجاروا في ذلك ما ذكرته المراجع القديمة^(١) .
غير ان بعض الدارسين حاول ان يقف عند هذه النقطة من حياة الشاعر موقفا فيه شيء من التحفظ ، فنبهوا الى وجوب التريث في تسجيل ما يتصل بحياته في غضون هذه الفترة بالذات ، كما حاولوا من جهة أخرى ان يسلطوا الضوء على بعض جوانب هذه المرحلة ، فلمحوا الى بعض الشخصوس المهمة التي اتصل بها الشاعر في ابان ترده الى ربوع هذه المدينة ، وهو الوزير الاديب محمد بن عبدالمك الزيات الذي مدحه البحرى بقصيدة رائعة^(٢) .

ولعل أهم من اضطلع بمحاولة الكشف عن اولية صلة الشاعر بهذه المدينة هو شارح ديوانه^(٣) ، الذي جهد - بحق - ان ينهض بتاريخ أكثر قصائد الديوان ومقطعاته مستهديا بالحوادث التاريخية والوقائع السياسية والاختبار الادبية وهي غير قليلة فيه . وعمل من هذا النوع يتطلب بلاشك وقتا وجهدا ومصابرة .

وعلى الرغم من ان الشارح قد وفق في الكثير مما ذهب اليه ، فانه قد اضطرر احيانا في بعض عمله هذا ، مما سنشير الى شيء منه في خلال هذا البحث .

وبالرجوع الى قصائد الشاعر ومقطعاته ، نجد ان بعضها يحمل اسماء عدد من مهجويه ، من بينهم « رمكة الكاتب » فقد هجاه البحرى بقصيدة ومقطوعة ، نحا فيهما منحى الفحش والبذاءة ، جاء في الاولى :

(١) أنظر : من حديث الشعر والنثر لظه حسين ص ١١٢ ، وتاريخ

الادب العربي للزيات ص ٢٩٥ .

(٢) أنظر : البحرى لنديم مرعشلي ص ٢٥ ، وحياة البحرى وفنه للدكتور أحمد بدوي ص ٧١ - ٧٤ ، بيد ان مرعشلي كأكثر الدارسين

أشار الى بغداد لا الى سامراء .

(٣) هو الاستاذ : حسن كامل الصيرفي .

قد قلت عن نصيح لبرذونة
تصان أن تسرج أو توكفا
شأنك أن اخطأك الحظ أن
تخرص في السلطان أو تزجفا
أصابك الله بشر فما
أشأم مكفولا وما أحرفا
يحيى بن يعقوب وأصحابه
عفيّت من آثارهم ما عفا
ما كنت في تقطيع أسبابهم
بالامس الا الصارم المرهفا (١)

وجاء في الثانية :

قم تأمل بنا عجائب دهر
كُتبت فيه للرجال الرماك (٢)

وعلق شارح الديوان على القصيدة بقوله : « والذي نرجحه ان
علاقة الشاعر به كانت خلال اتصاله بالكتاب امثال اسماعيل بن شهاب في
أول عهده بسامرا ، أي حوالي سنة ٢٢٦هـ » (٣) . كما رجح نظم المقطوعة
في التاريخ نفسه .

ولكن الشارح حين تصدى للتعليق على بعض قصائد البحري
ومقطعاته في اسماعيل بن شهاب هذا نراه يؤرخ بعضها في سنة ٢٢٨هـ وهي
المقطوعة التي تنجزّ فيها ابن شهاب برذوناً وعده به والتي يقول فيها :
وعدت برذوناً فرددتني
اليك حتى قام برذوني

(١) الديوان ١٣٧١/٣ - ١٣٧٢ .

(٢) نفسه ١٥٨٥/٣ . الرماك : جمع الرمكة : وهي البرذونة تتخذ
للسل .

(٣) نفسه ١٣٧١/٣ الهامش .

وكان مصقول النواحي اذا
 رأيتَه ، مستغرب اللون -
 لؤلؤة تضحك ارجاؤها
 تحسن في البذلة والصون
 منيتي الأدهم من بعدما
 فجعتني بالأشهب الجون
 إن تكذب الميعاد تظلم وإن
 تصدق فبرذوناً ببرذون^(١)
 كما نراه يعلق على القصيدة التي مطلعها :

ما على الركب من وقوف الركاب
 في مغاني الصبا ورسم التصابي
 بقوله : « كان أبو القاسم اسماعيل بن شهاب كاتباً للقاضي أحمد بن
 أبي دواد • ونرجح ان تاريخ صلة الشاعر باسماعيل بن شهاب ترجع الى
 سنة ٢٣٢هـ »^(٢) •

وواضح ان الشارح قد اضطرب في تحديد علاقة البحري بهذه
 المدينة وباسماعيل بن شهاب ، فهو يرى ان أول عهده بها كان سنة ٢٢٦هـ ،
 ثم يعود فيقول : ان ذلك كان سنة ٢٣٢هـ ، والاضطراب بين تاريخي
 المقطوعة والقصيدة في اسماعيل بن شهاب ظاهر كما ترى !
 وفي الديوان أيضا مقطوعة فاحشة في هجاء أخي العطوي الشاعر
 يرجع الشارح تاريخها الى سنة ٢٢٦ ، ويعقب عليها بقوله : « والشاعر
 حديث عهد بالعراق »^(٣) •

واذا علمنا ان العطوي كان من الشعراء المتقطعين الى أحمد بن أبي
 دواد ، وان شعره لم يشتهر الا حين قصد سامراء ، وان سامراء كانت

(١) نفسه ٢٢٤٢/٤ •

(٢) الديوان ٨٣/١ الهامش •

(٣) الديوان ١٥٨٨/٣ الهامش •

الحاضرة العباسية في هذه الاثناء^(١) ، فمن المحتمل ان يكون أخو العطوي هذا في سامراء حينذاك أيضا ، واذا صح هذا فان البحرري كان آنذاك في هذه المدينة ومن ثم هجاء !

ومن الغريب - اذا صحت هذه الأهاجي وتوارىخها - ان يبدأ البحرري علاقته بالهجاء ، وأكبر الظن انه لم يقدم على هذا أول الامر ، ومن المحتمل ان يكون قد مهد لهجائه بشيء من المديح ، وحين وجد إعراضاً عنه لجأ الى ما لجأ اليه من الثلب والشتم .

وأكبر الظن ان البحرري في تردده على سامراء - اذا صح انه بدأ منذ سنة ٢٢٦ . لم يتسن له الاتصال بالخليفتين : المعتصم والواثق^(٢) ، فليس هناك ما يدل على شيء من ذلك ، وكل ما اثر عنه في ذلك قصيدة نظمها في أعقاب وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ ، رفعها الى ابي سعيد محمد ابن يوسف الثغري الذي كان ينتجعه ويقيم في كنفه ؛ عزاه فيها بوفاة المعتصم ، وهناك بقيام الواثق ، قال فيها :

أبا سعيد وفي الايام معتبر
والدهر في حالتيه الصفو والكدر
ما للحوادث لا كانت غوائلها
ولا أهاب لها ناب ولا ظفر
تغزّ بالصبر ، واستبدل اسيّ بأسيّ
فالشمس طالعة ان غيَّب القمر
وهل خلا الدهر : أولاه وآخره
من قائم يهدى مذ كوّن البشر ؟

-
- (١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٧٧ .
(٢) يرى الدكتور طه حسين ان البحرري اتصل بالواثق ، يقول : « ثم انتقل (أي البحرري) الى بغداد » والصحيح سامراء « فاتصل بالخلفاء العباسيين : اتصل بالواثق والمتوكل ومن بعدهما ٠٠٠ » من حديث الشعر والنثر ص ١١٢ ، ولا دليل - فيما نحسب - على هذا الاتصال المزعوم .

إيهماً عزاءك ، لا تغلب عليه فما
 يستعذب الصبر الا الحية الذكر
 فلم يمت من أمير المؤمنين له
 بقية وان استولى به القدر
 مضى الإمام فأضحى في رعيته
 إمام عدل به يستنزل المطر
 ان الخليفة « هارون » الذي وقت
 في كنه آلائه الأوهام والفكر
 وأشار الى موقف أبي سعيد من خلافة الواثق فقال :
 ألك في نصره صباحاً أضاء له
 ليل من الفتنة الطخياء معكسر
 سكتت حد أناس فلّ حدهم
 حدّ من السيف لا يبقى ولا يذر
 ودعوة لأصم القوم مسمعة
 يصفي اليها الهدى والنصر والظفر
 أقمتهما لأمر المؤمنين بما
 في نصل سيفك اذ جاءت بها البشر
 فاسلم جزيت عن الاسلام من ملك
 خيراً ، فأنت له عزّ ومفتخر (١)

ومن للجدير بالملاحظة ، ان شارح الديوان يرى في قول البحتري
 « ألك في نصره صباحاً .. البيت » اشارة « الى مؤامرة العباس بن المأمون
 مع بعض قواد المعتصم من الاتراك على اغتياله وهو يحارب الروم ...
 ويرى ان « لابي سعيد موقفاً في احباط هذه المؤامرة التي حفظت للواثق
 الخلافة » (٢) .

(١) الديوان ١١٢/٢ - ١١٣ . (٢) نفسه ١١٣/٣ هامش (٩) .

بيد ان الايات - كما تبدو لنا - واضحة الدلالة على شيء آخر ،
وأكبر الظن انها تشير الى محاولة البعض الخروج على الخليفة الجديد ،
وان هذا القائد استطاع ان يقضي على الفتنة في مهدها ، وانه كان من
المسارعين في توكيد البيعة • هذا الى مؤامرة العباس بن المأمون مضى عليها
- عند استخلاف الواثق - أكثر من أربع سنوات ، ويبدو ان المصادر
التاريخية قد أغفلت الاشارة الى الخارجين على الخليفة الجديد ، في حين
انفرد البحتري في تسجيل هذا الحادث •

وللبحتري قصائد أخرى أرخصها الشارح في سنة ٢٢٨ هـ ، منها قصيدة
في محمد بن راشد الخناق ، أحد المختصين بالعتصم الأثريين عنده ، يلتمس
فيها معروفه ويدعوه بصلة الرحم ووشائج القرى ، ويستميله بحرمة
الادب ونصرة الحق التي تربطهما وتجمع بينهما ، فيقول :

إني لفعلك يا محمد حامد

واليك بالأمل المصدق قاصد

يوصيك بي عطف القريب ومذهب

في الرشيد سهله أمامك راشد

ولقد هزرت فكنت أحمد منصل

غمده لخمك في العلا او غامد

أدعوك بالرحم القريبة انها

ولهي تحن كما تحن الفاقد

وبحرمة الادب المقرب بيننا

والناس فيه أقارب وأبعد^(١)

وإذا صح ان محمداً هذا كان من مقربي العتصم والمختصين به فتكون
هذه القصيدة - على الاغلب - مما قيل في المدوح وهو في سامراء !

(١) نفسه ٥٦٥/١ •

صلة البحترى ببعض الرجال والكتاب : آل الحسن بن سهل :

ومن شعر البحترى الذي يدور في فلك هذا التاريخ قصائده في الحسن بن سهل وولديه : ابراهيم والحسين • وله فيهم جميعا (١٥) خمس عشرة قصيدة ومقطوعة تشتمل على « ٣١٥ » ثلاثمائة وخمسة عشر بيتا ، من ضمنها ما أنشأه في غلامه نسيم الذي ابتاعه منه ابراهيم كما سيأتي •
واسرة بني سهل فارسية الأصل ، وكان الفضل والحسن من اشهر ابناء هذه الاسرة ، فقد استوزرهما المأمون في غضون خلافته ، كما تزوج بوران ابنة الحسن المذكور • وأصيب الحسن بمرض شديد كان من اثره تغير عقله ، حتى شدّ في الحديد وحبس في بيت • وبعد ابتناء سامراء في عهد المعتصم ، أقطع الحسن في جملة من اقطع من رجال الخليفة وقواده وحاشيته في هذه المدينة ، ويبدو ان قطيعته كانت مشهورة معروفة ، فكان يقيم هو وأولاده فيها • وقد توفي الحسن في سامراء سنة ٢٣٦هـ (١) •

عيد المهرجان :

ولعل أول ما أنشأه البحترى في أسرة بني سهل هذه القصيدة التي رفعها الى الحسن نفسه ، وقد استغرقت المقدمة الغزلية (١٢) اثني عشر بيتاً ، أشاد بعدها بصفات الممدوح من مجد عريق ، وكرم فياض ، ورأى حصيف ، وتدير محكم ، واعتزاه الى كسرى ، وامارات الهية والوقار ، وقدرة على اطلاق الحكم البليغة ، ثم أخذ يحثه على الاحتفاء بعيد المهرجان ، عيد آباءه الفرس القدامى الذين كانوا يعظمونه ويوقرونه ، فقال :

شغل الحمد والنساء جميعا

عن جميع الورى نوال الأمير

وإذا ما استهل بالحسن الجو

د فانّ الكثير غير كثير

(١) أنظر : الطبري ٥٢٧/٩ ، ٥٢٨ ، ٥٦٨ (دار المعارف) ،
وسامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٧٢ ، والبلدان لليعقوبي ص ٢٥ •

ملك عنده على كل حال
 كرم زائد على التقدير
 فكأننا من وعده وجداه
 أبداً بين روضة وغدير
 جامع الرأي ليس يخفى عليه
 أين وجه الصواب في التقدير
 كسروى عليه منه جلال
 يملأ البهو من بهاء ونور
 وترى في روائه بهجة المد
 ك ، وخت الايوان من كافور
 يطلق الحكمة البليغة في عر
 ض حديث كاللؤلؤ المنشور
 * * *

يابن سهل وانت غير مفيق
 من بناء العلياء أخرى الدهور
 ان للمهرجان حقاً على كل كبير من فارس وصغير
 عيد آبائك الملوكة ذوي التي
 جن ، أهل النهى وأهل الخير
 عظموه ووقروه ومخفوه
 ق بفضل التعظيم والتوقير
 هو يوم ، وفيه من كل شهر
 خلق ، فهو جامع للشهور
 وكان الأيام أوثر بالحس
 من عليها ذو المهرجان الكبير^(١)

(١) الديوان ٢/ ٨٨٤ - ٨٨٧ .

والقصيدة - كما يخيل إلينا - واضحة التكلف ، وهي الوحيدة في المدوح ، ولعل البحري اكتفى بها ؛ بسبب اعتلال صحة الحسن ، واتخذها وسيلة للاتصال بهذه الأسرة !

شعره في ابراهيم :

وأكثر ما روى للشاعر في بني سهل كان في ابراهيم بن الحسن بن سهل وقصائده فيه تنقسم قسمين : قسم قاله حين اتباع منه ابراهيم غلامه نسيماً الذي جعله - كما يقال - باباً من ابواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه لذوي المروءة والثراء ، ثم يعود الى التشييب به والتشوق اليه ، ومدح من يكون في حوزته حتى يهبه اليه^(١) . وكان ابراهيم من اصدق الناس للبحري كما يقال^(٢) .

ويبدو ان اتباعه كان امتحاناً لمغالة الشاعر في التظاهر بحبه والحرص عليه ، وانتقاماً منه لما أثر عنه من هجائه ابن سهل^(٣) ، فما كادت تمر أيام على فراقه حتى ثارت نائرة البحري ، وقامت قيامته ، وندم على اتباعه . وراح يلتمس كل وسيلة ممكنة لارجاعه ، فعاتب ابراهيم في غير شعر ، ولما رأى اصراره في الاحتفاظ به ، لجأ الى القريض يبثه اشواقه وحنينه ويدعو فيه ابن سهل ان يرق له ويردّ عليه نسيمه ، فقال في ذلك هذه الأبيات التي اعلن فيها عن قلقه واضطرابه ، وعن اطراحه مجالسة الندماء وعزوفه عن الشراب ، وندامته على اتباع غلامه والتماسه من ابي الفضل اعادة النظر في امره فقد أشرف على خطر مهول ، وأصابه جزع شديد لا يخففه التعزي ، ولا التصبر ، وأنى له السلوان والقليل وليست الدار بينهما بعيدة ، ولا العهد بقديم :

(١) نفسه ٥٢٩/١ الحاشية .

(٢) أنظر : اخبار البحري ص ١٥٧ .

(٣) أنظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، واخبار

البحري ص ١٣٠ .

اميلوا الزجاج الصفو عني فانكم
 أقمتم وما شخصى لكم بمقيم
 فان متّ كان الموت من كرم الهوى
 وليس الهوى ان لم أمت بكريم
 فقل لنسيم الورد عنك فأنني
 أعاديك اجلالاً لوجه نسيم
 ندمت ، وقال الناس كيف تركته ؟
 فقل في ملام واقع بمليم
 أبا الفضل راجع من حجاج فأنني
 على خطر مما يخاف عظيم
 وخبرتني أن العزاء تكرم
 وهل يتعزى عنه غير ائيم
 فما الدار فيما بيننا ببيدة
 ولا العهد فيما بيننا بقديم (١)

واتبع البحري الايات السابقة بقصيدة أخرى بكى فيها غلامه الذي
 فارقه واختفى عن ناظره طيفه ، وتعذرت عليه رؤيته ، وهو الحبيب ذو
 الوجنت الموردة ، والقدر الشيق الذي بدل الاعداء اسمه وغيروه - ولعل
 ذلك كان نكايه بالبحري وايغالا في ايلامه - ثم وصف ما يكابده من
 تباريح الحب ، ولواعج الشوق ، وادعى ان حبه لا يدانيه حب جميل
 لبشينة ، ولا عمرو بن عجلان لهند ، والتمس من ابن سهل ان يردده عليه ،
 وان يكتفي بما لديه من الغلمان ؛ لانه ليس بمقدوره سلوانه ولا
 التصبر عنه :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد
 أظنّ نسيماً قارف الهجر من بعدي

(١) الديوان ٤/٢٠٧٤ - ٢٠٧٥

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه
فيا عجباً للدهر فقدأ على فقد
خليل! هل من نظرة توصلانها
الى وجنات يتسبين الى الورد
وقد يكاد القلب يتقدّ دونه
اذا اهتز في قرب من العين أو بعد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه
فبات غريباً في رجاء وفي سعد
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تمل
وان جهد الاعداء ، عن ذلك العهد
هوى لا جميل في بشنة ناله
بمثل ، ولا عمرو بن عجلان في هند
* * *

ابا الفضل في تسع وتسعين نعجة
غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الجوى
مأخذه مما أسرّ وما أبدى
وتخطو اليه صبوتي وصبابتي
ولم يخظه بشي ، ولم يعنه وجدي
وقلت : اسل عنه والجوانح حوله
وكيف سلّو ابن المفرغ عن برد (١)

ويبدو أن شدة وله الشاعر بغلامه استحوذت على نفسه وطلعت على
تفكيره ، فليس هناك من يهيمه أو يفكر فيه سوى غلامه نسيم الذي افتقده
وافتقد طيفه أيضا ، وان حسرانه لتطفئ ، واشجانه لتعتلج حين يرى غلام

(١) الديوان ٥٨٢/١ - ٥٣٠

غيره يرد الى صاحبه في حين يمتنع عليه غلامه ويتعذر :

أنسيم هل للدهر وعد صادق
فما يؤمله المحب الوامق ؟
مالي فقدتك في المنام ولم تنزل
عون المشوق اذا جفاه الشائق
أمنعت أنت من الزيارة رقبه
منهم ، فهل منع الخيال الطارق ؟
اليوم جاز بي الهوى مقداره
في اصله ، وعلمت اني عاشق
فليهنىء الحسن بن وهب انه
يلقى أجنبته ونحن نفارق^(١)

ويضيق البحري ذراعاً بفراق غلامه واحتجابه عنه فيعود الى نفسه
لائماً على ما بدر منه ، ومقرراً لما فرط فيه ، وواصفاً نفسه بالخبث
واللؤم والظلم وبأن لا أمل له في هوى غلامه الذي دونه عين الرقيب ،
وباب ابراهيم الذي ابتاعه :

قل للجنوب : اذا غدوت فأبلغني
كبدى نسيماً من جناب نسيم
أخذت عنك وانت بدر خادع
ليليل عن ظلم له وغيوم
كرم الزمان ، ولت فيك ، ولن ترى
عجيباً سوى كرم الزمان ولومي
وظلمت نفسي جاهداً في ظلمها
فاسمع مقالة ظالم مظلوم

(١) نفسه ٣/١٥١٣ .

قد زاد يوم البؤس بعدك انه
أفضى الى بعقب يوم نعيم
فأقمت في قلبي وشخصك سائر
لا تبعدن من ظاعن ومقيم
لا كان وجدي ! أين كان وانت لي
ملك ، وعهدي منك غير ذميم
الآن أطمع في هواك ودونه
عين الرقيب وباب ابراهيم^(١)

ويبدو ان لجاجة الشاعر وعتابه لابراهيم جعلته يرجع اليه غلامه ،
وكان لقصيدته الضادية أثر كبير في هذا الشأن . جاء في أخبار البحثري
عن ابنه ابي العوث قوله : « قال لي ابي : لم ينفعني عند ابراهيم بن
الحسن وسيلة في رد غلامي الا أبياتي الضادية :
أما الشباب فقد سبقت بغضه
وكان متسخطاً لشيء بلغه عني ، فقلت فيها :
ومكايد لي بالمغيب رमितه
بصريمة كالنجم في منقضه

القصيدة « (٢) » .

والقصيدة افتتحها بالجزل ثم هاجم من كاد له في المغيب فنال منه ،
ومما رماه به ، وانتقل الى ما وصله من عتاب ابن سهل له الذي غيرته
عليه الوشاة ، وجهد ان يتصل ويعتذر مما رمى به ووصم ، وقد تطف
في ذلك وأبدع حتى ليخيل لنا أن هذه القصيدة تعد ترشيحا لقصائده
الاعتذارية والعتابية التي عرف بها البحثري فيما بعد ، قال :
ومكايد لي بالمغيب رमितه
بصريمة كالنجم في منقضه

(١) الديوان ٣/ ١٩٦٤ - ١٩٩٥ . (٢) أخبار البحثري ص ١٣٠ .

فرددت ظلمة يومه في أمسه
وأرأيته إبرامه في نقضه
أمضيت ما أمضيت فيه ، ولو تني
بإشارة أمضيت ما لم أمضه

★ ★ ★

وعتاب خل قد سمعت فلم أكن
جلد الضمير على استماع ممضه
هذا أبو الفضل الذي صرح الندي
في راحتيه مشوبه عن محضه
لم نختدع بجهامه عن غيمه
يوماً ، ولم نر خلباً من ومضه
طاف الوشاة به فأحدث ظلمة
في جوّه ، ووعورة في أرضه
غضبان حمل إحنة لو حملت
ثبج الصباح لثقلت من نهضه

★ ★ ★

مهلاً ! فذاك أخوك ذو الهيته
عن لهوه ، وشغلته عن غمضه
خزيان ، أكبر أن تظن خيانة
في بسطه بصديقه أو قبضه
ماذا توهم ان يقول ، وقوله
في نفسه ، ولسانه في عرضه ؟
أنبوت عنك بزعمهم ؟ ومتى نبا
في حالة بعض امرئ عن بعضه

أُتصلت من عود الحياء وبدئه
وخرجت من طول الوفاء وعرضه
المدحجية بيننا موصولة
بنوافل الادب الاصيل وفرضه
ونزدد للكأس أحدث حرمة
أخرى ، وحقاً ثالثاً لم نقضه^(١)

ردّ غلامه اليه :

بعد ان أنشأ البحثري ما أنشأ في غلامه نسيم رق له ابراهيم الذي
ابتاعه منه فردّه عليه ، فقال البحثري هذه القصيدة الرائية يمدحه فيها
ويشكره على صنيعه ، ولم يبدأها - كعادته - بالغزل ، وانما دخل في
صلب غرضه الاساس ، ففدى بنفسه الممدوح الذي ورد بحر كرمه
المتفجر وغرس في فئاه آماله فزكت واورقت وأثمرت ، ثم التفت الى
الوشاة الذين سعوا بينهما فكانوا سبب الخلف والافساد فندد بهم ونكل
واعترف بتقدمه بالهجران الذي أدى الى تأخر حظوظه في الخير
والاحسان ، وادعى انه لم يرم زيارة قطيعة الممدوح لولا ما يأمله من
وجوده فيها ، حيث كان يقصده - كلما شعر باستبطاء وده - بشعره
المفوّف المحبّر • ويسترسل الشاعر فيعترف بذنبه الكبير وغدره المنكر ،
ومجازاة الممدوح له بالصفح عنه ، واسداء المعروف له ، ولا ينكر انه
بسبوغ نعمة آل الممدوح عليه تسهلت صعاب حياته ، وتندت جفوف
معيشته ، وانه ليعد نفسه ابناً لهم دون سواهم ، ويعدّهم اجباء المقربين
دون رهطه وقبيله ، ثم يعود الى الممدوح فيطريه ويكبر ما وهبه له ، وردّه
عليه من العطاء الجزل فيقول :

فداؤك نفسي دون أهلي ومعشري
ومبدأي من علو الشأم ومحضري

(١) الديوان ١١٩٥/٢ - ١١٩٧ .

فكم شِعبٍ جود يقصر البحر عنده
 توّردته من سيك المتفجر
 وكم أمل في ساحتك غرسته
 فمن مورك أزكى النبات ومثمر
 فلا يهنئ الواشين إفسادُ بيننا
 بأسهم من بالغ ومقصر
 تقدمت في الهجران حتى تأخرت
 حظوظي في الاحسان كل التأخر
 ولولاك ما رمت القطيعة بعدما
 وقفت عليها وقفة التحيير
 وكنت اذا استبطأت ودك زرتة
 بتقويف شعر كالداء المجبر
 أتيت بمعروف من الصفح بعدما
 أتيت بمذموم من الغدر منكر
 عتاب بأطراف القوافي كأنه
 طعان بأطراف القنا المتكسر
 واجلو به وجه الإخاء واجتلى
 حياء كصبغ الأرجوان المصفر
 * * *

بنعمتكم يا آل سهل تسهلت
 على نواحي دهري المتوعر
 شكرتكم حتى استكان عدوكم
 ومن يول ما أوليتمونه يشكر
 ألسنت ابنكم دون البنين وانتم
 أجباء أهلي دون معن وبختر

أبا الفضل ان يصبح فعالك ازهرراً
فمن فضل وجهه في الساحة أزهر
وهبت الذي لو لم تهبه لما التوى
بك اللوم ان العذر عند التعذر
وكان العطاء الجزل ما لم تحلّه
بشرك مثل الروض غير منوّار^(١)
• أما القسم الآخر فهو الذي قاله في ابراهيم بمناسبة شتى

سليل المجد :

فمن شعر البحري في هذا القسم هذه القصيدة التي تحدث فيها
بعد المقدمة الغزلية عن الممدوح الذي يعتزى الى نسب عريق ، وينتمى الى
أصل كريم ، فأبأؤه من الملوك الذين طابوا أعرافاً ، وشرفوا محامد ومكارم ،
واتخذوا لهم مواطن الحضارة ، وانتأوا عن مساكن البداوة ، وانه - أي
الممدوح - سليل أب كان له فضل لمّ شعث الطوائف المتفرقة ، وانه حين
ورد العراق وجد ملكه (أيدي سبأ) فاستن لنفسه سيرة أحد أجداده القدامى
وهو أزدشير ، فأقام الملك ، وجمع القلوب ، وأخمد الثورات فاطمأن الناس ،
وهدأت الأحوال • ومعلوم ان الحسن بن سهل والد الممدوح وولاته المأمون
في سنة ١٩٨ هـ « كل ما كان طاهر بن الحسين افتتحه من كور الجبال
وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن »^(٢) فقدم بغداد في
سنة ١٩٩ هـ من عند المأمون واليه الحرب والخراج فلما قدمها فرّق عماله
في الكور والبلدان^(٣) .

وبعد أن أثنى الشاعر على اسرة الممدوح أشار الى ان سموه ورفقته لم
تكونا نتيجة ما عرف به من كرم الأصل ، وعراقة المحدث ، بل ان له من كريم

(١) الديوان : ٨٨٩/٢ - ٨٩١ .

(٢) الطبري ٥٢٧/٨ .

(٣) نفسه ٥٢٨/٨ .

الفضائل ، وفنون المحاسن ما يبوئانه ذرا المجد ، ويضعانه في اسمى مراقى
الحمد • ويمضى البحري يفاضل بين ممدوحه وبين الليث الذي شبهه به
في البسالة وفضله في الجود والعبو ، ثم يطرى أريحتيه للكرم واهتزازه
للمعروف ، ويفاضل بينه وبين الغيث الهاطل فيفضله عليه لعمومه المعتفين
بجدواه ، وخصوص الغيث ارضاً دون أخرى بجوده ، ويسترسل في اسباغ
النعوت عليه فيصفه بالمواهب المشهورة والمواعد المعروفة وينهي المدحة بشكر
المدوح على عطاياه •

ويبدو ان البحري لم يجد في المدوح سمة معينة تميزه كما وجد في
غيره ، ولهذا فقد ذهب الى اسرته يستمد منها العون للاشادة به والتلويح
بفضله :

وأغرّ للفضل بن سهل عنده
كرم اذا ما العمّ ورتّ لوما
ملك اذا افتخر الشريف بسوقة
عدّ الملوك خؤولة وعموما
من معشر لحقت اوائل ملكهم
خلف القبائل جبرهماً وأميا
نزلوا بأرض الزعفران وغادروا
أرضاً تربّ الشيخ والقيصوما^(١)
كانوا أسوداً يقرمون الى العدى
نهمّاً اذا كان الرجال قروما
وابن الذي ضمّ الطوائف بعدما اف
ترقت فعادت جوهراً منظوما

(١) تربّ : تجمع •

ورد العراق وملكها أيدي سببا
 فاستار سيرة ازدهير قديما^(١)
 جمع القلوب وكان كل بني أب
 عرباً لشحاء القلوب وروما
 أفتى بنى الحسن بن سهل إنهم
 فيان فارس نجدة وحلوما
 لا توجبن° لكريم أصلك مننة
 لو كنت من عكل لكتت كريما
 فلك الفضائل من فنون محاسن
 بيضاً لافراط الخلاف وشيما
 ما نال ليث الغيث الا بعضها
 حتى رعى مهج النفوس حميما
 شاركته في البأس ثم فضله
 بالجدود محقوقاً بذاك زعيما
 ورأيت يوم نذاك أشرق بهجة
 واهتز أطرافاً ، ورق نسيميا
 وشهدت يوم الغيث في هطلانه
 جهماً محيَّاه أغم بهيما
 ويخص أرضاً دون أرض جوده
 وسحاب جودك في العفاة عموما^(٢)
 أنسي عليك ثناء من ألفتيه
 غُفلاً فعاد بنعمة موسوما

(١) استار : مشى على خطته واستن بسنته .

(٢) الجود : (بفتح الجيم) المطر الغزير .

وشكرت منك مواهباً مشهورة
 لو سرن في فلك لكنّ نجومها
 ومواعداً لو كنّ شيئاً ظاهراً
 تفضي اليه العينُ كنّ غيوماً
 كان ابتداؤك بالعطاء عطية
 أخرى ، وبذلك للجسيم جسيماً^(١)

الادب المحض :

ومن مدائح البحري في ابراهيم ايضاً هذه الفائية التي أثنى فيها على
 المدوح الذي اوجدته اياه همة قطعت به الفياض والخروق ، ووجد في كفه
 الرضا والثوق ، وإنّ سبباً متبنياً من الادب اللص يربط بينهما * ويبدو ان
 المدوح كان يتذوق الادب ويحفل به ، وكان من حفاوته به واحتفاله ان
 قربه منه ، ومدّ عليه وظله ، وبوآه منزلاً من منازل * ومضى الشاعر يعدد
 صفات المدوح ويتفنن في ذكرها والاشادة بها ، فهو يهش للعطاء ، ويحذب
 على معنفيه ، ويسمو الى المعالي ، ويحل المعضلات ، يروح بحلم ثقيل ،
 ويفدو بفهم خفيف ، متمرس بالأمور ، بصير بعواقبها ، حديد القلب ،
 شجاع النفس ، لا يرهب الوغى ، ولا يخشى الخصوم ، يدهم بحملته
 الزخوف فيفلها ويبددها ، ويشتد في مقارعة العدو فيسد عليه منافذ الهرب
 والفرار ، وهو الى كل ذلك سليل أسرة مشهورة بكرم المحتد ، وعراقة
 الأصل ، وقد ساد وهو ما زال في ميعة الصبا ، وعنفوان الحداثة :

وخليل لا أرهب الدهر ما دم
 ت أراه ، والدهر جمّ الصروف
 أوجدتيه همّة خرقت بي
 كلّ خرق من البلاد مخوف

(١) الديوان ٣/ ١٩٦٤ - ١٩٦٨ .

لا يفيد الصديق من لا يفيد الـ
عيس حظاً من الوجا والوجيف^(١)
أنا راضٍ وواتق من أبي الفضـ
ل ، بفعل على الندى موقوف
سبب بيننا من الادب المحـ
ض قوى الأسباب غير ضعيف
وحليفي على الزمان سماح
من كريم للمكرمات حليف
قلبي يكاد يخرج من وهـ
مك في شكله الرشيق المظريف
وكان الشليل والنثرة الحصـ
داء منه على سليل غريف^(٢)
صاحب الحملة التي تقض الزحـ
ف من جانب الخميس الكثيف
حيث لا يتهدى الجبان الى الفرـ
وحيث النفوس نصب الحتوف
في ليف من المنايا يمزقـ
من غداة الهيجاء كل ليف
ومقام بين الأسنة ضنك
وهشيم من الطبا مرصوف
مدليلاً على الكماة فما يمـ
شون فيه إلا بضوء السيوف

(١) الوجا : الحفا • الوجيف : العدو السريع •
(٢) الشليل : الغلالة تلبس تحت الدرع ، أو الدروع الصغيرة •
النثرة : الدرع الواسعة أو السلسلة الملبس • الحصداء : الضيقة الحلق
المحكمة • الغريف : الشجر الملتف •

يا ابا الفضل قد تناهى بلوغ الـ
فضل من دون فضلك الموصوف
سدت في سنك الحديث وما النجـ
دة الا للأجدل الغطريف^(١)

وعلى الرغم من ان النعوت والافصاف التي خلعتها البحترى على
المدوح قد سبقه اليها الشعراء ، فانه تناولها بشيء من البراعة والطرافة ،
وسكب عليها من قوة خياله ، ولطف فنه ما أحالها الى صور تكاد تبدو وكأنها
من مبتدعاته وطرائفه •

رب القريض :

وهذه مدحة أخرى في ابراهيم تسعة الأبيات الاولى منها في التشبيب ،
وما تبقى في الثناء على المدوح الذي - كما يبدو - قصده الشاعر في السفن ،
وقد حمل اليه الفاظاً مديجة موشاة متبختره ، ويظهر ان ابراهيم - كما
اسلفنا - كان يتعاطى الادب ولعله كان يقرض الشعر أيضاً ، وان لم تشر
المراجع الى شيء من هذا ، ولكن تكرار البحترى لهذا الأمر دليل على ميل
المدوح الى ذلك ، فهو يقول : انه يهدى القريض الى (رب القريض) وان
فعله هذا كفعل من يحمل البرود والعصب الى مواطنها ومهداها ، وان
انشغاله برد شكره قد اوقفه عن بكاء اطلال الاحبة ودمنهم ، تم يسترسل في
اطرائه والثناء عليه والاكتفاء به دون سواه ، ويمتدحه بالفهم والفظنة ،
فيقول :

ان الهموم اذا أوطن في خلد
للمرء سار ولم يربح على وطن
الى المهذب ابراهيم اوصلنا
آذيّ دجلة في غير من السفن
غرائب الريح تحدوها ويجنبها
هادٍ من الماء متقاد بلا رسن

(١) الديوان ٣/ ١٣٦٣ - ١٣٦٦ •

جنباك نحمل الفاظاً مديجة
 كأنما وشيها من يمنة اليمن
 كأنها وهي تمشي البحرية في
 يدي أبي الفضل أو في نائل الحسن
 نهدي القريض الى رب القريض معاً
 كحامل العصب يهديه الى عدن
 من كل زهراء كالتوار مشرقة
 أبقى على الزمن الباقي من الزمن
 شكر امرئ ظل مشغولاً بشكرك عن
 فرط البكاء على الأطلال والدمن
 قد قلت اذ بسطت كفاك من أملي
 ما شاء من نائبات الدهر فليكن
 رضيت منك بأخلاق قد امتزجت
 بالمكرمات امتزاج الروح بالبدن
 وزدنتي رغبة في عقد ودك اذ
 شفعت ذاك الندى بالفهم والفظن
 تدني الى المجد كفاً منك قد أنست
 بالبذل والجود أنس العين بالوسن
 من يصبه سكن ممن يحب ومن
 يهوى ، فما لك غير المجد من سكن^(١)

فنون الادب :

ومن مديحة فيه هذه القصيدة التي أشاد فيها بفضائل الممدوح وخلالله،
 ويظهر ان ابراهيم - كما كرنا من قبل - لم يكن معروفاً بصفة معينة ،

(١) الديوان ٤/٢١٩٣ - ٢١٩٥ ، وأنظر الديوان ١/٣٠٣ - ٣٠٤

طبعة بيروت ١٩٦٢ .

ولهذا فما يذكره البحتري فيه لا يعدو ان يكون اوصافاً عامة ، كما كان يتخذ من عرافة أسرته الفارسية مادة لاطرائه والثناء عليه ، فهو ابن أخي الفضل بن سهل وزير المأمون الملقب بذئ الرئاستين ، وان له من السمائل الكريمة ما يكرم الدهر بعد لؤمه ، ومن الجُمَل ما لو قسمن على الخلق لما عاد بينهم لئيم ، كما له شيم غضة تروح وتغدو في هبوبها عبقة مؤرجة ، ومآثر قد سمت وتعال حتى تهيمه للامر الرئاسي ، ثم ينعطف الى آله الذين يعترفون الى بني ساسان جوداً ونجدة وأحلاماً ، وانه باسل القلب ، شجاع النفس في المعامع والحروب ، طلق المحيا ، باش الوجه للعفاة والمعوزين ، بل اته قد حاز من كل فن من فنون الآداب حظاً عظيماً ، ولعل هذا البيت يستقطب كل ما بثه الشاعر في ثنايا مدائحه فيه ، وهذا دليل آخر على ان البحتري لم يلمس في الممدوح صفة بارزة يتخذها مادة لمدائحه فيه كما فعل في مدائحه للمفتح والمتوكل والمعتز وغيرهم فيما بعد .

وبعد تعته برقة الالفاظ ، واتعاب العلاياه ، يختم المدحة بتكرار نعته له بالبذل والوجود :

يا أبا الفضل والذي ورث الفضل
 ل عن الفضل حادثاً وقديماً
 قد لعمرى أعدت شمائلك الدهر
 ر فأضحى من بعد لؤم كريماً
 لك من ذئ الرئاستين خلال
 معطيات في المجد حظاً جسيماً
 جمل فيك لو قسمن على النا
 س لما أصبح اللئيم لئيماً
 شيم غضة تروح وتغدو
 أرجاً في هبوبها ونسيماً

قد تعالت بك المآثر حتى
 قد حسبنك للسماك نديما
 كل يوم آملنا فيك للأمم
 سر الرئاسي تقتضيك النجوم
 آل سهل اتم غيوث بني سا
 سان : جوداً ونجدة وحلوما
 ايّ فضل ؟ وأيّ بذل وجود
 لم يحائف ذا الجود ابراهيم
 كسرويّ تلقاه في الحرب ليثاً
 قسورياً ، وفي الندى حكيماً
 هبرزيّ قد نال من كل فن
 من فنون الآداب حظاً عظيماً
 ورقيق الألفاظ يرصف في الأس
 سماع درراً ولؤلؤاً منظوماً
 أتعبته الملا فأبقت ندوباً
 متعبات بجسمه وكلوما
 كل يوم يفيد البذل والجو
 دمتى كان ظاعناً أو مقيماً
 حمد عافٍ ، وذم لاح ، فيغدو في جزيل اللهى حميداً ذميماً^(١) .

عريدة وعتاب :

يبدو ان العلاقة بين البحري و ابراهيم كانت متينة وثيقة وانهما كانا
 يتنادمان على الشراب ، وقد الملح البحري الى ذلك في خاتمة احدي قصائده
 فيه وذلك حيث يقول :

(١) الديوان ٢٠٥٧/٤ - ٢٠٦٠ .

وتردد للكأس أحدث حرمة أخرى ، وحقاً ثالثاً لم نقضه (١)
وقلما تخلو مجالس الشراب من التعكير والتكدير بما يقوم به الندماء
من العريضة والتهور حيال بعضهم البعض • وللبحتري قصيدة موجهة الى
ابراهيم يعاتبه فيها على عريضة كانت منه عليه استهلها بذكر تحول رأى
ابراهيم عنه وتغيره عليه فأظلم ما كان بالامس نيراً بينهما ، وأشار الى ما يراه
في عينيه من أمارات الضغائن والأحقاد والى ما حدث في اخلاقه الدمثة من
التصلب والتعقد ، وانه كلما حاول ان يتقرب منه أبعد عنه محتجاً بعد
ما بينهما من النسب الذي لا ذنب للشاعر فيه وانما هو من صنع الله الذي
فطر الناس وتولى أمر عبيده ، ويسأله البحتري عن خرائده السائرة فيه
التي تجوب التهامم والنجود ، والتي بنت له معقلاً ثابتاً في الشعر ، وابتقت
منه ذكراً خالداً في القصيد ، فيقول له : أما كان لهذه السوائر من حرمة
تصونها ، وعهد ترعاه ، وهذا دليل على تأخر هذه القصيدة بالنسبة لمداخحه
فيه ، ثم يشير الى ما كان يقوم به ابراهيم تجاهه من النزقات والعرابيد في
مجالس الشراب ، ودوران الكؤوس ، ويلمخ الشاعر الى انه لا قوة له
تعضده للموقوف في وجهه ، ولكنه ان فقد المعين والمساند فان له شعلاً ذات
لهيب ترهب الحر وتخيفه ، ولو شاء لثار ثورة عارمة حيال من يتعالى عليه
ويزيد في خصامه ، ولكن أنى له ان يفعل ذلك في اخيه الذي عافده
بخلاف هذا الأمر ، وبعد ان اعلن البحتري عن رأيه الذي لا يخلو من
صرامة وتهديد حاول ان يلفظ من عتابه ويميل اليه قلب صديقه الذي
قد يخامرته الشك في ان الشاعر يتوعده ويتهدده ، فقال : انه يتوب اليه
بدافع من الثقة الأخوية الطريفة التليدة ، ويشكره على ما اولاه اياه من نعم
ومنح ، وان كان يعلم ان الوفاء في هذه الأيام مهلك مود ، وانه سيرحل وفي
نفسه شيء من العتاب ، ولكنه عتاب لا ينطوي على التهديد والوعيد ، كما
سيحفظ منه ويصون ما ضيعه من الشاعر ، على الرغم مما يروجه المكاشح ،

(١) أنظر : ص ٣٣ من هذا البحث •

ويشيعه الحسود ، وانه يرى من الحزم له ان يصدر عن ورود الماء ، ويعافه
اذا ما استوبأه وعلم بمضرتة ، كما انه ليصد عن صديقه ويهجره اذا ما لمح
في وصاله شيئاً من المنفعة والتاجرة ، ويبدو ان البحري حاول في اعقاب
القصيدۃ ان يقارن بين شخصيتين : فارسية وهي التي يمثلها ابراهيم ، وعربية
وهي التي يمثلها ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري احد ممدوحيه ، فأهدى
سلامه لأبي سعيد الذي سعد بكفه العفاة ، والذي لم يتعصب للانساب ،
وانما جعل تعصبه للمعالي ، وقد خلد مجده بين القوافي السائرة ، لما كان
يحفل به منها ومن أربابها ، وانه ان المح في اطراف ظنونه شيئاً ما فيه ، فان
معروفه المتواصل عليه يكذب ظنه ، ويقضي على توهمه ، ولعل في هذا كله
تعريضاً بابن سهل الذي وجد فيه الشاعر كل ذلك كما أسلفنا :

أبراهيم ! دعوة مستعيد

لرأي فيك محمود فقيد

تجلّى بشرك الأمسى عني

تجلّى جانب الظل المديد

وأظلم بيننا ما كان أضوا

على المحظّات في فلق العمود

وفي عينك ترجمة أراها

تدل على الضغائن والحقود

وأخلاق عهدت اللين منها

غدت وكأنها زبر الحديد^(١)

أميل اليك عن ود قريب

فتبعدني على النسب البعيد

وما ذنبي بان كان ابن عمي

سواك ، وكان عودك غير عودي

(١) زبر الحديد : القطع الضخمة منه .

أما استحيت من مدح سوار
بوصفك في التهائم والنجود
تودّ بانها لك فيّ عجباً
بجوهرها المفضّل في النشيد
نت لك معقلاً في الشعر ثباً
وأبقت منك ذكراً في القصيد
وتدهني اذا ما الكأس دارت
بنزقات تجيء على البريد
عرايد يطرق الجلساء منها
عليّ كأنها حطب الوقود
ومعترضين إن عظمت أمراً
بهم شهدوا عليّ وهم شهودي
ومالي قوة تنهاك عني
ولا آوي الى ركن شديد
سوى شعل يخاف الحر منها
لهيباً غير مرجوّ الخمود
ولو اني أشاء وانت تُربي
علّ لثرت ثورة مستقيد^(١)
وقد عاقدتني بخلاف هذا
وقال الله اوفوا بالعقود
أتوب اليك من ثقة بخل
طريف في الأخوة او تليد
وأشكر نعمة لك باطلاعي
على ان الوفاء اليوم مود

(١) المستقيد : الذليل الخاضع .

سأرحل عاتباً ويكون عتبي
على غير التهديد والوعيد
واحفظ منك ما ضيعت مني
على رغم المكاشح والحسود
سلام كلما قلت سلام
على سعد العفاة أبى سعيد
فتى جعل انعصب للمعالي
ووجهه وده نحو الودود
وخلد مجده بين القوافي
وبعض الشعر أملى بالخلود
كذلك لاح في أقصى ظنوني
فلم ألحظه لحظة متزيد
وكيف يكون ذاك ، وكل يوم
يقابلني بمعروف جديد^(١)

الاعتلال بالأباطيل :

وهذه آيات للبحثري يشكو فيها مطاطة ابراهيم ، وقلة نائله ،
واعتلاله بالأباطيل ، ولعلها قد أنشئت في اعقاب القصيدة الأنفة التي أنشأها
عند عريضة ابن سهل عليه في احد مجالس الشرب :
إِام بَابِك مَعْقُوداً عَلَيَّ أَمَلٍ
وراء ، مثل ماء المزن ، محلول
إذا أتيتك اجلالاً وتكرمة
رجعت أحمل برآ غير مقبول
فاليوم أكسب نفسي نية قذفاً
عن اعتلال عليّ بالأباطيل^(٢)

(١) الديوان ١/٥٧٦ - ٥٧٩ .

(٢) نية قذف : بعيدة

فان أردتك عرضت الرسول لما
أخشى من الرد ، واستأذنت من ميل (١)

وداع :

ولعل آخر ما أنشأه البحري في ابراهيم هذه القصيدة التي يودعه فيها حين خرج الى البصرة • وقد اودع الشاعر فيها أسفه وحزنه على فراق المدوح له الذي ذهب بنهايه ما كان يجده من كرم ونوال ، والذي سيجد نفسه عقبه كالضائع ، وان صنائعه التي اعتادها ستحيلها النوى أرسماً وربوعاً ، وسيبقى يذكره ولا ينساها طالما حفظ حرمة وصانها ، وانه سيودع بوداعه الاحسان واللهي ، وسيطلق الدموع من بعده غزيرة مدرارة بل انه سيرحل - برحيله - عن دار يمنع جارها من العطاء والبذل ، وسيصبح وصله مقطوعاً عن قطيعة ابي المدوح التي كانت في سامراء ، فقد جاء في كتاب البلدان لليقوي ما نصه : « واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الاسواق ، وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشية بابك وبين المطيرة موضع قطيعة أفشين ، وليس في ذلك الموضع يومئذ شيء من العمارات ، ثم احدثت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سر من رأى ، وامتد بناء الناس من كل ناحية ، واتصل البناء بالمطيرة » (٢) •

وهذا دليل واضح على ان ما أنشأه البحري في آل الحسن بن سهل كان في أثناء اقامته في سامراء في غضون هذه الفترة ، ولم يكن - كما توهمه بعضهم - في بغداد (٣) •

ويمضى البحري يتأسف على ابتعاد ممدوحه عنه ، ويتحسر على

(١) الديوان ١٨٦١/٣ •

(٢) كتاب البلدان ص ٢٥ طبعة النجف •

(٣) أنظر : حياة البحري وفنه ص ٧١ ، ومما تنبغي الاشارة اليه ان كثيراً من الدارسين درجوا على اطلاق اسم بغداد على كل ما كان يدور في سامراء في غضون القرن الثالث الهجري • أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢١٢ - ٢١٤ •

الايام الصالحة التي قضاها في كنفه ، وانه لا يجد بعد اليوم سوى تذكره
على ما بينهما من البعد والنوى ، ويظهر ان المدوح - كما يبدو من هذه
القصيدة انحدر الى البصرة ليقيم فيها ويطيل المقام ، إذ لم يشر الشاعر
الى انه سيفقل راجعا الى سامراء ولو بعد لآى !

وبعد تحسر الشاعر وتأسفه على ذهاب مدوحه عنه أخذ في اطرائه
وتبيان اهميته بالنسبة للآخرين الذين لم يسلكوا مسلكه في بلوغ المجد
وارتقاء ذرا العلا ، وانهم تخلفوا عنه كثيرا في مضمار الشرف الذي يقيمه
الجود والجد ، فضنوا وشحوا ، وكان في ذلك خمولهم وتأخرهم عنه :

أغداً يشتّ المجد وهو جميع
وتُردّ دار الحمد وهي بقيع ؟

بمسير ابراهيم يحمل جوده
جودُ الفرات فرائع ومروع

متوجهاً تحدى به بصرية
خشن الأزمّة ما لهن نسوع

هوج اذا اتصلت باسباب السرى
قطع التائف سيرها المرفوع

لاشهر أعدى من ربيع ، انه
سبين عا بالربيع ربيع

★ ★ ★

سأقيم بعدك عند غيرك عالماً
علم الحقيقة انني سأضيع

وصنائع لك سوف تتركها النوى
وكأنما هي أرسم وربوع

وذكرت واجب حرمتي فحفظتها
فلئن نسيتك انني لمطيع

سأودّع الاحسان بعدك واللهمي
إذ حان منك البين والتوديع
وسأستقل لك الدموع صبابة
ولو ان دجلة لي عليك دموع

★ ★ ★

فاذا رحلت رحلت عن دار اذا
بذل السماح فجارها ممنوع
وقطيعه الحسن بن سهل انها
تغدو ووصلي دونها مقطوع

★ ★ ★

يفديك قوم ليس يوجد منهم
في المجد مرىء ولا مسموع
خدعوا عن الشرف المقيم تظنياً
منهم بان الواهب المخدوع
باتت خلائقهم على أموالهم
وكانهن جواشن ودروع
قنعوا بميسور الفعال وأوهموا
أن المكارم منة وقنوع
لا يبلغ العلياء غير متم
بلوغها يعصى لها ويطيع
يحكيك في الشرف الذي حليته
بالمجد علماً انه شيع
خلق أتيت بفضله وسنائه
طبعاً فجاء كأنه مصنوع

وحدیث مجد عنك أفرط حسنه
حتى ظننا انه موضوع^(١)

الحسين بن الحسن بن سهل :

والبحتري قصيدة واحدة في الحسين بن الحسن بن سهل أخى
ابراهيم ، وهي تدور في فلك مدائحه لايه وأخيه ، ولا نعلم شيئاً عن
الحسين هذا سوى ما ذكره عنه البحتري في مدحته هذه • وقد مهد
لغرضه الأساس بمقدمة غزلية ووصف ديار الأجابة وما استجده الغيث
فيها من الحلل السندية الزاهية وما انتثر في أفئتها من الازاهير المختلفة
الشيآت ، وما صاغه فيها الربيع من ضروب الاشكال وفنون الألوان •
فهذه الحلل بما فيها تشبه أخلاق المدوح ذي الجود والاحسان ، ثم
يمضي في اطراء مدوحه الذي وجد في ظله عدلا من الزمان ، ونديماً
ملوكياً ، وتواضعاً لآخوانه ، وكريماً معطاء ، وشجاعاً باسلاً ، وينهى المدحة
مشيراً الى أسرة المدوح الفارسية ذات المحتد العريق والمجد الأئيل ،
فيقول :

ابكيا هذه المغاني التي أخذ
لقها بعد أهلها المرزمان^(٢)
اسعدا الغيث اذ بكأها وان كا
ن خلياً من كل ما تجدان
جاد فيها بنفسه فاستجدت
حلا منه جمّة الألوان
فهبي تهتز بين افرنده الأخ
ضر حسناً ووشيه الأرجواني

(١) الديوان ٢/١٣١٤ - ١٣١٦ •

(٢) المرزمان : نجمان مع الشعريين •

في سماء من خضرة الروض فيها
أنجم من شقائق النعمان
واصفار من لونه وايبضاض
كاجتماع اللجين والعقيان
وتريك الأجاب يوم تلاق
باعتناق الحوذان والأقحوان
صاغ منها الربيع شكلا لأخلا
ق حسين ذي الجود والاحسان
فكان الأشجار تعلقو رباها
بشير الياقوت والمرجبان
وكان الصبا تردد فيها
بنسيم الكافور والزعفران

★ ★ ★

تزدهيه من العلا كبرياء
فيه ان يزدهي على الاخوان
وعليه من الندى سيمياء
وصلت مدحه بكل لسان
غمرة جلالة الملك واستو
لت عليه شمائل الفتيان
واصل مجده بعقد الثريا
ويدها بالجيود موصولتان

★ ★ ★

يا أبا القاسم المقسم في المج
د ليوم الندى ويوم الطعان

قد ورث العلياء عن اردشير
وقباز ، وعن أنو شروان
وأرى الليل والنهار سواء
حين تبدو بوجهك الأضحيان^(١)

ويخيل لي ان هذه القصيدة تقف في مقدمة قصائد البحري التي
تزخر بالالوان والاصباغ ، وتخطر بحلل الورود والزهور ، بل لعلها تقف
في مقدمة مدائحه التي نحا فيها هذا المنحى في تشبيه أخلاق ممدوحه .

الحسن بن وهب :

وتهياً للبحري في غضون هذه السنة « ٢٢٨هـ » ان يتقرب من
الكاتب الحسن بن وهب الذي كان يكتب للوزير محمد بن عبدالملك
الزيات وزير الوائق ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً رقيقاً ، اتصل به عدد
من كبار شعراء العصر كأبي تمام والبحري وغيرهما ، ويقال انه ولّى
أبا تمام بريد الموصل ، وله فيه مدائح كما للحسن فيه «رثاء»^(٢) .
أما البحري فمدحه في هذه السنة (٢٢٨هـ) بفصيدتين وعاتبه
بمقطوعة .

فهم أرق من الشراب :

ولعل أول ما أنشأ فيه هذه القصيدة التي اقتطعت المقدمة الغزلية
منها (١٤) أربعة عشر بيتاً ، ثم أخذ في امتداح ابن وهب الذي أطرى
شماله وخلاله ، وأشار الى قصده اياه في العراق وانتجاعه له ، مما يحمل
على الظن ان الشاعر لم يكن مقيماً خلال هذه السنة في هذه المدينة ، كما
اننى على علاه وسموه ، وما امتاز به من المواهب الموروثة عن آبائه واجداده ،
وما طبع عليه من المكارم ، واتسم به من البديهة والحزم والقريحة ، وانه

(١) الديوان : ٢١٩٧/٤ - ٢١٩٩ .

(٢) أنظر في ترجمة الحسن بن وهب : أخبار أبي تمام ص ١٩٧ -
١٩٩ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ ، وزهر الآداب ٦٤٤ ، ٨٥٥ ومروج الذهب ٤٨٦/٣ ،

ومعجم الادباء الاستدراكات ٣٤/٢٠ .

لذو فهم أرق من الشراب ، وفطنة تخترق الغيوب ، وغرائب في الجود
تنبىء انها من لدن عالم أو شاعر أو كاتب ، ولعل في هذا اشارة الى ما امتاز
به ابن وهب من هذه النوع ، ثم ينهى المدحة بالاشارة الى احتفال المدوح
به وباخوانه وأقاربه ، وتقريبه لهم وان لم يشر الى انعامه عليه واعطائه له :

سأردّ من قلبي يروح مباعداً
لمباعداً ، ومقارباً لمقارب
واذا رأيت البحر ضربة لازب
أبدأ ، رأيت الصبر ضربة لازب
* * *

وشمائل الحسن بن وهب انها
في المجد ذات شمائل وجائب
ليقصرن لجاح شوق غالب
وليقصرن لجاح دمع ساكب
ولقد بعث العيس تحمل همّة
أنضت عزائم اركب وركائب
يشرقن بالليل التمام طواعياً
منه على نجم العراق الثاقب
واذا رأيت أبا علي فالعلا
لمشارق من سيبه ومغارب
بدو فيعرب آخر عن أوّل
منه ، ويخبر شاهد عن غائب
بطرائق كطرائق ، وخلائق
كخلائق ، وضرائب كضرائب
ومواهب كعيبة وهيبة
يوجبين في الافضل فوق الواجب

يعلو على علّة بوفد أبوة
يتوهمون هناك وفد كواكب
كانوا بذلك عصابة كعصاب
في مذبح ، وذؤابة كذوائب

★ ★ ★

قهر الامور بديهة كروية
من حازم ، وقريحة كتجارب
فلّ الخطوب وقد خطبن لقاء
فرجعن في اخفاق ظن خائب

هتكت غيابتها بأبيض ماجد
فكأنما هتكت بأبيض قاضب
فهم أرق من الشراب ، وفطنة
ردت أقاصي الغيب ردّ الهارب
ومكارم معمورة بصنائع

فكأنها مطورة بسحائب
وغرائب في الجود تعلم انها
من عالم أو شاعر أو كاتب
لله انت وانت تحرز واهباً
سبقين : سبق محاسن ومواهب

في توبة من تائب ، أو رهبة
من راهب ، أو رغبة من راغب

★ ★ ★

أعطيت سائلك المحسّد سؤاله
وطلبت بالمعروف غير الطالب

علمتي الطرب الشريف ، وربما
كنت الوضع من اتضاع مطالبي
وأريتني أن السؤال محللة
فيها اختلاف منازل ومراتب
وسطت لي قبل النوال عناية
بسطة مسافة لخطى المتقارب
وعرفت ودك في تعصب شيعتي
ووجوه اخواني وعطف أقاربي
فلئن شكرتك انني لمعذر
في واجب ، ومقصر في واجب (١)

وواضح ان البحري قد احتفل في قصيدته هذه وجهد في صوغها
صيغة عالية وادعها الكثير من المطابقات والمجانسات ، ووفرة التقسيم
الذي هو طابع متميز في شعره عامة ، ولكنه لم يتطرق فيها الى بلاغة
الحسن وصناعته الكتابية مما يحمل على الظن بان هذه القصيدة كانت اولى
قصيدته فيه كما قدمنا .
بلاغة :

اما القصيدة الثانية فيبدو ان البحري قالها في اعقاب القصيدة الاولى
وهو لم يستهلها - كعادته - بالغزل ، وانما تساءل في طالعها عن تقصيره
حيال ما حمله الحسن من نعم سابغة وعده ان يقوم بشكرها ، فناء بثقلها
ولم يف بوعده ، واستطرد يطرى المدوح وأسرته التي انحدرت من
اجداد لهم من المكارم والمفاخر ما تشهد على عراقه محتدم ، وطيب
عنصرهم ، ثم وصف بلاغة المدوح ومقدرته الكتابية فتأنق في ذلك
واحتفل ، فهذه أقلامه تجلو بمدادها ما غمض من المعاني والافكار بلفظ
رشيق قريب المتناول ، حتى لنحسب من السهولة مجاراته ، ولكننا ما نكاد

(١) الديوان : ١٥٨/١ - ١٦٢ .

نفل ذلك حتى يعسر الامر ويصعب ، فهو اذن من السهل الممتع ، وهذه المعاني موشحة بالحكم التي لا ينضب معينها • وهي في الائلافها وتفننها كزهر الروض أو البرود المجتابة في الالوان والشيآت ، وانها لتبعث في السامع من المذة والنشوة ما يعثه شخص الحيب حين يبدو لجيبه •
وينهى المدحة بتكرار الثناء على الممدوح واطراء صفاته وخلالله وفيض كرمه وجوده •

ويبدو ان البحري لمس جمال وصفه هذا ، وروعة تشبيهاته فرددهما بعد ذلك في مدحته لمحمد بن عبدالملك الزيات التي تطرق فيها الى كتابته وبلاغته ، حتى ليبدو التشابه بين الوصفين كبيراً الى حد التماثل في كثير من الالفاظ والمعاني •

من سائل لمعدّر عن خطبه
أو صافح لمقصر عن ذنبه ؟
حُملت للحسن بن وهب نعمة
صعبت على ذلّ الثناء وصعبه
ووعده أنه أنبي أقوم بشكرها
فحملت منه لفاً ، فلم أنهض به (١)
الاّ أكن كلفيت منه يذنبلاً
فلقد مُنيت بخدنه أو تربيه
ما أضعف الانسان ، الا همّة
في نبله ، أو قوّة في لبّه
من لا يؤدى شكر نعمة خلّه
فمتى يؤدى شكر نعمة ربه
واذا استهل ابو علىّ للندي
جاء الغمام المستهل بسكبه

(١) اللفاء واللفا : الخسيس من كل شيء ، وكل شيء يسير حقير •

واذا تألّق في الندىّ كلامه الـ
 مصقول خلت لسانه من عضبه
 واذا احتبى في عقدة من حلمه
 يوماً رأيت متالِعاً في هضبه (١)
 واذا دجت أقلامه ثم اتّحت
 برقت مصابيح الدّجى في كتبه
 باللفظ يقرب فهمه في بعده
 منا ، ويبعد نيله في قربه
 حكيم قسائمها خلال بنانه
 متدفق ، وقلبيها في قلبه
 كالروض مؤتلقاً بحمرة نوره
 وبياض زهرته ، وخضرة عشبه
 أو كالبرود تخيرت لتوَجّ
 من خاله ، أو وشيه أو عصبه
 وكانها والسمع معقود بها
 شخص الحبيب بدا لعين مجبه
 * * *

كآثرته فاذا المروءة عنده
 تعدى المفاوض من أقاصي صحبه
 ووجدت في نفسي مخايل سؤود
 ان كنت يوماً واحداً من شربه
 نصبت أخلاقي برونق خلقه
 حتى عدلت أجاجهن بعذبه (٢)

(١) احتبى بالثوب : اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة
 ونحوها • متالع : جيل بنجد •
 (٢) الديوان : ١/١٦٣ - ١٦٦ •

مدح وعتاب :

ويبدو ان البحري قد لمح اطراح الممدوح له ، وعزوفه عنه بعض الشيء ، فأسرع يمدحه ويعاتبه بهذه الايات :

بأبي انت يا ابن وهب وأمي
وخؤولي من طيء وعمومي
حين مرت بنا السحاب أرتنا
خلقاً منك ليس بالمدوم
حسدت فعلك الكريم على المج
د فجارت شاملاً بغيوم
ملت عني الى سواي بأفوا
ف حديث كالجوهر المنظوم
ثم راسلتي بكاساتك المد
رة حث النديم كأس النديم
واذا ما انكمت عني بستر
فكأنني بالهنند أو بالروم (١)

واذا صحَّ تاريخ كل ما تقدم من القصائد التي قيلت في ابراهيم بن الحسن بن سهل وفي الحسن بن وهب ، واذا صح كذلك ما عقب به أبو العنيس الصيمري على قول البحري في غلامه نسيم « لو أعطيت به منية المتمني ما ملكه أحد » والله لو وجد ربح عشرة دراهم بوالدته لباعها فكيف لا يبيع غلامه . . . » أقول اذا صح كل ذلك فمعنى هذا ان صلة الشاعر بهذه المدينة ورجالها قد بدأت تتوطد وتظهر جلية ، وانه كان معروفاً لدى الكثيرين بالجنس المادي الذي سلك للحصول عليه مسلماً فريداً من نوعه . ويتضح كذلك ان أبا العنيس الصيمري الذي كان يقسم في ربوع هذه المدينة قد ناصبه العداة منذ ذلك الوقت حتى كانت الحادثة

(١) الديوان ٢٠٦١/٤

المشهورة بينهما في أحد مجالس المتوكل والتي كادت ان تقضي على مستقبل
الشاعر لولا تدخل الفتح بن خاقان وتهدئته له كما سيأتي •
ويبدو ان تردد البحثري على سامراء ورجالها ، جعله يسجل ما يتاب
من يسترفدهم من أمور •

نكبة :

ففي سنة ٢٢٩هـ^(١) أمر الواثق بحبس عدد من الكتاب والزمامهم
أموالا طائلة وكان في جملتهم سليمان بن وهب كاتب ايتاخ التركي ، وأخوه
الحسن بن وهب فأخذ من سليمان اربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن أربعة
عشر الف دينار^(٢) • فأوحت هذه الكارثة لشاعرا بقصيدة افتتحها بمناجاة
الزمن وطلبه الرفق بما يقوم به من ويلات وكوارث ، مذكراً اياه بانه
سيفنى ويبلى كما يفنى ويسبلى ، وكأني باشاعر أراد ان يعزي المنكوب
ويقلل من شأن مصيبتهم ، فكل شيء مآله الى الزوال والاضمحلال عاجلا
أو آجلا • ثم وصف ما أصاب ابن وهب من دمار ، وما لحقه من خسار ،
واتخذ من اقفرار منزله وخلوه من لذيذ الطعام ، وسائغ الشراب مثلا
للتدليل على ما حل بصاحبه من سوء الحال ، واضطراب الأمر ، وأشجار
أيضا الى ان منزله كان واقعا في المطيرة ، احدى ضواحي سامراء التي كانت
متنزا ومرتادا لذوي القصف والمجون ؛ لما فيها من وفرة الحانات ،
ووسائل اللهو^(٣) :

(١) روى اثنتونخي في الفرج بعد الشدة ص ١٠٢ - ١٠٣ خيرا عن
عبيدالله بن سليمان بن وهب عن ابيه ان حبس والده وبقيت الكتاب كان
في اواخر عهد الواثق ، وانه اطلق من سجنه بوساطة القاضي أحمد بن
أبي دواد في اليوم الذي توفي به الواثق ، ومعنى هذا ان حبس الواثق
للكتاب - على هذه الرواية - يكون في سنة ٢٣٢هـ •

(٢) أنظر : الطبري ١٢٥/٩ ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ١٠/٧ ،
والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢٥٦/٢ •

(٣) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣١٧ - ٣٢٣ •

أناة أيها الفلك المدار
أنهب ما تطرف أم جبار؟ (١)
ستفنى مثل ما تفنى وتبلى
كما تبلى ، فيدرك منك ثار
تُناب النابتات اذا تهاوت
ويدمر في تصرفه الدمار
وما أهل المنازل غير ركب
مطاياهم : رواح وابتكار
لنا في الدهر آمال طوال
نرجيها ، وأعمار قصار
وأهون بالخطوب على خليع
الى اللذات ليس له عذار
فآخر يومه سكر تجلّي
غوايته ، واوله خمّار

ويوم بالمطيرة أمطرتنا
سماء صوب وابلها العقار
نزلنا منزل الحسين بن وهب
وقد درست مغايبه القفار
تلقينا الشتاء به ، وزرنا
بنات اللهو اذ قرب النهار
أقمنا أكلنا أكل استلاب
هناك ، وشربنا شرب بدار

(١) النهب : الغلبة على المال والقهر . الجبار : الهدر ، يقال ذهب
دمه هدرأ لم يؤخذ بثأره . تطرف : جاوز حد الاعتدال .

تازعنا المدامة وهي صرف
واعجلنا الطبايح وهي نار
ولم يك ذاك سخفاً غير أنني
رأيت الشرب سخفهن الوقار
رضينا من مخارق وابن خير
بصوت الاثل اذ متع النهار
تزعزعه الشمال وقد توافي
على انفاسها قطر صغار
غداة دجّة للغيث فيها
خلال الروض : حج واعتمار
كأن الريح والمطر المناجى
خواطرها : عتاب واعتذار
كأن مدار دجلة اذ توافت
بأجمعها : هلال أو سوار

★ ★ ★

أصاب الدهر دولة آل وهب
ونال الليل منهم والنهار
أغارهم رداء العز حتى
تقاضاهم فردوا ما استعاروا
وما كانوا فأوجههم بدور
لمختبط ، وأيديهم بحرار
وان عوائد الايام فيها
لما هاضت بوادئها انجبار^(١)

اعتلال الحسن :

ويبدو ان صلة البحري بآل وهب استمرت وطيدة الى ما بعد هذه

(١) الديوان ٢/٩٥٩ - ٩٦١ .

السنة^(١) ، فقد رويت له في الحسن وأخيه سليمان ، مقطعات وقصائد تناولت حالات شتى • فهذا الحسن يعتل - كما يقال - في سنة ٢٣٠ هـ ، ويسمع بذلك الشاعر فينشئ قصيدة يتوجع فيها عليه ويصف ما أصابه من امتقاع اللون وشحوبه ، وما كان يتجمل به من كتمان سر علته ، ولا ينسى أن يضرب الامثال على ما آل اليه امره بعد اعتلاله ، تخفيفا لشدة وطأة المرض وآثاره ، فهو كالسيف الذي يجلو صدأه ، وينقى كدره تعاور المصاقل وكروورها عليه ، وكالبدر الذي لا يبدو ضوءه الا في ظلم الدياجي ، وحالك الادجان :

فاشكر يد الايام في حسن فقد
 عفى اساءتها به احسانها
 أوما تراه تغيّرت قمريّة
 في لونه فتغيّرت ألوانها ؟
 نفسي فداؤك ايها النفس التي
 لو خلّيت اودى بها خلائها
 قد زدت في مرض القلوب فبرّحت
 برحأؤها ، وتضاعفت أشجانها

★ ★ ★

ما علة كتم التجمل سرّها
 لو لم يخبرنا بها اعلانها
 أنبئها بالغيب ثم رأيتها
 تدنو مسافنها ويصغر شانها

(١) يرى بعض الدارسين ان صلة الشاعر قويت بالحسن بن وهب بعد وفاة المعتز التي كانت سنة ٢٥٥ هـ ، بيد اننا لم نجد له شعرا في الحسن بعد هذا التاريخ (أنظر : حياة البحثري وفنه ص ١٣) • على ان بعضهم يرى ان وفاة الحسن كانت في سنة ٢٥٠ هـ (أنظر : الاعلام ٢/٢٤١ الطبعة الثالثة) •

وسمعت وصفكها ، فقلت لو انها
زادت ، واكبر بغيتي نقصانها
لا تبعثن لها الهموم قواصداً
بعد الهموم فانها أعوانها

★ ★ ★

ضرب من المكروه يدفع آخرأ
كالنار كُفَّ بفرقد وقدانها^(١)
والسيف قد ينقيه من كدر الصدا
كدر المداوس بكرها وعوانها^(٢)
والبدر يكسفه النهار قبتدي
ظلمَ الدجى فتيره أدجانها^(٣)

تلكؤ وتباطؤ :

والظاهر ان الحاف البحري في طلب العطايا والهبات قد جعل
الحسن وأخاه يتلكآن أحياناً في مواصلة منحهما له ، وهذا ما تشير اليه
القصيدتان اللتان يشكو فيهما الشاعر التوقف والاحجام عن ارفاده
وامداده ، وهما تدوران في نطاق السنة نفسها •

صيقل الشعر :

ففي القصيدة الاولى التي أشاد في القسم الاول منها بكرم الحسن
وجوده ، وبمجد آباءه واسلافه - يشير الى اطراحه وعدم الاصغاء الى
شعره الذي سكب فيه عصارة ذهنه حتى كان فيه من المبرزين ، وانه
ليعجب - والمدوح خير من يفهم الشعر ويقدره حق قدره - كيف يحرم
صاحب الشعر من الاثابة في حين يجزى من يستحسن هذا الشعر ، وانه
ليرجو اصغاء المدوح لعتابه الذي سيشرحه سوء حاله له ، فقد دهمته

(١) الفرقد : شجر عظام او هي العوسج اذا عظم ، واحدة : فرقدة •

(٢) المداوس : جمع المِدْوَس : وهو المصقلة •

(٣) الديوان ٤/ ٢١٩٠ - ٢١٩٢ •

الخطوب ونزلت بساحته الكوارث ، وليس عجيباً ان يحل به ما حلّ لو
لم يكن المدوح من معاصريه وابناء زمانه وانه لو أحجم عن ارفاده واسعافه
فسيقتدى به غيره في ذلك ، وهذا ما يخشاه ويخافه ، وينهى قصيدته بحثه
على ان يكون عطاؤه في اوانه والا فلا جدوى فيه ولا غناء :

يا صقيل الشعر المقلد في الذي
يُختار من قليّه ويمانه
اسمعه من قوآله تزدد به
عجياً ، وطيب الورد في أغصانه
أحسنت فيه مبرزاً فحفتوتي
وتبر أقواماً على استحسانه
* * *

هل تصغين لأخ يقول بحاله
متعّباً اذ لم يقل بلسانه
نزلت بعقوته الخطوب طوارقاً
فخوتته وانت من اخوانه^(١)
ما كان غرواً أن يضيع زمامه
لو لم يكن في عصره وزمانه
* * *

هذا وانت الحجة البيضاء في
اكرامه من وافد وهوانه
ومتى رآك الناس تحرمه اقتدوا
بك غير مرتابين في حرمانه
فتكون أول مانع من نفسه
ما أمل العاني ومن جيرانه

(١) العقوة : الساحة والمحلة • تخونته : تنقصته ، وخانته •

والارض تبذل في الربيع نباتها
وكذاك بذل الحر في سلطانه
والعرف ببيان فمن يعد الربى
يُسرف ، ويعفُ السيل من بنيانه
واعلم بأن الغيث ليس بنافع
للناس ما لم يأت في ابّانه^(١)

مديح بلا ثمن :

اما في الثانية فكانت شكوته صارخة ، وعتابه ممزوجاً بما يشبه التائب
والتهديد ، لان مديحه الذي أجهد فيه قريحته بدون ثمن ؛ ولأن ممدوحيه
- على ثرائهم - عاجزون عن ثوابه ، حتى لكان في مسامعهم - عن دعوته -
وقراً ، وفي نواظرهم - عن خصاصته - وسناً ، وهو ان همّ بالهجاء فانما
يهجو نفسه ، فخير لسانه ان يغمد عن كل ما هو حسن او سيء ، وخير
له ان يتغاضى عن اجحافهم له ، فهم ابناء ابيه وذوو رحمه :

اسمع مديحي في كعب وما وصلت
حق من الشعر ملوى بواجبه
أعجزتكم مكاناتي به ، ولكم
الخلافة أستبقى الرجاء فلن
هل في مسامعكم عن دعوتي صمم
إن ارمكم يك من بعضي لكم شعل
أو أجرني الحلبة الاولى بلا صغد
ليغمدنّ لساني خائباً أبداً
رددت نفسي على نفسي وقلت لها :

كعب ، فثمّ مديح ما له ثمن
فلا سليمان يقضيه ولا الحسن
مصرّ فما خلفها فالسند فاليمين ؟
تعطى الخلافة نجران ولا عدن
أم في نواظركم عن خلتني وسن
تهوى اليكم ومن بعضي لكم جنن
تولونه فهو الخسران والغبن
عن تين فيكم فلا سيء ولا حسن
بنو أبيك فما الأحقاد والاحن^(٢)

(١) الديوان : ٢٢٦٢/٤ - ٢٢٦٤ .

(٢) الديوان ٢٣٠٩/٤ - ٢٣١٠ .

تساؤم

ويبدو ان آخر ما روى للبحثري في آل وهب - اذا صح ما جاء في ديوانه - مقطوعة يرجع تاريخها الى سنة ٢٣٢ هـ في هجاء الحارثي ، يقول
فهيأ :

الله ! الله يا أبا الحسن في آل وهب كواكب اليمـن
لا تغرين شؤمك القديم بهم فيصبحوا كالرسوم والدمن^(١)
محمد بن عبد الملك الزيـات :

غير ان البحثري - باطماعه الواسعة ، ومراميه البعيدة - ما كان يرضى لشعره - وقد اشتهر وتناقلته الألسن - ان يكون مقصوراً على فئة معينة من الناس ، قد لا تستطيع ان تلبي كل حاجاته ، وتشبع كل رغباته ، فلا بد له اذن من أن يخطو خطوة أخرى ، ويطمح الى غاية قصوى ، فكيف يتيسر له ذلك ؟ ومن اين يبدأ ؟ كيف يتسنى له ان يحظى بالمثل بين يدي رجالات هذه المدينة ، وينال رضاهم وعطاياهم ؟

الحق ان البحثري كان ذكياً فطناً في سلوك ما يوصله الى مراميه ، ومن اجل هذا يخيل لنا انه كان يتغنى في توطيد صلته بالحسن بن وهب - الى جانب طمعه في هباته ومنحه - النفوذ عن طريقه الى ما هو ابعد من ذلك . انه كان يرمى الوصول الى عتب الوزير الاديب محمد بن عبد الملك الزيـات الذي كان الحسن يكتب له - كما أسلفنا - وفعلاً استطاع البحثري ان يتقرب من الوزير المذكور ويمدحه بقصيدة واحدة .

والحق انه لا سبيل الى معرفة الطريقة التي سلكها الشاعر للوصول الى ابن الزيـات ، كما لا سبيل الى معرفة الشخصوص التي يسرت له هذا الاتصال ، اذ انه لم يخبرنا بشيء عن كل ذلك .

(١) نفسه ٢٢٢٤/٤ . روى البيهقي في المحاسن والمسائى ص ٥٣٣ : ان المتوكل أمر بحبس الحسن بن وهب وأخيه سليمان ، فقال الحسن في ذلك أبياتا من الشعر ، اطلق هو واخوه على اثرها ، واذا صح هذا فيجوز أن تكون هذه المقطوعة اشارة الى ذلك الحادث .

ويخيل لنا ان البحري قد استعان بالحسن بن وهب في هذا الامر - وان لم يشر الى ذلك في شعره ، كما فعل بعد ذلك عند اتصاله بالفتح والمتوكل - كما يخيل لنا ان ابن الزيات قد سمع بشعر البحري في الحسن وبخاصة قصيدته في وصف بلاغته وكتابته الى تأنيق فيها كثيراً ، فرغب ان يشاد بكتابته وبلاغته على النمط الذي جاء به الشاعر • ولعل هذا ما حدا بالبحري ان يكرر في وصف كتابة ابن الزيات وبلاغته ما قاله في كتابه ابن وهب • ولكن متى مدح البحري ابن الزيات هذا ؟ الواقع ان المصادر التي ذكرت هذا الاتصال لم تحدد سنة بعينها ، وانما أشارت اشارات عامة ، فبعضها يذكر ان البحري مدح ابن الزيات ، حين استوزر^(١) ونحن نعرف انه استوزر في عهد المعتصم والوائق وبقي أياماً في عهد المتوكل • وبعضها يشير الى شيء من التحديد فيقول : ان هذا المدح كان في عهد الخليفة الوائق^(٢) • وهذا الرأي بعضه أحد أبيات القصيدة حيث ورد فيه اسم هذا الخليفة ، وهو قوله :

دقّ فهماً وجلّ علماً فأرضى المدح - فهينا ، والوائق بن الرشيد^(٣)
ولكن في أية سنة من خلافة الوائق كان هذا المدح ؟ أغلب الظن انه كان في اواخر خلافته ، وقد لا يبعد ان يكون في سنة ٢٣٢هـ^(٤) •

ولعل اقتصار الشاعر على هذه المدحة دليل على تأخر تأريخها ، اذ ان الممدوح - كما هو معروف - قتل أشنع قتل - بعد وفاة الوائق بأيام قليلة - هذا وليس في القصيدة ما يشير الى ان الممدوح قد أنعم على الشاعر مما يؤيد انه لم يقل فيه سواها •

(١) العمدة ١/٢٤٦ •

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٣/٣٦٥ •

(٣) الديوان ١/٦٢٥ •

(٤) ذهب شارح الديوان الى انها قيلت سنة ٢٣١هـ ولا دليل

على ذلك •

وقد بدأ البحري القصيدة - على عادته - بالغزل واعقبه بتبيان همته
ورأيه في السعي وراء الغنى ، ثم انتقل الى غرضه الاصلي فأسبغ على المدوح
صفات الكرم والشجاعة والحصافة والتدبير وحيطة الخلافة من اعدائها ،
وما الى ذلك مما ينبغي ان يتصف به رجل السياسة والادارة :

يا نديمي بالسواجير من ودّ بن معن وبحتر بن عتود
اطلبا ثالثاً سوى فاني رابع العيس والدجى والييد
لست يالواهن المقيم ولا القا ئل يوما ، ان الغنى بالجدود
واذا استصعبت مقادة أمرٍ سهلتها أيدي المهاري القود^(١)
حاملات وفد التناء الى أب لبح صب الى تناء الوفود
علقوا من محمد خير جبل لرواق الخلافة الممدود
لم يخن ربها ، ولم يعمل التد بير في حل تاجها العقود
مصلتاً بينها وبين الأعداي حد رأي يفلّ حد الحديد
فهي من عزم رأيه في جنود قمن من حولها مقام الجنود
كابدته الأمور فيها فلاقت قلبي التصويب والتصعيد
صارم العزم ، حاضر الحزم ساري ال ففكر ثبت المقام صلب العود
دقّ نهماً وجلّ علماً فأرضى المد ه فينا والوائق بن الرشيد

★ ★ ★

وكان اهتزازة للعطايا من قضيب الأراكة الأملود
وكان السؤال ينشر ورد الرو ض في وجهه وورد الخدود
يابن عبد الملك ملكك الحم د وقوف بين الندى والجدود
ما فقدنا الأعدام حتى مدنا سيباً نحو سيبك الممدود
سؤدد يصطفى ، ونيل يرجي وثناء يحيي ، ومال يودي
على ان اهم ما اشتملت عليه هذه القصيدة سوى ما تقدم الوصف الاينق
لكتابة ابن الزيات وبلاغته ، وهو وصف افن فيه الشاعر اقتنائاً وجهد ان

(١) القود : جمع القوداء وهي الطويلة العنق .

يكسوه من رشاته الفاظه ، وروعة معانيه ، الشيء الكثير ، حتى استحال الوصف قطعة فنية خالدة طافحة بالشيآت والالوان • وفيه الى جانب ما تقدم اشارة الى خصائص الكتابة كما يراها الشاعر ، وهي خصائص تنحل الى اجتناء اللفظ وخلوه من الحوشي والتعقيد والبلوغ به الى المرامي والغايات البعيدة :

عطل الناس فن عبدالجيمد	لتفتت في الكتابة حتى
و انه نظام فريد	في نظام من البلاغة ما شك امر
حك في رونق الربيع الجديد	وبديع كأنه الزهر الضا
للقه عوده على المستعيد	مشرق في جوانب السمع ما يخ
س ، وما حملت ظهور البريد	ما أعيرت منه بطون القرايط
عن أغانسي زرزور وعقيد	مستميل سسمع الطروب المعنى
ظ فرادى كالجوهر المودود	حجج تخرس الألد بألفا
هجت شعر جرول وليد	ومعان لو فصلتها القوافي
وتجنبن ظلمة التعقيد	حزن مستعمل الكلام اختياراً
من به غاية المراد البعيد ^(١)	وركن اللفظ القريب فأدرك
ر اذا رحن في الخطوط السود ^(٢)	كالعدارى غدون في الحلل الصف

★ ★ ★

وواضح ان وصف البحرى هذا يعيد الى الاذهان ما سلف من وصفه لكتابة الحسن بن وهب وبلاغته ، وقلنا هناك ان التماثل كبير بين الكثير من الألفاظ والمعاني ، وبالإمكان الرجوع الى ما قاله في ابن وهب للوقوف على

(١) جاء في اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٤٦ : « ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة ، وألطف تعملا ، وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديعة ، والقوافي الواقعة ، كمذهب البحرى ، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب : (واورد عدة ابيات في وصف بلاغة ابن الزيات » .

(٢) الديوان ١/٦٣٣ - ٦٣٨ .

ذلك (١) .

ضميق وصراخ :

ويبدو ان البحري كان يقيم أحياناً في ربوع هذه المدينة ويطل المقام
فلا يجدى عليه ، ولا ينال ما يصبو اليه من عطاء ورفد ، فيصرخ في وجوه
الناس مندداً ببخلهم وجهلهم ، وواصماً ايهم بالبلادة ، وقلة الاكثراث بما
يأتي به من درر الشعر وروعة القريض فكان من جراء ذلك يشد الرحال
ويضرب في الارض عله يجد من يسبح عليه من نعمه وجدواه :

وعيرتني سجال العدم جاهلة والنبع عريان ما في فرعه ثمر
وما الفقير الذي عيرت آونة بل الزمان الى الأحرار مفتقر
عزى عن الحظ ان العجز يدركه وهون العسر علمي في من اليسر
بخل وجهل ، وحسب المرء واحدة من تين حتى يعفى خلفه الأثر
إذا محاسنى اللاتي أدل بها كانت ذنوبي ، فقل لي: كيف اعتذر
أهز بالشعر أقواماً ذوى وسن في الجهل لو ضربوا بالسيف مانعروا
علي نحت التوافى من معادنها وما علي لهم ان تفهم البقر
لأرحلن وآمالي مطرحة بسر من راء مستبطن لها القدر
أبعد عشرين شهراً لاجداً قيرى به انصراف ولا وعد فينتظر (٢)

بيد ان الشاعر على رغم مما كان يلقاه من الجفاء ، وقلة العناية به
أحياناً من رجال هذه المدينة ، وعلى رغم من تطوافه في أرجاء البلاد منتجعاً
مسترفداً لم يكن له بد من الأوية الى هذه الحاضرة ، ما دام ينشد ثراء
واسعاً ، وصيتاً مدوياً .

اسماعيل بن شهاب :

وممن اتصل بهم من صغار الكتاب اسماعيل بن شهاب كاتب احمد بن
ابي دواد قاضي القضاة! في عهد : المعتصم والواثق والمتوكل . ويظهر ان

(١) أنظر : ص (٥٧) من هذا الفصل .

(٢) الديوان : ٢ / ٩٥٤ - ٩٥٦ .

اتصاله به كان في خلال سنة ٢٣٢ هـ ، اي في خلافة الواثق على الأغلب ، حيث كان للقاضي نفوذ كبير في هذا العهد ايضاً .

نجم يعلو مع الكتاب :

وأكبر الظن ان اول ما أنشأه فيه بائته التي امتدحه فيها والتي خصّ المقدمة الغزلية بعشرة أبيات ، ثم اجرى على لسان متغزلته عتاباً او عدلاً له ، لاجتيازه قومها وقصده بمدائحهم سواهم ، ثم أجاب ان عمله هذا لم يكن من اثر غضبه عليهم ، بل لان ممدوحه نجم يعلو مع امثاله من الكتاب الذين هم أنصار السؤدد الغريب ، واخوان الصفاء ، وأسرة الآداب ، والذين ان سألت عنهم فهم اولو المجد ، وان كثرت فهم اولو الألباب ، ثم عرّج على الممدوح فاثني على جوده الذي كفاه الحاجة والعوز ، واطرى وفاء وما اتسم به من حب المحامد والمكارم ، وما تحلّى به من عزم ماضٍ وهمّة عالية ، وعرض عليه ان يمتلك لسانه ليكون في عداد مداحيه ما دام قد حفظ عليه كرامته وصاله عن أناس أشحاء متخلفين :

عدلتني في قومها واستترابت جيئي في سواهم وذهابي
ورأت عند غيرهم من مديحي مثل ما كان عندهم من عتابي
ليس من غضبة عليهم ، ولكن هو نجم يعلو مع الكتاب

* * *

شيعة السؤدد الغريب وإخوا ن التصافي وأسرة الآداب
هم اولو المجد إن سألت فان كا ثرت كانوا هم اولي الألباب
ومتى كنت صاحباً لذوي السؤ دد يوماً فانهم أصحابي

* * *

وكفاني اذا الحوادث أظلم من شهاباً بغرّة ابن شهاب
سبب اول على جود اسما عيل أعتى عن سائر الأسباب
لاستهلت سماؤه فمطرنا ذهباً في انهلال تلك الذّهاب^(١)

(١) الذهبية : المطرة ، واحدة الذهب .

لا يزور الوفاء غيباً ، ولا يع
مستعيد على اختلاف الليالي
شق صدر الفعّال عشق الكعاب
نسقاً من خلّاتق أتراب
* * *

شمّر الذيل للمحامد حتى
عزّمت يعضن داجية الخط
جاء فيها مجرورة الهدّاب
ب ، ولو كان من وراء حجاب
ة ، ويقطن والسيوف نوابي
* * *

يا أبا القاسم اقتسام عطاء
خذ لساني اليك فالملك للال
ما نراه أم اقتسام نهاب ؟
بن في الحكم عدل ملك الرقاب
* * *

صنّتي عن معاشر لا يُسمّى
من جعاد الأكف غير جعاد
اولوهم الاتّغداة سباب
وغضاب الوجوه غير غضاب
ارعة المجد في غداة ضباب (١)
اخطأوا المكرمات والتمسوا قا

حجب ومماثلة :

ويظهر ان اسماعيل لم يكن بمقدوره مجازاة جشع الشاعر ونهمه
الذين لا يعرف لهما حد ، فهو يريد أن يعطى ويستمر على اعطائه ، ويبدو
انه كان يأمر بحجبه وردّه عن بابه ، وهذا ما يشير اليه البحثري في هذه
القصيدة التي يعاتب فيها المدوح والتي يذكر فيها قلة اكثرائه بما ينسجه
فيه من مختار الكلام ، ورائع القصيد ، كما يلمح الى ان هناك من أغراه
بالليل منه ، وكاد يفعل لولا ما يحمله عنه من ودّ صادق ، وذمة توجب له
الوفاء :

هل للندی عدل فيغدو منصفاً
العارض الثجّاج في أخلاقه
من فعل اسماعيله ابن شهابه
والروضة الزهراء في آدابه

(١) الديوان : ٨٣/١ - ٨٧ .

أزرى به من غدرة بصديقه
 في كل يوم وقفة بفنائمه
 اسمع لغضبان تثبت ساعة
 تالله يسهر في مديحك ليله
 فأتى به كالسيف رقرق صقيل
 وحجبتة حتى توهم انه
 واذا الفتى صحب التباعد واكسى
 ولرب مغرٍ لي بعرضك زادني
 لولا الصفاء وذمة أعطيها
 عرض ليس تقتله الكتاب :

وحين يجد البحثري من ابن شهاب أذناً صمّاء ، وسكوناً مطبقاً يردف
 عتابه هذا بعدد من المقطعات في هجائه والنيل منه ، ينحو في بعضها منحي
 الفحش والبذاء ، فهو يقول في إحدى مقطعاته انه سئم كثرة ما رددته فيه من
 العتاب الذي هو آخر الود ، وهو وان لم يبعده من الادب فانه يجهل آباء
 ما هو ؟ وقد هان عليه سخطه حين بدا له بعرض لا تقتله حتى الكلاب ، وكان
 له ان يشفى بسبه وشتمه لو لم يجده لئماً دنيئاً لا يؤلمه سباب ولا يفزعه
 شتم :

لرددت العتاب عليك حتى
 فلم أبعدك من أدب ، ولكن
 وهان عليك سخطى حين تغدو
 وهل يشفى السباب من ابن لؤم
 سئمت ، وآخر الود العتاب
 شهاب في التخلف ما شهاب ؟
 بعرض ليس تقتله الكلاب
 دنىء ليس يؤلمه السباب ؟ (٢)

والظاهر ان ابن شهاب هذا كان شحيحاً مع الشاعر حتى انه - كما

(١) الديوان ١/ ٨٨ - ٨٩ ومن الجدير بالملاحظة ان البحثري لم
 يمدح ابن ابي دواد بشيء من شعره بيد انه هجاه في عهد المتوكل .
 (٢) الديوان ١/ ١٥٧ .

يدعي البحري ، لم يشبه على بائته التي مدحه فيها والتي سبق ذكرها ،
 فطلب منه - على سبيل التهكم - ان يبيعه بها خمراً •
 أباً قاسم حان الرحيل ولا أرى لبائتي فيكم نوالاً ولا أجراً
 ونحن جلوس حول ورد مضاعف وليست لنا خمرة ، فبعنا بها خمراً^(١)
 غريم السوء :

ولعل آخر ما أنشأ فيه هذه المقطوعة التي يهجوها فيها أيضاً ، ويشير
 الى شحها ، وقلة نواله ، وعدم اثابته على مديحه فيه ، ثم يغمزه في نسبه
 ويحط من آبائه فيقول :

يا صاحب الأصداغ والطرّة°	ولابس الحمرة والصفرة° ^(٢)
ليتك اذ لم تعطني نائلاً°	يقنني ، اعطيتني مرّة°
ما كان مدحك ووصلي بك الآ	مال إلا سَفَرَ الغرّة°
أعدّ آباءك ما فيهم	عوف ولا سعد ولا مرّة°
قبلت ذاك النزر اذ لم أجد	عند بهيم مُصمت غرّة° ^(٣)
أخذته وتحاً ومن قولهم	خذ من غريم السوء أجره° ^(٤)

كاتب الفتح بن خاقان :

وممن اتصل بهم في هذه الاثناء من الكتاب ايضاً ابو نوح عيسى بن
 ابراهيم كاتب الفتح بن خاقان وزير المتوكل وخدينه • ويظهر ان البحري
 جهد ان يوطد صلته بهذا الكاتب ليصل بوساطته الى هدفه البعيد وهو الفتح
 ابن خاقان ، ولهذا فقد أنشأ ثمانى قصائد في مدحه وعتابه ووصف علته •
 والبحري يقول في بعض مدائحه له انه تولاه بمعروفه وأغدق عليه
 نعمه وكان حفيّاً به ، راعياً عهده ، ثابتاً على مودته :

(١) نفسه ٩٢٢/٢

(٢) الطرّة : من الشعر المقطوعة من جملته •

(٣) البهيم : الاسود ، المصمت : الذي لا يخالط لونه لون آخر •

(٤) الديوان ١٠١٩/٢ الوتح : الخسيس والقليل التافه •

جزى الله أبا نوح جزء المحسن المجلد
 وتمت عنده النعما فهو المنعم المفضل
 تولا نبي بمعروف كسيل الديمة المسبل
 أخ ما غير العهد ال ندى كان ولا بدّل
 على شيمته الاولى وفى مذهبه الأوّل (١)

وقد مهد لمديحه هذا بشيء من الغزل الذي يتسم بركة الألفاظ
 وبسهولتها ، والذي عمد الى مثله بعد ذلك في مدائحه للفتح والمتوكل ، مما
 يحمل على الظن انه لقي قبولاً حسناً من لدن ممدوحيه •

ويبدو ان هذه السهولة أخذت طريقها الى شعره اول مرّة في هذه
 القصيدة ، ومن ثمّ سرت الى بعض قصائده الأخرى فيما بعد فهو يقول :

سقاني القهوة السلسل شبيه الرشأ الأكحل
 مزجت الراح من فيه بمثل الراح أو أفضل
 عذيري من تشيه إذا أدبر أو أقبل
 ومن ورد بخديه إذا جشمته يخجل (٢)

سنه قوي :

ويبدو ان علاقة الشاعر قويت بابى نوح الذي أفاض عليه نعمه حتى
 أصبح يجدى على الآخرين كما يجدى عليه ، فانبرى البحرى يتحفه
 بقصيده ويشني على آلائه الوفيرة ، وأخلاقه الرضية ، وتأيدته الملك ،
 ومباشرته للامور ، وانجازته للاموال ، حتى أصبح محسداً بخلاله الفاضلة ،
 ومن أجل كل هذا فالبحرئى يرجو ألا ينال ممدوحه مكروه ، وان يفقدى
 بالنفوس لما يكابده من ألم الشكوى • ويشير في اعقاب القصيدة الى مداهمة
 احد الأسود للمدوح الذي خاتله وهاجمه على حين غرّة منه :

(١) الديوان ١٧١٤/٣

(٢) نفسه ١٧١٣/٣

من العتاق أمون رسالة أجد^(١)
وكيف يشكر ما يعيا به العدد
واطلب الرغد منهم ان هم رقدوا
تُجدي وأحمد افضالا كما حمدوا
تخشي وعيسى بن ابراهيم لي سند
رسلاً ، وما يرتيه الحزم والسد
لله يسرع بالتقوى ويتد
سهل ، ولا عسر التنفيذ منعقد
وليس تفرق النعماء والحسد

★ ★ ★

من الحوادث حتى ينفد الأبد
طلق الجوانب ، ضاف ، ظله رغد
حتى تكون بنا الاشكوى التي تجد^(٢)

★ ★ ★

والراح تجري وجنح الليل محتشد
صريمة ينشي عن مثلها الاسد
طويلة ، وحسام صارم يقد^(٣)

ويبدو ان ابا نوح كان يوالي ارفاد الشاعر فكان من جراء كريم
عشرته وفضل اخائه ، وكثرة نواله ، أن أخذ البحري ينقلب في بجوحة
من النعيم ، وبلهنية من العيش ، فهو يقول في احدي مدائحه فيه :

(١) اليعملة : النجيبية المعتملة المطبوعة • أمون : وثيقة الخلق
مأمونة العثار • رسالة : سهلة السير • أجد : قوية موثقة الخلق متصلة
فقار الظهر •

(٢) ولكن البحري حين تعرض ابو نوح هذا للمصادرة والضرب
بالسياط حتى اودى بحياته ، وقف منه موقف الشامت الهاجي •

(٣) الديوان ١/ ٤٩٥ - ٤٩٧ •

وأخ لبست العيش أخضر ناضراً
 ما أكثر الآمال عندي والمنى
 وعلى ابي نوح لباس محببة
 تنبى طلاقة بشره عن جوده
 وضياء وجه لو تأمله امرؤ
 صدى الجوانح لارتوى من مائه (١)

استسقاء شراب :

وتستمر العلاقة بين الشاعر وابي نوح هادئة صافية لا توترها الأحقاد
 ولا تشوبها الأكدار ، حتى ليرى البحري أحياناً ، بدافع من حسن ظنه
 بصاحبه يلتمس منه ان يرفده بشيء من الشراب لقللة ذات يده منه ، وهذا
 دليل على ان شاعرنا قد رسخت قدمه في ربوع هذه المدينة ، ووجد من
 يحذب عليه ، ويشد أزره ، ويمدّه بما يحتاجه ، حتى انه كان يعتقد
 مجالس الانس ، ويعاقر الخمر :

قربت من الفعل الكريم يداكا
 فاسلم أبا نوح لتشديد العلا
 إنبي لأضمر للربيع محببة
 وأراك بالعين التي لا تنصرف
 ما للمدام تأخرت عن فتية
 بكرت لهم سقيا السحاب وقصرت
 ما كان صوب المزن يطمع قلبها
 ولديك صافية كأن نسيمها
 وكان بشرك في شعاع كؤوسها
 تجلو برونقها العيون اذا بدت
 يغنى النديم عن الغناء حديثنا
 ونأى على المتطلين مداكا
 وفداك من صرف الزمان عداكا
 اذ كنت اعتدّ الربيع أخاكا
 ألحاظها الا الى نعماك
 عرفوا الصبوح وأمّلو جدواكا
 عنهم أوان تعلقة سقياكا
 في أن يجيء نداء قبل نداكا
 من طيب عرفك أو جميل نثاكا
 لما تواللت في الاكف دراكا
 رسلاً ، ونشر بها على ذكراكا
 بمحاسن لك لم تكسن لسواكا (٢)

(١) نفسه ٢٤/١

(٢) نفسه ١٥٧٢/٣

تغيّر واطراح :

ولكن هل يدوم الصفاء ، ويستمر الود ، والدنيا لا تخلو من واشٍ
حسود ، ووعد لئيم ؟ والشاعر يخبرنا بان ممدوحه قد تغيّر عليه واطرحه
لذنب لا يعرف مصدره ، فهو يستعطفه ويعتذر اليه ويذكره بوجه المئين
وسيرورة مدائح فيه ، ويستميحه العذر ان كان أذنب ، والحق ان
البحثري قد تلمظ جداً في عتابه لابي نوح ، فلم يلمح له بشيء من التهديد
او التأييب كما فعل مع غيره من ممدوحيه ، وقد افتتح قصيدته هذه بالغزل
الراقي كأغلب غزله :

بات نديماً لي حتى الصباح	أغيد مجدول مكان الوشاح
كأنما يضحك عن لؤلؤ	منظّم او برّد أو أقاح
تحسبه تشوان إمّا رنا	للقتر من أجفانه وهو صاح
بتّ أفديه ولا أرعوى	لنهي ناه عنه او لحي لاح
امزج كأسي بجناريقه	وانما امزج راحاً براح
يساقط الورد علينا وقد	تبلّج الصبح - نسيم الرياح
سحر العيون النجل مستهلك	لبيّ ، وتوريد الخدود الملاح

★ ★ ★

قل لابي نوح شقيق الندى	ومعدن الجود ، وحلف السماح
اعوذ بالرأى الجميل الذي	عوّدتته والنائل المستماح
من ان تصد الطرف عني وان	أخيب في جدواك بعد النجاح
ان كان لي ذنب فعفواً وان	لم يك لي ذنب فسيم اطراح
أبعد أسباب متان القوى	من فرط شكر سائر وامتداح
يخبرن عن قلب قديم الهوى	فيك وعن صدر أمين النواح
أشمت اعدائي وأخرجتني	عن سيبك المغدى على المراح
فهل لأنس بان من رجعة	أم هل لحال فسدت من صلاح ؟
اني من صدك في لوعة	تغوّلت لبي وهاضت جناح

لست على سخطك جلد القوى ولا على هجرك شاكي السلاح^(١)
عتاب وتنصل :

ويبدو ان عتاب الشاعر هذا لم يجده نفعاً لدى ممدوحه فردفه بعتاب آخر جرى فيه على النمط الاول من التلطف والفضل • ولعل ترقيق البحري لعتابه هذا وابتعاده عن التلويح بشيء من الوعيد والتهديد ، يعودان الى فضيلة ممدوحه من جهة ، والى رغبة البحري في الوصول عن طريقه الى الفتح من جهة أخرى ، فهو اذن لا يريد أن يفصم عرى العلاقة بينهما ، لان في ذلك قضاء مبرماً على ما كان يتوخاه ويصبو اليه • ولعل هذا هو السبب الذي جعل البحري يسلكهما في قصيدة واحدة عند اعتلالهما كما سيأتي • وكأني بالشاعر أراد ان يوصل قصائده الى مسامع الفتح عن طريق كاتبه ، لعله يبعث في طلبه فتفتتح له ابواب السعادة ، وتحقق أحلامه وأهدافه البعيدة ، قال في معاتبه أبي نوح :

له ضحكة عند النوال كأنها	تباشير برق بعد بُعد من العهد
تذكرت أياماً مضى لي نعيمها	بتقديمه اياي في الهزل والجد
أصول على دهري كصوله فضله	على عدم الراجين بالبدال والرفد
فغير منه القلب عن حسن رأيه	أكاذيب جاءت من لئيم ومن وغد
تغنم مني غيبي وحضوره	وأن ليس لي من دون مرماه من رد
فإن يك جرم كان او هفوة خلت	فانك أعلى من خطاي ومن عمدي
ومن ملكت كفتاه من كان مذنباً	فقدرته تُنسى وتذهب بالحقد
فشكرى متابي ، واعتداري وسيلتي	وما قدمت كفتاك من منة عندي
وان كان شعري جاء بالعدر قاصداً	فما كان ذنبي باعتماد ولا قصد ^(٢)

واكبر الظن ان عتاب البحري هذا : برقته ولطفه قد أخذ سبيله بعد ذلك في قصائده التي قالها في الفتح بن خاقان ؟

(١) نفسه ٤٣٦/١ - ٤٣٧ •

(٢) الديوان ٧٥٩/٢ - ٧٦٠ •

اتفاق في الداء :

ويتفق ان يعتل الفتح ومدوحه سوية ، فيهتبل الشاعر هذه المناسبة
فينشئ فيهما قصيدة يتمنى لهما الابلال مما ألم بهما ، لانهما معدنا الجود
والكرم ، ولان في شفائهما وسلامتهما شفاء وسلامة للسماحة والندى :

نعتك أنحسنا بعزك أسعدنا ونسرّ فيك بما يساء له العدى
فاسلم أبا نوح فانك انما تهوى السلامة كي تجود وتحمدا
وهنتك عافية الامير فانه قد اراح مجتمع العزيمة واغتنى
في نعمة هي للمكارم والعلا وسلامة هي للسماحة والندى
لما تشابهت الرجال حكيته مجدداً اطلّ على النجوم وسؤودا
ومرضتما وفقاً ، فكان دعاؤنا ان تشفيا وتكون أنفسنا الفدا
لك عادة ألا تزال شريكه مما عناه موافقاً او مسعدا
تتجاريان على الصفاء محبة فكأنما تتجاريان الى مدى
لو يستطيع وفاق عادية الضنى او تستطيع وقية صرف الردى
والفس واحدة وان أصبحتما شخصين غارا بالسماح وانجدا
روح تدبر منكما حركاتها بدنيين : ذا عبدا وهذا سيداً^(١)

البرج المظل وحاجبه :

ويتعل الفتح مرة فينتهز البحتري هذه المناسبة فينشئ أحياناً يخاطب فيها
أبا نوح كاتب الفتح ، وفيها تتجلى صلة أبي نوح بالفتح حتى كان يتمنى
ان يحمل عنه الداء على الرغم من اعتلاله هو أيضاً :

تخطى الليالي معشراً لا تعلم بشكوى ، ويعتل الأمير وكاتبه
وللبراء عقبى سوف يحمد غبها وخير الامور ما تسرّ عواقبه
فقل لابي نوح وان ذهبت به مذاهبه عنا ، وأعيت مطالبه
وكابد من شكوى الامير ووعكه تباريح همّ يشغل القلب ناصبه
بودك لو ملكت تخويل شكوه اليك مع الشكو المعنيك واصبه

(١) الديوان : ٥٣٩/١ - ٥٤٠ .

فتغدو تقاسي علتين ويغتدي صحياً كئصل السيف صحت مضاربه
 ويكفي الفتى من نصحه ووفائه تمنيه ان يردى ويسلم صاحبه
 فلا تحسبن تركي العيادة جفوة ودونكما البرج المطل وحاجبه^(١)

وجدير بالذكر ان شارح الديوان يقول في تعليقه على تاريخ هذه
 الايات : « ويرجع تاريخها (في) بدء تعرف البحري الى الفتح اي سنة
 ٢٣٣ هـ »^(٢) • ثم يشرح لفظه « البرج » الواردة في آخر الأيات بقوله :
 « البرج : من قصور المتوكل ، ذكره الشاشتي (الديارات ١٠٢-١٠٣) »^(٣)
 ومعنى هذا ان البرج المذكور كان موجوداً في هذا التاريخ • بيد اننا حين
 نرجع الى الديارات التي أشار اليها الشارح نجد الشاشتي يقول بعد وصفه
 لهذا القصر - ان جلوس المتوكل فيه كان سنة تسع وثلاثين ومائتين^(٤) •
 واذا صح ما ذكره الشاشتي في تاريخ جلوس المتوكل في هذا القصر ،
 فمعنى ذلك ان بناءه لم يتم الا في غضون سنة ٢٣٩ هـ ، ومن ثم جلس فيه
 الخليفة المذكور ، ومعنى هذا أيضاً ان تاريخ هذه الايات ينبغي ان يتأخر
 عما حدده لها الشارح !

ومن الغريب ان يغفل الشارح هذا الاختلاف بين التاريخين ، وكان
 عليه ان ينبه على الاقل الى اشارة الشاشتي الذي أحالنا على دياراته •
 واذا صح ما ذكره الشاشتي كذلك فمعنى هذا ان البحري كان
 يحجب عن الفتح وكتابه حتى بعد أن توطدت الصلة بينه وبينهما •
 ومن المفيد ان نشير الى ان البحري قد أشار الى البرج المطل هذا في

(١) نفسه ٢٠٢/١ •
 (٢) نفسه ٢٠٢/١ الحاشية •
 (٣) نفسه ٢٠٢/١ هامش (٩) •
 (٤) الديارات ص ١٠٣ الطبعة الثانية ، وانظر : سامراء في أدب
 القرن الثالث الهجري ص ٢٤٥ •

قصيدة رفعها الى المتوكل في سنة ٢٤٣ هـ (١) .

نجاح بن سلمة :

والبحتري الذي كان يهدف الى غاية بعيدة من اختلافه الى هذه المدينة ما كان ليقتصر على ممدوح بعينه ، وانما كان يوزع مدائحه على من يتوسم فيه أمانة او قبساً يهديه الى الطريق الموصل الى مبتغاه ، ومن هنا نراه ينظم المقطعات والقصائد في صغار الكتاب والعمال مشيداً بهم وابعمالهم ومسبغاً عليهم صفات الكرم والسماحة والاخلاص والبلاغة وما الى ذلك . فهذه مقطوعة له في أحد اولئك الذين شام بهم سيما النجاح ممن كان يتولى عملاً في عهد الخليفة المتوكل في غضون سنة ٢٣٣ هـ ، وهو نجاح بن سلمه الذي يقول فيه :

ما أنجحت غطفان في أكرومة انجاحها بالصيد آل نجاح
ورثوا الكتابة والفروسة والحجبي عن كل أبيض منهم وضاح
بصدور أقلام ترد اليهم أمر الخلافة ، او صدور رماح (٢)
ولا نعلم ما كان من اثر هذه الأبيات في الممدوح ، وما عاد على الشاعر منها ، وأكبر الظن انها لم تكن ذات شأن لا في المادح ولا في الممدوح ، بدليل ان الشاعر لم يتبعها بشيء آخر وانما شفعها بعد سنوات بقصيدة يهجو فيها ابن سلمة بعد قتله ، ويشتم به (٣) .

حبس الثغري :

ويطرق سمع البحتري - وهو مقيم في سامراء - أن أحد القادة المشهورين الذين لعبوا دوراً كبيراً في الذود عن حوزة الخلافة العباسية ، والذب عن التخوم الاسلامية ، وممن انتجعهم الشاعر في اول عهده ، وهو

- (١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٤٦ .
- (٢) الديوان ١/٤٦٠ وأنظر الحاشية ، وانظر كذلك المصدر نفسه ١/٤٦٣ الحاشية .
- (٣) نفسه ١/٤٦٣ - ٤٦٤ ، والبحتري يفعل هذا كثيراً مع ممدوحيه ومن يتصل بهم .

ابو سعيد الثغري قد جيء به بعد غزواته المشهورة ، والقي في غيابة سجن هذه المدينة ، وسلم الى كاتب نصراني ليستخرج منه ما اتهم به من حيازة الاموال ، فجعل الكاتب يعذبه ويشدد النكير عليه ، فسق ذلك على المسلمين وقالوا : آخذه بئار النصرانية فثارت نخوة الشاعر وتذكر ولي نعمته الاول فدخل عليه في الحبس وأشده (١) :

جعلت فداك الدهر ليس بمنفك من الحادث المشكوك والنازل المشكي
وما هذه الايام الا منازل فمن منزل رجب ومن منزل ضنك
وقد هذبتك النائبات ، وانما صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك
وما أنت بالمهزوز جأشاً على الاذى ولا المتفرّي الجلدين على الدعك
على أنه قد ضيم في حبسك الهدى وأضحى بك الاسلام في قبضة الشرك
أما في نبي الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الظلم والافك
أقام جميل الصبر في السجن برهة قال به الصبر الجميل الى الملك (٢)

وأكبر الظن ان هذه الايات قد دوّت في أرجاء المدينة - اذا صح انشادها في الحبس - وأنها أحدثت رجّة بين الناس ، ربما امتد صداها الى مسامع اولى الأمر •

ويبدو ان مفعولها لم يتعد ذلك ، وان الثغري بقى محبوساً لم يطلق ولهذا فقد أطلق الشاعر صرخة مدوّية أخرى ، فيها شهيء من الجراءة والتحدى لهذه السياسة الخرقاء التي يتبعها الحكام العباسيون في حق من يذودون عنهم وعن رعيتهم ، وان عملهم هذا ما كان ليرضاه اعداؤهم من الأمويين لو كانوا مكانهم :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين ، وضيعة الاسلام
طلبت ذحول الشرك في أرض الهدى بين المسدّد وألسن الاقلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجزى على الايام بالايام

(١) أنظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٤٨/١٣ •

(٢) الديوان : ١٥٦٨/٣ •

نامت بنو العباس عنه ، ولم تكن عنه أمة لو زعت بنيسام^(١)
ويبدو ان هذه الصيحة كانت عيفة وان صداها قد اخترق الحجب
الصفيقة التي كانت بينه وبين ولي الامر ، وهو الخليفة ، فلما سمعها سأل
- كما يقال - عن صاحبها فأخبر عنه ، فأمر باطلاق أبي سعيد ، واحضار
البحثري^(٢) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح فان الذي لا شك فيه ان
البحثري قد أنشأ هذه المقطوعة وانها دوت هي الأخرى في أرجاء المدينة
كسابقتها . وأكبر الظن ان الشاعر أنشأ هاتين المقطوعتين ولما يتسن له بعد
الاتصال بالفتح أو المتوكل ، فلو كان متصللاً بأحدهما لحاول الوساطة لديه ،
ولالتمس منه أن يرعى سجينه ويتعهد ، فخلو المقطوعتين من الإشارة الى
شيء من ذلك دليل على انه لم يكن قد اتصل بهما بعد !

مع علي بن يحيى المنجم :

ويقف البحثري برهة ممعناً النظر ، ومفكراً فيمن يقصده من الرحال
في هذه الاثناء ، ممن يتوسم فيهم القدرة على تحقيق ما يصبو اليه ، وليتخذ
ذريعة تصلة بشخصية لها خطرهما من رجال الحكم ، فوقع اختياره على رجل
من مقربي الفتح بن خاقان الذي كان من أهداف الشاعر الوصول اليه .
انه علي بن يحيى المنجم .

وعليّ هذا كان راوية للأخبار والاشعار ، شاعراً محسناً ، أخذ الادب
عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي^(٣) . وكان في أول أمره مختصاً بمحمد
ابن اسحاق بن ابراهيم المصعبي فلما مات^(٤) ضمه اليه الفتح ومن ثمّ قدمه

(١) نفسه ٢٠٣٥/٣ ٢٠٣٦ .

(٢) نفسه ٢٠٣٥/٣ الحاشية .

(٣) أنظر : تاريخ بغداد ١٢/١٢١ ، ومعجم الادباء ١٥/١٤٤ .

(٤) معجم الادباء ١٥/١٤٤ . اذا صح تاريخ القصائد التي قيلت

في مدح ابن المنجم وعتابه في سنة ٢٣٣هـ فمعنى هذا ان موت محمد كان
في غضون هذه السنة ، ومن ثمّ ضمه الفتح اليه ، غير ان الشابشتي

الى المتوكل فاختص به وأصبح نديمه ومن المتقدمين عنده ، فكان يأتئنه على أسراره ويدخله على حرمه ، ثم خدم بعده من جاء من الخلفاء : كالمتنصر والمستعين والمعتز والمعتمد^(١) !

وكان لعلي هذا بكر كر من نواحي القفص ضيعة نفيسة ، وقصر جليل ، فيه خزائنه كتب عظيمة تسمى خزائنه الحكمة كان الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها ما يشاؤون من صنوف العلم والمعرفة ، وكان هو يتعهد الانفاق على ذلك من ماله الخاص^(٢) . واليه عهد الفتح بن خاقان القيام بعمل خزائنه العظيمة له^(٣) . وكان على دمامه صورته ، وصغر خلقته ، ودقة وجهه ، وصغر عينيه ، ظريفاً لطيفاً جامعاً لكثير من صفات النديم حتى وصفه بعضهم وقد رأى منه ما رأى في أحد مجالس المتوكل : بانه طيب ومضحك ، واديب وجليس له : « حذق طباخ وتصرف مغنٍ ، وفكر منجم ، وفطنة شاعر »^(٤) .

وكان كثير الحذب على الادباء والشعراء ، فكان منزله مألفاً لهم ، وكثيراً ما كان يوصلهم الى الخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلوات والهبات ، فكثير اخذانه منهم ، وكثير مديحهم له^(٥) . وشخص له هذه الصفات والمزايا لم يكن ليذهب عن شاعرنا أمره ، فليكن اذن هو الذريعة التي تصله بما ينشده ويلجح في طلبه .

أشار في الكلام على اسحاق والد محمد هذا بأنه : « ولي للمأمون ، ثم للمعتصم ثم للواثق ثم للمتوكل ، ومات في أيام المتوكل ، فأقام محمداً ابنه مكانه ، فلبث يسيراً ومات » . الديارات ص ١٣٨ . وعلى هذا فمن الجائز ان يكون الفتح قد ضمه اليه قبل وفاة محمد ، لا بعد وفاته كما يشير ياقوت .

(١) تاريخ بغداد ١٢/١٢١ ، معجم الادباء ١٥/١٤٤ - ١٧٤ .

(٤) معجم الادباء ١٥/١٥٧ .

(٣) نفسه ١٥/١٤٤ .

(٣) نفسه ١٥/١٦٠ - ١٦٣ .

(٥) نفسه ١٥/١٤٥ .

ولكن كيف اتصل الشاعر به ؟ وفي اي مكان ؟ هل كان في بغداد ،
او كان في سامراء ؟ وهل مدحه بشيء قبل ان يلتبس منه تقديمه الى الفتح ؟
ان ديوان الشاعر يشتمل على ثلاث قصائد : واحدة منها في مدح ابن
المنجم ، وقيل في مدح آخر ، اما القصيدتان الأخريان ففي عتابه لتأخره
وابطائه عن تقديمه الى الفتح •

فالقصيدة الاولى يرجح انها في ابن المنجم ، لاشتمالها على اسمه
صراحة وعلى كنيته ، وان هناك بيتاً واحداً فقط ، ورد فيه اسم شخص
آخر ، والبيتان اللذان ورد فيهما الاسمان متشابهان في الألفاظ ، مما يحمل
على الظن اقحام البيت الذي ورد فيه اسم الشخص الآخر على القصيدة •
وليس في القصيدة اشارة الى وعد الممدوح بتقديم الشاعر الى الفتح
وانما هي في تعداد مكارم ابن المنجم واطراء صفاته • ويبدو ان هذه هي
أول قصيدة للشاعر في الممدوح بدليل انه يشير الى وثوقه بكرمه وان لم ينل
شيئاً من ذلك بعد •

وليس في القصيدة كذلك اشارة الى المكان الذي قصد الشاعر فيه
ممدوحه فهو يقول :

الى فارغ من كل شأن يشينه
علي بن يحيى انه انتسب الندى
غريب السجيا ما تزال عقولنا
اذا معشر صانوا التلاد تصفت
أقام به في منتهى كل سوؤد
فان قصرت أكفاؤه عن محلته
عاه الحجى في عنفوان شبابه
كان الحبال الراسيات تعلمت
وثقت بنعماء ولم تجتمع بها
وتعلم ان السيف يكفيك حدّه

وان يشتغل فالمجد عظم اشتغاله
الى عمه - عم الكريم - وخاله
مدلهمة في خلّة من خلاله
به همّة مجنونة في ابتذاله
فعال أقام الناس دون امثاله
فان يمين المرء فوق شماله
فأقبل كهلاً قبل حين اكتهاله
رواجحه من حلمه وجلاله
يدي ، ورأيت النجاح قبل سؤاله
مكاثرة الاقران قبل استلاله

أبا حسن أنشأت في افق الندى لنا كرمأً آمالنا في ظلاله
مضى منك وسمى ، فجد بوليّه وعودت من نعماك فضلاً فواله
وان خراجي للخييف ، ولو غدا ثقيلاً لما استحسنت غير احتماله (١)

في بغداد :

أما القصيدتان الاخريان فهما - كما اسلفنا - في عتاب ابن المنجم
لابطائه وتأخره عن تقديمه الى الفتح بن خاقان • ويبدو ان القصيدة
الاولى قصد بها الممدوح وهو في بغداد بدليل تدمره منها وادعائه انها لم
تنصفه ، ويظهر أن ابن المنجم قد وعده بتقديمه في يوم الخميس ، ولكنه
لم يف بذلك ، فهو يطلب منه ان ينقل كلامه لى الامير وهو الفتح ، ويقول
انه قدّم عيله من هو أقل منه شأنأ في معالجة القريض الذي شهر به في
الشرق والغرب ، حتى أشمت بتقديم غيره عليه من كان يحسده وينافسه :

ما أنصفت بغداد حين توحشت لنزيلها ، وهي المحل الآس
لم يرع لي حق القرابة طيء فيها ، ولا حق الصداقة فارس
أعليّ من يأمك بعد مودة ضيعتها مني ، فاني آيس
واعدتني يوم الخميس ، وقد مضى من بعد موعدك الخميس الخامس
قل للأمر فانه القمر الذي ضحكت به الايام وهي عوابس
قدّمت قدّامي رجالاً كلهم متخلف عن غايتي متعاس
وأذلتني حتى لقد أشمت بي من كان يحسد منهم وينافس
وانا الذي أوضحت غير مدافع نهج القوافي وهي رسم دارس
وشهرت في شرق البلاد وغربها فكأنتي في كل نادٍ جالس
هذي القوافي قد زفت صباحها تهدي اليك كأنهن عرائس
ولك السلامة والسلام فاني غادٍ ، وهن على علاك حبايس (٢)

(١) الديوان ١٦٢٢/٣ - ١٦٢٥

(٢) الديوان ١١٣٢/٢ - ١١٣٣

في سامراء :

اما القصيدة الثانية فتشير الى ان الشاعر قصد ابن المنجم هذه المرة في سامراء ، وهو أيضا يكاد يكرر ما سبق ان قاله في القصيدة الاولى ، فهذه سامراء لم تنصفه ، وقد خاب فيها أمل المجدّ الساعي ، في حين حظى منها كل متخلف كسول ، ولو تيسّر له الوصول الى الخليفة لبان للناس ما خفى عنهم من أمره ومقدرته ، فهو يعاتب اخوانه على هذا الاطراح ، وكان يأمل ابن المنجم ويرجوه الى أبعد من هذا الامر ، لا سيما وان لحممة الآداب تجمعهما ، ووشائج الودّ القديم تربطهما ، ولهذا فهو سينأى ويضرب في الارض اكراما لنفسه ، وصيانة لها من هذا الاطراح وقلة المبالاة في أمره .

ثم يلتفت الى الفتح - الذي لم يتصل به بعد - فيقول : ان تخطى كرمه اياه لم يكن الا من عمل الاقدار التي تعطي من تشاء وتحرم من تشاء ، وهو لا يستطيع ان يشكوه نداء ، ومن ذا الذي يصدقه بعد ان وسع كرمه وعطاؤه الناس جميعا ؟

على ايّ أمر مشكل أتلوّم
ولو انصفتني « سر من راء » لم أكن
لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق
ولو وصلتني بالامام ذريعة
أعاب اخواني ولست ألومهم
وقد كنت أرجو والرجاء وسيلة
مشاكلة الآداب تصرف ناظري
وهزته للمجد حتى كأنما
(أبا حسن) ما كان عدلك فيهم
وما انت بالتاني غنائاً عن العلا
خلا ان باباً ربما التا اذنه

أقيم فأنوى أم أهمّ فأعزم
الى العيس من ايطانها أتظلم
وأعطي منها وادع وهو مفحم
درى الناس ايّ الطالين يحكمم
مكافحة ، ان اللثيم الملوّم
على بن يحيى للتي هي أعظم
اليه ، وودّ بيننا متقدم
تثنى به الخطى فيها المقوم
لواحدة الا لانك تفهم
ولا أنت بالخلّ الذي يتجرّم
ووجهاً طليقاً ربما يتجهّم

وكنت خفيف الشخصن اذ أنا معدم
وأكرمها ان كانت النفس تكرم
ويمسي التلاقي وهو غيب مرجم
وأجمع توديعاً أخوك المسلم
تأخر في الحظ الرئيس المقدم
ولكنها الأقدار تعطي وتحرم
وبحر عداني فيضه وهو منعم
وموضع رجلي منه اسود مظلم
ومن ذا يدم الغيث الا مذمم^(١)

واني لنكس ان ثقلت عن الغنى
سأحمل نفسي عنك حمل مجامل
وأبعد حتى تعرض الارض بيننا
عليك السلام أقصر الوصل فانطوى
فالآ تساعدني الليالي فربما
وما منع الفتح بن خاقان نيله
سحاب خطاني جوده وهو مسبل
وبدر أضاء الارض شرقاً ومغرباً
أشكو نداء بعدما وسع الورى ؟

(١) الديوان ١٩٧٨/٣ - ١٩٨٠ والجدير بالذكر ان شارح الديوان
يقول في تعليق له على قصيدة للبحثري في مدح الفتح (٤٤٥/١) ما يلي :
« ويظهر ان الفتح تباطأ في تقديمه الى الخليفة فعاتبه في القصيدة رقم
(٧٦١) وعاتب معه علي بن يحيى المنجم :

لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق وأعطى منها وادع وهو مفحم
فلو وصلنتني بالامام ذريعة درى الناس أي الطالبين يحكم »
وحين نرجع الى القصيدة التي أشار اليها الشارح وهي (٧٦١) نجده
يعلق عليها بقوله : « هذه القصيدة وجهها الى علي بن يحيى المنجم
(انظر : ترجمته مع القصيدة ٤٦٠ ص ١١٣٢ وفي هاتين القصيدتين يطلب
تقديمه الى الامام أي الخليفة » .

فالشارح - كما ترى - اضطرب في التعليقين فهو يشير في الاول الى
ان الذي تباطأ في تقديم « الشاعر الى الخليفة هو الفتح ، وحين تباطأ
عاتبه بالقصيدة (٧٦١) . وعند مراجعتنا القصيدة المذكورة نجده يقول :
هذه القصيدة وجهها الى علي بن المنجم يطلب تقديمه الى الامام اي الخليفة .
والحق ان القصيدة التي أشار اليها الشارح والتي ذكر منها البيتين
هي في ابن المنجم وانه طلب منه لا من الفتح تقديمه الى الخليفة ، وذلك
لان الشاعر لما يتصل بعد بالفتح ، فكيف يطلب منه تقديمه الى الخليفة !
ومعلوم ان ابن المنجم كان من المختصين بالخليفة ، وكان يوصل الشعراء
والادباء به كما أسلفنا في ترجمته .

الفصل الثاني

في ظل الفتح بن خاقان :

على الرغم من قصائد البحري في مدح ابن المنجم وعتابه التي سبق ذكرها فما زال الغموض يكتنف اسم الشخص الذي اضطلع بمهمة ايصال الشاعر الى الفتح هذا .

فالبحري لم يفصح لنا فيما أثر من شعره بشيء عن هذا الذي كان له فضل عليه .

ويجدر بنا قبل الخوض في تفصيلات علاقة الشاعر بمدوحه الجديد ، ان نلم بشيء عن هذا الرجل الذي جهد البحري ان يكون في كنفه ، والذي اوقف عليه شيئاً كثيراً من مختار شعره وجيده .

هذا الرجل هو الفتح بن خاقان بن غرطوج وقيل أحمد ، وخاقان هذا كان في جملة قواد المعتصم من الاتراك ، واليه عهد المعتصم القيام ببناء قصره الجوسق في سامراء في أول ابتنائها ، ولعل هذا هو السبب في تسمية هذا القصر أحيانا بالجوسق الخاقاني^(١) .

شَبَلَ الفتح في كنف أبيه وفي ظل الخلفاء ، وكان ذكياً فطناً ، جيد الطبع منذ غضارته ، ولا أدل على ذلك من الحكاية التي تناقلتها المراجع القديمة وفحواها ، ان المعتصم دخل يوماً الى أبيه خاقان غرطوج ، فقال له يمازحه : يا فتح ؟ اي أحسن داري أو دار أبيك ؟ فأجاب الفتح بدون توقف - وهو صبي له من العمر سبع سنين أو نحوها - كما يقال - : دار أبي اذا كنت فيها ، فعجب المعتصم منه وتبناه^(٢) . ثم اتصل بعده بابنه الواثق فكانت له مثل منزلته عند أبيه ، ثم كانت خلافة المتوكل فاخص به واتخذة أخاً ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله^(٣) .

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٢٦ .

(٢) أنظر : الاغانى ١٩٩/٦ ، ومعجم الادباء ١٧٥/١٦ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ، ومعجم الادباء ١٧٨/١٦ .

وكان الفتح أديباً فاضلاً ، دمث الأخلاق ، ليّن العريكة ، زكيّ النفس ، حسن العشرة ، غاية في الجود ، محبباً الى كل من يكلمه (١) .
وليس صحيحاً - فيما يخيل اليّنا - ما ذكره المسعودي عنه من انه لم يكن مع منزلته من الخلافة ممن يرجى فضله ويخاف شره (٢) .

لقد كان الفتح مشغولاً بالقراءة حتى قيل : ثلاثة لم ير قط ولا سمع احبّ اليهم من الكتب والعلوم . العاجظ . . . والفتح بن خاقان . فانه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمنه أو خفّه وقراه في مجلس المتوكل الى عوده اليه حتى في الخلاء (٣) .
ويبدو ان ولعه بالكتب هو الذي دفعه الى انشاء خزانة كتب عظيمة اكثرها حكمة ، عملها له علي بن يحيى المنجم (٤) . ولعل احتفاله بالعلم والادب هو الذي جعل بيته منتدى يحضره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفيين والبصريين (٥) ، كما بلغ من اهتمامه بالادباء ان خصص لبعضهم راتباً شهرياً (٦) .

ولا شك في ان حذبه هذا على الادب والادباء كان دافعاً وحافزاً للحركة الادبية في تلك الآونة ، ومن أجل هذا قيل : « ركد الشعر بعد البرامكة فأهبطه جود الفتح وحرك منه فتحرك » (٧) . ولا عجب في ذلك اذا ما علمنا انه كان من أعلم الناس بالشعر (٨) ، يطرب لجيده ، ويهتز

(١) معجم الادباء ١٦/١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ طبعة دار الاندلس .

(٣) الفهرست ص ١٧٥ .

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ٣/٥٦ ، وأنظر : سامراء في أدب

القرن الثالث الهجري ص ٧٦ - ٧٧ .

(٥) أنظر : الفهرست ص ١٧٥ .

(٦) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٩٣ .

(٧) أنظر : أخبار البحثري للصولي ص ٩٥ .

(٨) نفسه ص ٩٩ .

رائعه ولا يتردد ان يشرب نخب ما يسمع استحسانا واعجاباً^(١) .
على ان ولوع الفتح بالادب والشعر لم يكن يقتصر على الاعجاب
حسب ، بل تعدى ذلك الى المشاركة الفعلية فيهما ، فقد روى انه وضع
عددا من المؤلفات منها :

كتاب البستان المنسوب اليه في أنواع من الأدب ، وكتاب اختلاف
الملوك ، وكتاب الصيد والجوارح ، وكتاب الروضة^(٢) . كما روى شيئاً
من شعره :

أبو زكريا بن حكيم الأسلمي ، وأبو العباس المبرّد ، وأحمد بن
يزيد المؤدّب^(٣) ، وهناك نماذج جيدة من هذا الشعر رويت في بعض
المراجع^(٤) .

وبقي الفتح وزيراً للمتوكل وخذيناً ، حتى قتل معه في القصر
الجعفري سنة ٢٤٧هـ على أيدي الأتراك .
ورجل كالفتح في رحابة صدره ، وسجاجة طبعه ، وعظم منزلته ،
وكثرة جوده ، خليق بالتقرب منه والانتفاع اليه .
وشاعر كالبحتري في سعة مطامعه وبعد أهدافه ، وروعة شعره ،
وخصب قريحته ، جدير بتقريبه ، والانعام عليه . وهكذا كان ، فقد
تهيأ للشاعر ان يحظى بالزلفى من الفتح والاتصال به .

أول اتصال البحتري بالفتح :

وفي أخبار البحتري للصولي هذا الخبر عن ابن البحتري : « حدثني
أبي قال : امتدحت الفتح بن خاقان أول أمري فأمرني بالمقام . وتأخرت

-
- (١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٣ .
(٢) أنظر : الفهرست ص ١٧٥ ، ومروج الذهب ٤/٤ ، ومعجم
الادباء ١٧٤/١٦ - ١٧٥ .
(٣) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٢ .
(٤) أنظر : معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩٠ ، ومعجم الادباء
١٧٥/١٦ ، ١٨٣ - ١٨٤ وسامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٥٤ .

جائزته ، فكتب اليه : لك النعماء والخطر الجليل - القصيدة • فما كان اسرع ما جاءت جائزته وأمرني بالمقام « (١) • وتمام الايات التي أسماها الصولي قصيدة هو :

لك النعماء والخطر الجليل ومنك الرفد والنيل الجزيل
أمرت بأن أقيم على انتظار لرأيك ، انه الرأي الأصيل
ورأقت الرسول ، وقلت يأتي بتيان ، فما جاء الرسول
فليس بغير أمرك لي مقام ولا عن غير رأيك لي رحيل
وقد اوقفت عزمي والمطايا فقل شيئاً لأفعل ما تقول (٢)

وواضح ان الخبر يشير الى ان البحري قد امتدح المفتح أول مرة ، وان الفتح أمره بالمقام ، ولكن هل معنى هذا انه اتصل به ؟ ثم ما هي القصيدة الاولى التي امتدحه فيها ؟

فالآيات تشير الى انه امر بالانتظار الى ان يدعى للمثول بين يدي

(١) أخبار البحري ص ٩٨ • يقول محقق أخبار البحري ص ٨٣ هامش (٢) : « كان البحري عامذاك في بغداد وقدمها للمرة الثانية بعد وفاة استاذه أبي تمام ، وقد أعد نفسه لاحتلال مركز الشاعر الاول في العاصمة العباسية ، وقد وصل الى الفتح عن طريق أمين مكتبته علي بن يحيى بن المنجم بعد طول انتظار » .

والمحقق يقصد ان البحري كان في سامراء لا بغداد ؛ اذ كانت هي العاصمة العباسية في غضون هذه الحقبة ، وهذا الخطأ درج عليه كثير من الدارسين في العصر الحاضر ، وهو خطأ لا ينبغي ان يستمر (أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢١٢ - ٢١٤) وأما قوله ان وصول الشاعر الى الفتح عن طريق ابن المنجم ، فهذا الامر ما زال ملفعاً بشيء من الغموض على الرغم من القصائد التي رفعها الشاعر الى ابن المنجم هذا ، ومن الغريب ان يغفل البحري هذه الأثره فلا يكلف نفسه مدح ابن المنجم على افضاله هذا ، أفترى انه اغفل ذلك لامر ما ؟ ام ان في اغفاله - من الشاعر - امرا آخر يرجع الى قعود ابن المنجم وفشله في اصال الشاعر بالفتح ؟

(٢) الديوان ١٣٠٩/٣ •

الفتح ، وانه انتظر رسولا من الممدوح فلم يأت ذلك الرسول ، وان امر
رحيله ومقامه موكل اليه ، ورهن اشارته !

وهناك خبر ثان رواه الصولي في أول اتصال البحري بالفتح جاء
فيه : « حدثني يحيى بن البحري قال : قال ابي : أول ما مدحت به
الفتح بن خاقان :

هب الدار ردت رجع ما انت قائله

فانشدته اياها في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، بعدما أقمت شهرا لا أصل
الى انشاده ، وهو مع ذلك يجرى على ويصلي ، ثم جلس جلوسا عاما ،
وحضرت وحدي فرأيت به يتسم عند كل بيت جيد ، فعلمت انه يعرف
الشعر ، وكان ذلك أعجب الي من جميع ما وصلني به . وكان أول
ما اهتز له حين بلغت الى قولي :

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه دع المجد فالفتح بن خاقان شاعله
والى قولي :

صفت مثلما تصفو المدام خلاله وورقت كما برقّ النسيم شمائله

فلما فرغت سرّه ما سمع ، وأمر لي بخمسة آلاف درهم » (١) .

فهذا الخبر - كما ترى - يشير الى ان الشاعر - كما يقول ابنه
عنه - امتدح الفتح أول مرة بقصيدته اللامية « هب الدار ... » وان
انشاده اياها كان في سنة ٢٣٣ هـ ، وانه أقام في باب الفتح شهراً ، لم
يتيسر له الدخول اليه وانشاده ، والفتح مع ذلك يجرى عليه ويصله .
ثم سمح له بالدخول بعد ان هيء لذلك مجلس حافل عام . وحضر الشاعر
« وحده » - كما يقول - ورأى الممدوح يهتز ويتسم عند كل بيت جيد
في القصيدة ، فسرّ البحري لمعرفة الفتح بجيد شعره ، وان الفتح اهتز
حين بلغ الشاعر الى قوله :

(١) اخبار البحري ص ٨٣ - ٨٤ .

وقد قلت للمعلمي الى المجد طرفه دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله
والى قوله :

صفت مثلما تصفو المدام خلاله ورقّت - كما رقّ النسيم - شمائله
فلما أتمّ البحترى قصيدته سرّ الفتح وأثابه بخمسة آلاف درهم •
فهذه القصيدة اذا أخذنا بالخبر الاول لم تكن اول ما امتدح به
الشاعر ممدوحه ، وانما هي - اذا أخذنا بالخبر الثاني - أول ما سمعه
من الشاعر بعد أن أذن له بالدخول عليه !

ويبدو لنا ان جلوس الفتح جلوسا عاما ، وافراد البحترى في هذا
المجلس - اذا صح - دليلان على أهمية الشاعر في نفس الفتح ، ولعل هذا
ما يحمل على الظن بان الفتح كان قد اطلع على شيء غير قليل من شعره ،
مما حدا به الى الاعجاب بالشاعر فعمل له ما عمل مما يشبه ان يكون حفلة
استقبال عامة !

ومهما يكن من الغموض الذي أحاط بالملامح الاولى لهذا الاتصال ،
فان الشاعر قد مكن له الوصول الى ما كان يصبو اليه ، وان هذه اللامية
هي من أوائل شعره في الفتح •
ويجمل بنا قبل ان نواكب الشاعر في مسيرته مع ممدوحه ، ان نلمح
الى شيء من شعره فيه •

ان المدة التي قضاها البحترى في ظل الفتح تناهز أربع عشرة سنة ،
وهي حقبة طويلة بلا شك ، وان ما وصلنا من شعره فيه يبلغ حوالي تسع
وعشرين قصيدة ومقطعة تربى على ثلاثين وثمانمائة بيت ، ولو اردنا ان
نجري عملية حسابية بسيطة بين عدد القصائد والمقطعات وبين هذه
السنوات الطويلة ، لتبين لنا ان نصيب الممدوح في السنة الواحدة قصيدتان
أو قصيدة ومقطعة ، وهذا قليل اذا ما تذكرنا كرم الممدوح واهميته
السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة • فما السر في قلة هذا الشعر ، وما
الذي حال بين البحترى وبين الأكتار منه ؟

أغلب الظن ان الذي قلل من هذا الشعر ، هو عدم انقطاع الشاعر الى الفتح ؛ لانه - كما نعلم - قد اتصل في أثناء ذلك برجل الخلافة الاول وهو المتوكل ، وانه كان يوزع شعره بين الاثنين • هذا الى انه كان أحيانا يؤم بشعره أناسا آخرين ، وبالإمكان عمل جدول لهذا الشعر وتوزيعه على النحو الآتي :

١ - مجموع أبيات القصائد والمقطعات ٨٣٦

٢ - مجموع أبيات الغزل فيها ٢٤٣

كما يمكن تصنيف هذه القصائد والمقطعات على الوجه التالي :

١ - من (٤) أبيات الى (١٠) ٣

٢ - من ١١ - ٢٠ ٦

٣ - من ٢١ - ٣٠ ٧

٤ - من ٣١ - ٤٧ ١٣

شاعل المجد :

ونمضي الآن مسيرين شاعرنا في رحلته الطويلة مع ممدوحه الجديد ، ونبدأ بلاميته التي عقد له مجلس عام حضره وحده - كما يقال - ليلقيها على مسامع الممدوح • وقد مهد لغرضه بعشرة أبيات في الغزل ، وابتدأها على الطريقة التقليدية بمساءلة الدار ، وبثها شكواه ووجه ، غير ان البحثري برقته وسلامة طبعه قد أضفى على ذلك غير قليل من الروعة والطرافة ، فهو يقول :

هب الدار ردت رجع ما انت قائله
وأبدي الجواب الربع عما تسائله
أفي ذاك براء من جوى أهب الحشا
توقده ، واستغزر الدمع جائله
ويقول :

مضى العام بالهجران منهم وبالنوى
أرجم في ليلي الظنون ، وأرتجي
فهل مقبل بالقرب والوصل قابله ؟
بطفيف خيال يشبه الحق باطله
اوائل حسب أخلفتني أوائله
وليلة هو منّا على العيس أرسلت

فلولا بياض الصبح طال تشبهي بعطفي غزال بتّ وهناً أغالزه
وينتقل بعد هذا التمهيد الى الغرض الأساس ، وهو المدح ، فيعدد
الصفات التي يتحلّى بها الممدوح : من كرم وشجاعة ونبل ، وهي صفات
طرقها من سبقه من شعراء العربية ويشير الى ما سلف من اكرامه اياه ،
كما يتطرق الى وصف دخوله عليه ، ووصف ما اعتراه من هيبه ، وما داخله
من شعور ، حتى كادا ينازعانه ما أعدّ من قول ، ويذهبان منه ما هياً من
مديح ، لولا طلاقه مجيئاً الممدوح وبشره • ويبدو ان البحثري قد هياً
نفسه تهيئةً جيدة ، وأعدّ لهذا اللقاء عدته ، فوجد ان يصوغ قصيدته
صياغة محكمة ، ويحبكها حبكاً متقناً ، حتى أصبح كثير من آياتها نماذج
كالأمثال السائرة :

دع المجد فالفتح بن خاقان شاعله
وسيب أمير المؤمنين ونائله
وتدنو به للخاطين نوافله
بها قطعت تحت العجاج مناصله
اذا لم يكن أمضى من السيف حامله
توالى نداء ، واستنارت خمائله
ونلت به القدر الذي كنت آمله
رجال عن الباب الذي أنا داخله
أقابل بدر الأفق حين أقابله
لديه لأمسي حاتم وهو عاذله
سراويله عنه وطالت حمائله
أنأييه للطعن واهتز عامله
وتمّ سناه ، واستقلت منازله
تنازعتي القول الذي أنا قائله
الى ببشر أنستني مخايله

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه
سنان أمير المؤمنين وسيفه
تشبّ به للناكثين حروبه
رمى كلب الاعداء عن حد نجده
وما السيف الا بزّاد لزينة
بداني بمعروف هو الغيث في الثرى
أمنت به الدهر الذي كنت أتقى
ولما حضرنا سدة الاذن أخرجت
فأفضيت من قرب الى ذي مهابة
الى مسرف في الجود لو ان حاتمأ
بدا لي محمود السجية شمّرت
كما انتصب الرمح الرديني نفقت
وكالبدر وافته لثمّ سعوده
فسلمت واعتاقت جناني هيبه
فلما تأملت الطلاقة وانثني

دنوت فقبلت الندى في يد امرىء جميل محيآه ، سباط أنامله
صفت مثلما تصفو المدام خلاله ورقت ، كما رقت النسيم شمائله (١)

المهذب الوضاح :

ويمضى البحري - بعد ارساخ قدمه في عتب الفتح - يديج المدائح
وينسجها نسجاً محكماً ، وعلى الرغم من محاولة شارح الديوان - كما
أسلفنا - تاريخ هذه المدائح - فان الكثير منها - ما يزال في رأينا - يفتقر الى
الدليل لصحة هذا التاريخ ، فليس هناك من حادثة معينة معروفة ، او اشارة
واضحة في أكثر هذه المدائح يمكن ان تتخذ دليلاً واضحاً على تأريخها ، ومع
كل ذلك فنحن سنأخذ بالتأريخ الذي وضعه لها الشارح ، ولكن على
سبيل التحفظ والترجيح لا على سبيل اليقين والتأكيد !

ويبدو ان من اوائل قصائده في هذا الباب هذه العائية التي قالها في
حدود سنة ٢٣٣ هـ والتي بدأها بالغزل التقليدي الذي استغرق أكثر من
نصفها ، وهو غزل رقيق عذب يشد القارىء اليه شداً ، ومن ذا الذي
لا يعجبه قوله :

وليلة القصر والصفهاء قاصرة للهو بين أباريق وأفساح
ارسلت شغلين من لفظ محاسنه تدوى الصحيح ولحظ يسكر الصاحي
حييت خديك بل حييت من طرب ورداً بوردي وتفاحاً بتفاح

ويدلف الشاعر بعد هذا التمهيد الى المديح فيخبرنا بان العيس
تحمل الى الممدوح مدحاً لا يستطيع ان يقوم به مداح آخر ، وان ممدوحه
يجمع صفات وخلالاً هي الجمال والتهذيب والجود وما الى ذلك :

والعيس ترمي بأيديها على عجل في مهمه مثل ظهر الترس رحراح
تهدي الى الفتح والنعمى بذلك له مدحاً يقصر عنه كل مداح
تكشّف الليل من لألاء غرته عن بدر داجية او شمس اصباح

(١) الديوان ٣/١٦١٠ - ١٦١٤ .

مهدب تشرق الدنيا لطلعته
 عن أبيض مثل نصل السيف وضّاح
 عمر النوال اذا الآمال أكذبها
 ثماد نيل من الاقوام ضحضاح
 مواهب ضربت في كل ذي عدم
 بشروة ، وأماحت كل ممتاح
 قد فتح الفتح أغلاق الزمان لنا
 عما نحاول من بذل واسماح
 يسمو بكف على العافين حانية
 تهمنى ، وطرف الى العلياء طمّاح
 وظاهر ان هذه المدحة لا تشير الى حادثة معروفة ، او مناسبة معينة ،
 واكبر الظن ان الشاعر قصد بها الفتح ، وهو في اول اتصاله به .

سيف بني العباس :

وهذه مدحة أخرى تنطوي على تعداد كثير من الصفات التي تنحل
 الى كرم الممدوح وعلو همته ، وذو وده عن بني العباس بما أظهر من
 شجاعة وبسالة ، فكان اعداؤهم ما بين قتيل وشريد ، ولا ندري بالطبع من
 هم اولئك الاعداء الذين فنك بهم الفتح ، والشاعر يشيد بأيادي الفتح
 عنده ، وانه أصبح من جراء عطاياها الجزيلة يجدى على العافين بعدما كان
 يجدى عليه ، حتى ذهب ماله وأخنى على نفسه من كثرة ما أعطى ومنح ،
 ومن أجل هذا فهو يذكر الفتح بالالف الذي وعده به . واذا صح ما قاله
 البحثري في هذا ، فهو خير دليل على دحض ما أفتراه عليه بعضهم من
 شح شديد .

وهذه الاشارات الأخيرة تحملنا على الظن بأن تاريخ هذه القصيدة
 متأخر بعض الشيء عما حدده لها شارح الديوان ، الذي يعتقد انه كان في
 سنة ٢٣٣ هـ ولا تخلو آيات هذه القصيدة من التقسيم الذي كان يحفل به
 البحثري في عموم شعره :

جادت يد الفتح والانواء باخلّة
 وذاب نائله والغيث قد جمدا
 وقصّرت همم الاملاك عن ملك
 تطأطأوا ، وسمت أخلاقه 'صعدا

يشيدّ المجد قوم انت أفر بهم
وما رأيك الآتياً شرفاً
والناس ضربان : اما مظهر مقمة
سللت دون بني العباس سيف وغي
آثار بأسك في اعداء دولتهم
اما قتيلاً يخوض السيف مقلته
حتى تركت قناة الملك قيمة
لا تفقدن فلولا ما تراح له
أما أياديك عندي فهي واضحة
الأزمي الكفر ان لم أجزها كملاً
أصبحت أجدى على العافين مبتدئاً
قد قلت اذ اخذت مني الحقوق واذ
هل الامير مجدّ من تفضله

ربيب خلائف :

ويعقب الشاعر مدائح السابقة بمدحة أخرى يكرّر فيها خلال
مدوحه ، وأهمها : الجود والرأى الحصيف ، والاخلاص لبني العباس •
ويحلو للبحثري ان يعيد ويفيض في وصف هبة الفتح ووقاره ، ويجسم
تلك الهبة وذلك الوقار ، حين يقرنهما بما كان يتراعى له من اخبات
المحيطين بالمدوح وتعظيمهم له • وهو لا يكل ولا يمل من تكرار اعترافه
بفضل المدوح عليه حتى أذهله ذلك عن حبيبه وأنساه بلده ، وغير عليه
قلوب ذويه وخلّاته ، وهو من فيض جوده وانعامه عليه لا يخشى الاقامة
او الرحيل ، لانه في كلا الحالين مكفىّ المؤونة ، موفرّ الزاد :

ستدحقني بحاجاتي المطايا وتغنيني البحور عن الثماد
وأكبر ان اشبه جود فتح بصوب غمامة او سيل واد

يغيّر سنة السنة الجماد
وسائره لهدى واقتصاد
الى التوفيق منهم والسداد
ليوم الرأى أو يوم الجداد
ينوش اذا تمطى في النجاد
جلالة أروع واري الزناد
الى قمر من الايوان باد
سكون في أناة واثاد
اليه ، ولا الحديث بمستعاد
على الفتح بن خاقان اعتمادي
أحبّ شمائل الفهم الجواد
وعلوته خلتي وهوى فؤادي
وأكسبني سلواً عن بلادي^(١)

كريم لا يزال له عطاء
ولا اسراف غير الجود فيه
ربيب خلائف لم يأل ميلاً
تعدّ به بنو العباس ذخراً
ملى أن يقلّ السيف حتى
مهيب يعظم العظماء منه
يؤدون التحية من بعيد
قيام في المراتب أو قعود
فليس اللحظ بالمكرور شزراً
كفاني نائبات الدهر أني
وصلت به عرى الآمال اني
جفوت الشام مرتبى وأنسي
ومثل نذاك أذهلني حسيبي

ملك مفضل :

وتتوالى مدائح الشاعر الواحدة تلو الأخرى ، وتتفاوت بطبيعة الحال
جودة وقوة ، وان كانت تنحو منحى واحداً في معناها في اغلب الأحيان •
فهذه مدحة أخرى له يشيد فيها بسجايا الممدوح وشمائله ، وهي لا تعدو
ان تكون تكراراً لما سبق ان بثه في تضاعيف قصائده الآنفه • فالممدوح
لا يمكن ان يجارى في خلاله وأخلاقه وأنى^١ تجاري البحار الزاخرة ،
والجبال الشامخة ، وهو لم تسلم اليه المقادة الا بعد الاعتراف بفضله هذا ؟
وهو كذلك يجمع بين صدق القول والفعل • وبين السماحة والشجاعة ،
وهو مخلص للخلافة لا ينوى لها الغدر والاعتقال ولا ينسى ان يعترف
بفضل ما أسبغ عليه ممدوحه من نعم وأفاض عليه من عطاء •
ويخيل لنا ان هذه القصيدة لا ترتفع الى مستوى مدائحه الأخرى ،

(١) الديوان : ٢/٧٢٥ - ٧٢٧ •

وان التكلف يكاد يغلب عليها :

ايها المبتغى مساجلة الفت
اين تلك الاخلاق منك اذا رم
لن تجارى البحار حين يجيش الـ
يبعد البائن المبرّز فوتاً
لم تسلّم له المقادة حتى
ثابت في المكرّ اذ راح للفر
ملك يستقل في رأيه المد
وذا ما حلت ربع أبي الفضـ
ومقيم صغى الأمور وفيها
متحن على الخلافة ما يد
انا من بله نذاك ، وأعلت
وتولته أنعم منك يحمل
مالمات بذرك الارض شكراً
تفاوت الرجال :

وإذا كان البحري قد هبط في مدحته السابقة بعض الشيء عما ألفناه
له من رائع القول وجودته وحبكته ، فانه قد تلانى بهذه المدحة التي
أعقب بها تلك ، وقد انطلق بعد تمهيد الغزالي الى وصف حمى حبيته
وما فيه من رياض غن ، وشقائق مطولة ، ونسائم معلولة ، وانساب منه الى
هدفه الرئيس فراح يطري منتجعه ويتغنى بفراغته وجهارة صوته ، وبتبجيل
القوم له ، ثم مضى يسرد ما كان يتحلى به من المكارم والسماحة والفضل
على تحريك الشعر ونفاقه ، مما يذكرنا بقوله الذي رواه عنه بعضهم :
« ركد الشعر بعد البرامكة فأهبطه جود الفتح وحرك منه فتحرك » (٢) .

(١) الديوان : ١٨١١/٣ - ١٨١٤ .

(٢) اخبار البحري ص ٩٥ وانظر ص ٩٢ من هذا البحث .

ويبدو ان البحري بعد ان أحسَّ بمكانة شعره ، وقيمته في عصره
أخذ يشيد به ويفتخر بجودته وسيرورته ، وانه ليقارن به منح ممدوحه
وهباته ، وهل هناك ثواب لأخي النعمى خير من شعره السائر الخالد على
الدهر؟

والبحري لم يفعل هذا الا بعد ان توطدت صلته بالفتح ، وكثرت
زياراته له ، والدخول عليه ، وقبل ان ينفذ ما أعده لممدوحه من الثناء
والاطراء يعرج على ولده فيشملة بعدد من أبيات هذه المدحة ، فهو سليل
المجد والعلا ، ومتى شاء بناء مجد شاده بهمة ثابتة متقيلاً بذلك والدأ
أريحيًا ، وان خير ما ينبيء عن نجابة هذا الطفل حر كاته التي توحى بان
سيكون له شأن واى شأن *

ويبدو ان البحري قد تأثر في هذا أبا تمام الذي مدح احمد بن
المعتصم (المستعين) اكثر من مرة ، غير انه - كما نطن - لم يكن ليحفل
او يراعي ما كان عليه الممدوح من صغر السن ، وقلة الادراك لمعاني شعره
العميقة^(١) . ومن أجل هذا فالبحري في اتجاهه هذا - فيما يخيل الينا -
أكثر دقة ، وأقرب الى القبول والاستساغة مما ذهب اليه ابو تمام ، هذا الى
ان البحري - كما سنرى فيما بعد - قد حذا حذو ابى تمام عند تصديده
لمدح عدد من اولاد الخلفاء *

الى الحقف من رمل اللوى المتقاود	سقى الغيث أكناف الحمى من محلّة
عليه بمحمّر من النور جاسد	ولا زال مخضّر من الروض يانع
دناسير تبر من تّوام وفارد	كأن جنى الحوذان في رونق الضحى
بكل جديد الماء عذب الموارد	رباع تردّت بالرياض مجودة
تليها بتلك البارقات الرواعد	كأن يد الفتوح بن خاقان أقبلت
لاخلاقه دون الحليف المعاهد	رأيت الندى أمسى شقيقاً مناسباً
تشوّق بسّام الى الوفد قاعد	تلقت فوق القائمين فطالهم

(١) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ١٠٥ - ١٠٦ .

جهير الخطاب يخفض القوم عنده
 يخضون بالتبجيل أطولهم يداً
 ولم ار امثال الرجال تفاوتت
 ولا عيب في اخلاقه غير انه
 مكارم هن الغيظ بات غليله
 ولن تستين الدهر موضع نعمة
 كفى رأيه الجليّ ، وألقى سماحه
 واني لمحقوق بالأّ يطولني
 يحكن له حوك البرود لزينة
 وحسب أخى النعمى جزاء اذا امتطى
 جمال الليالي في بقائك فليدم
 ومليتّ عيشاً من أبي الفتح انه
 متى ما يشد مجداً يشده بهمة

معارض قول كالرياح الرواكد
 وأظهرهم أكرومة في المشاهد
 الى الفضل حتى عدّ الف بواحد
 غريب الأسى فيها قليل المساعد
 يضرم في صدر الحسود المكاييد
 اذا انت لم تدلل عليها بحاسد
 نفاقاً على علق من الشعر كاسد
 نداء اذا طاولته بالقصائد
 وينظمن عن جدواه نظم القلائد
 سوائر من شعر على الدهر خالد
 بقاؤك في عمر عليهن زائد
 سليل العلا والسؤدد المترافد^(١)
 تقيل فيها ماجداً بعد ماجد^(٢)

وواضح ان البحترى قد أجا في الكثير من اجزاء هذه القصيدة حتى
 أحال العديد من ابياتها امثلاً سائرة •

شبيهه الربيع :

وتتوالى غرر البحترى ، وتتابع خرائده في الفتح محملة بطرائف
 اوصافه • ومحلاة بفرائد جواهره ، ولا سيما فيما يمس الربيع وازهاره ،
 وطلاقة ورياضه ، والبحترى الذي تفتحت عيناه على مباحج الطبيعة
 الساحرة في بيئته الاولى « منيج » وتكحلت بمفاتيح بيئته الثانية سامراء ، لم
 يكن لتفوته هذه المجالي التي يعطيها من نفسه وذوقه وحسه الشيء الكثير ،
 ومن أجل هذا جاءت قصائده تضيوع بأربيع الزهور ، وتحطر بميس

(١) ابو الفتح : كنية محمد بن الفتح بن خاقان

(٢) الديوان : ٦١٢٢/١ - ٦٢٦ •

الغصون ، فمدوحه الفتح له من الخلال ما ليس لغيره ، انه يجمع بين
الندى والجود والاريجية ، ولكن الشاعر رأى ان هذه النعوت قد أسندها
له كثيراً فلتكن نعوته هذه المرة مستقاة من الطبيعة الخلافة التي افن بها
كثيراً ، فهذا الربيع القادم بالطافه وازهاره وصفائه وروعته شبيه بمدوحه
في كل شيء ، واذا كان للناس أيام يفرحون بها ويتزينون ويطلقون عليها
الاعياد ، فان مدوحه عيد لهذه الاعياد :

وصلتنا بالفتح فتح بن خاقا
أريجى اذا غدا صرّفته
كلّ يومٍ يفيض في مجتديه
أخذت أمنها من البؤس أرض
ذهبت جدّة الشتاء ، ووافا
أفق مشرق ، وجو أضاءت
وكأن الحودان والاقحوان الـ
قطرات من السحاب وروض
وليل كسين من رقة الصيد
الرياح التي تهب نسيم
نخلنا بالفتح فتح بن خاقا
أريجى اذا غدا صرّفته
كلّ يومٍ يفيض في مجتديه
أخذت أمنها من البؤس أرض
ذهبت جدّة الشتاء ، ووافا
أفق مشرق ، وجو أضاءت
وكأن الحودان والاقحوان الـ
قطرات من السحاب وروض
وليل كسين من رقة الصيد
الرياح التي تهب نسيم

ينبوع الادب :

ويظهر ان انتشار دهر الشاعر على صاحبه كان مدعاة لاثارة بعضهم
وتشككهم في هذه المدائح التي تتال بدون انقطاع ، فغمز بالانتحال
والسطو على اشعار العرب ، ومن اجل ذلك فقد اقترح عليه - كما يقال -
ان ينشئ قصيدة من بحر الرجز ، فكانت هذه القصيدة •

واذا صح هذا فمعنى ذلك ان البحري أصبح محسداً منذ اوائل
اتصاله بالفتح ، وهو أمر ليس بالغريب ، اذا ما علمنا ان كل ذي موهبة
محسود • والشاعر في قصيدته المرتجزة - اذا صح التعبير - يخبرنا ان

(١) الديوان : ٧٢٢/٢ - ٧٢٣ •

صاحبه مفتاح الندى ، وزهرة الدنيا ، وينبوع الادب ، في رضاه النعيم ، وفي غضبه النقم ، ولا ينتسب المجد إلا اليه ، ولكن البحري بعد أن مكّن له في التقرب ، وشهر شعره ، ووجد لنفسه مكانة مرموقة ، أخذ يكثر من المباهاة بقريضه ، ويقارنه بما يسبق عليه من النعم ، فالممدوح ان كساه اثواب الغنى - وهي بالية بالطبع - فانه بدوره يكسوه المدح المنتخب الخالد ، المدح الذي تشيد به روائعه المطربة ، التي لم يستعر حلينها يوماً ، ولا أغار - حين دبجها - على احد ، وانما هن وليدات خياله ، وبنات أفكاره ، ولعل في هذا اشارة الى من غمزه في انتحالها^(١) . وهذه الخرائد جاءت وكأنها عقود من اللآلئ الغالية في جيد خود حسناء ، بل انها كالسحر الحلال ، الذي جهد أن يأتي به ليبرع غيره ويزده ، ويرتفع الى اعلى المراتب وأسمى المقاصد :

مفهف يرتجّ في أقطاره	كما زفت ريح بأجام قصب ^(٢)
لم أدر ما أسكرني : أطرفه	أم التي يدعونها بنت العنب
كانما الدرّة ماء وجهه	وجسمه أحسن من ماء الذهب
تحسبها في كأسها ياقوتة	او قيساً ألهب عمداً فالتهب
هذا لذا والفتح مفتاح الندى	وزهرة الدنيا ، وينبوع الادب
يرضى فيرمي باللهي سماحة	ويغضب الموت اذا الفتح غضب
انظر الى آثاره عند المهى	تنظر الى آثار غيث في عشب
لو قيل للمجد : انتسب الى امرىء	لم تلفه إلا زليه ينتسب
ليث وغيث وجواد ماجد	كفاه بالاموال تجبو وتهب
طوبى لمن والى ابو محمد	وقل لمن عادى : تأهب للعطب
يا مادم الفتح ويا آمله	لست امرءاً خاب ولا من كذب

(١) نفسه ٣/١٨١٠ والحاشية .

(٢) الأقطار : جمع القطر : ضرب من البرود . الزفزة : تحريك

الريح الحشيش .

إذا كسانني الفتح اثواب الغنى فكسوتي اياه مدح منتخب
 قصائد يطرب من 'تهدى له ولذّة النفس من العيش الطرب
 لم استعر حليتها يوماً ، ولا أغرت حين قلتها على الكتب
 جاءت كدّر في سماط لؤلؤ في جيد خود أو كعقيان الذهب
 سحر حلال لم أولف عقده الا لتعلو رتبتي على الرتب
 وكيف لا يأمل راجيك الغنى وانت رأس المجد والناس ذنب^(١)

(١) الديوان ١٥٤/١ - ١٥٦ . من الجدير بالاشارة ان ابا الفرج
 الاصبهاني ذكر في أغانيه قصة وفود العكوك على أبي دلف وامتحانه له
 على قول الشعر قال فيها : « ٠٠٠ فلما وصل الى ابي دلف وعنده الشعراء
 وهم لا يعرفونه استرابوه بها فقال له قائده : انهم قد اتهموك وظنوا ان
 الشعر لغريك ، فقال ايها الامير : ان المحنة تزبل هذا ، قال صدقت ،
 فامتحنوه فقالوا له صف فرس الامير وقد أجلك ثلاثاً ، قال : فاجعلوا
 معي رجلاً تثقون به يكتب ما أقول . فجعلوا معه رجلاً ، فقال هذه
 القصيدة ، في ليلته هذه :

ريعت لمنشور على مفرقه دم لها عهد الصباحين انتسب
 (ومنها) :

فحمل الدهر ابن عيسى قاسما ينهض به أبلج فرّاج الكرب
 ما وسنت عين رأت طلعه فاستيقظت بنوبة من النوب
 لولا ابن عيسى القرم كنا هملا لم يؤثتل مجد ولم يرع حسب
 ولم يقم في يوم بأس وندی ولا تلاقي سبب الى سبب
 وهو وان كان ابن فرعي وائل فبمساعيه تراقى في الحسب
 وبعبلاه وعلا آبائه تحوى غداة السيق أخطار القصب
 يا زهرة الدنيا ويا باب الندى ويا مجير الرعب في يوم الرهب
 لولاك ما كان سرى ولا ندى ولا قریش عرفت ولا العرب
 خذها اليك من مليء بالشنا لكنه غير مليء بالنشب
 فأثو في الارض او استفرز بها انت عليها الرأس والناس الذنب

الاغاني ١٠١/١٨ - ١٠٣ . واكبر الظن ان البحثري قد نظر في
 هذه القصيدة فعارضها ، ولكنه لم يستطع ان يفلت من بعض معانيها التي
 ردها في مدحته . واذا صح هذا فيكون من الغريب حقاً ان يدعى عدم
 استعارة حلية قصيدته من احد او الاغارة حين قالها - على الكتب !

منيف على هام الرجال :

ويطل على الشاعر والمدوح عام جديد ، وحبل الود موصول بينهما ، وتستمر قصائد البحري تثال على الفتح انشياً ، فهو يراوحوه بها ويغاديه ، فينال من جراء خرائده وعصارة افكاره ، عطاء متصلاً ، ولهى سابغة ♦

وهذه احدى مدائحه - اذا صح تاريخها في سنة ٢٣٤ هـ - فيه ، ويبدو انها جاءت في اعقاب القصيدة السابقة والتي جاء في مطلعها ما يشير الى قطعه شوطاً في مضمار الحياة ، مما حمله ذلك على الادعاء بانه أصبح من ذوى السن التي لا تؤهله للحب او المكانة لدى الغواني ♦

ما للكبير في الغواني من أرب مات الهوى فلا جوى ولا طرب
وهو في هذه القصيدة الجديدة يشير الى شيء من ذلك ايضاً فيقول :

فلا تحسبا اني نزع ولم أكن لأنزع عن الف اليه أنزع
وان شفاء النفس لو تستطيع حبيب موات او شباب مراجع
وإذا صح ما ادعاه الشاعر في قوله هذا وم اسبقه ، فمعنى هذا ان تاريخ القصيدتين يجب ان يتأخر كثيراً عما أثبتته لهما الشارح ♦

وجرى البحري في مدحته هذه على السنن الذي اختطه لنفسه ، والذي يكاد يطبع عامة قصائده بطابع واحد ، فمدوحه ذو جناب ومرع ، وفضله واسع ، ومجده عريق ، ليس بمقدور الآخرين مضارعة او مجاراته ، وهو ذو هبة تفرض التبجيل والاكبار ♦ ويبدو ان هذه الصفة صفة الهبة كانت ظاهرة في الفتح بدليل تكرار الشاعر لها أكثر من مرة ، فهو ما يقناً يذكرها ويشيد بها ما وجد الى ذلك سيلاً ♦ ويظهر كذلك ان الفتح كان رجلاً طوالاً فارعاً ، حسن السميت ، وهذا ما أشار اليه البحري ايضاً اكثر من مرة ، وهو الى جانب تلك الصفات بطل مغوار ، ومسعر حرب ، له في الأعداء بلاء حسن ، وهو كتوم رزين لا يصل الى سره المخادع الأريب ، ولا تظهر عليه سيما الاضطراب او أمارات التهيوء للعدو المناوىء ،

ولا ينسى الشاعر ان يعترف بفضائل المدوح عليه والتي غمره بها ، وانه اعززه بعد الذل ، وحفظ عليه كرامته وادبه ، من أن يبيعهما في سوق المسألة والاستجداء • ولكن الشاعر - وقد فعل هذا اكثر من مرة وبخاصة في القصيدة السالفة لهذه - مع اعترافه بجميل مددوحوه وفضله عليه ، يرى نفسه قد جازى فأحسن الجزاء من أثابه واعطاه ، انه جازاه بغيره التي تتألق فيها الغرائب والبدائع ، والتي تزينها الانساب المكرمة ، والتي سارت فغمرت الارض كما يغمرها الليل ، ولكنها بقيت ساطعة وهاجة كبقاء النجوم الطوالع ، وكأنني باشاعر اراد ان يؤكد أصالة شعره ومدىحه في الفتح الذي اتهم - كما سلف - بانتحاله ويبدو ان البحثري جهد في هذه القصيدة ان يجمع كل ما يمكن ان يقال من صفات المدح والثناء :

تنبى أُملى فاحتازه من معاشر
جناب من الفتح بن خاقان ممرع
أغرّ له من جوده وسماحه
يبجلّ اجلالاً ، ويكبر هية
اذا ارتدّ صمتاً فالرؤوس نواكس
منيف على هام الرجال اذا مشى
واغلب ما تنفك من يقظاته
هغامس حرب ما تزال جواده
بعيد مقيل السرّ لا يقبل التي
ومكتّم التدبير ليس بظاهر
ولا يعلم الاعداء من فرط عزمه
خلاق ما تنفك توقف حاسداً
أأكفرك النعماء عندي وقد نمت
وانت الذي اعزرتني بعد ذلتي
واغنييتي عن معشر كنت برهة

يسيتون والآمال فيهم مطامع
وفضل من الفتح بن خاقان واسع
ظهير عليه ما يخيب وشافع
أصيل الحجى فيه تقى وتواضع
وان قال فالأعناق صور خواضع
أطال الخطى بادي البسالة رائع
ربايا على أعدائه وطلائع
مطلّحة فيها حسير وظالع
يحاولها منه الاريب المخادع
على سرّ الرأى الذي هو تابع
متى هو مصبوب عليهم فواقع
له نفس في أثرها متراجع
على نموّ الفجر ، والفجر ساطع
فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
أكفحهم عن نيلهم وأقارع

ولم أرَ مثلي أتبع الحمد أهله
 قصائد ما تنفك فيها غرائب
 مكرّمة الأنساب فيها وسائل
 تنال منال الليل في كل وجهة
 وجازى أخا النعمى بما هو صانع
 تآلق في اضعافها وبدائع
 الى غير من يحبى بها وذرائع
 وتبقى كما تبقى النجوم الطوالع^(١)

اعتلال الفتح

ويبدو ان الفتح اعتل في هذه السنة ، وصادف اعتلال كاتبه ابي نوح معه كذلك ، فأنشأ البحثري فيهما مدحة ، خصص اكثرها في الفتح ، وأشار الى ان ابواب الآمال افتتحت بالممدوح ، وانه طلق المحيا ، لا يدعوه الوقار الى الاكفهرار ولا يخرج المزعج الى الطيش ، وان اعز الناس لديه قد برأ مما ألم به ، وها هو الآن مصطبج ، وهو يدعو للمفتح بالبرء والصحة ليشارك في ذلك ، والقصيدة في رأينا لا تنهض الى مستوى قصائده الجياد ، وان طابع التكلف ظاهر عليها :

ها ان سعى ذوى الآمال قد نجحنا
 أغرّ يحسن منه الفعل مبتدئاً
 ردّ المكارم فينا بعد ما فقدت
 لا يكفهر اذا انحاز الوقار به
 يا أيها الملك الموفى بغرته
 هناك ان أعزّ الناس كلهم
 يسره شربها طوراً ويحزنه
 قد اعتللت أو ان اعتل من شفقٍ
 وان باب الندى بالفتح قد فتحنا
 نعمى ، ويحسن فيه القول ممتدحا
 وقرّب الجود منا بعد ما نزحنا
 ولا تطيش نواجهه اذا مزحنا
 تلاًؤ الشمس لاحت للعيون ضحى
 عليك غادى الغداة الراح مصطبجا
 ألا تنازعه في شربها القدحنا
 عليه فاصلح لنا برء كما صلحنا^(٢)

اتخاذ الفتح وسيلة لظموحه :

والبحتري بعد ان توطدت علاقته بالفتح ورسخت قدمه في ركابه ، ونال ما نال من هباته ومنحه ، هل يكتفي بذلك ، ويمكث شاعر الفتح دون

(١) الديوان ١٣٠٣/٣ - ١٣٠٦ .

(٢) نفسه ٤٤١/١ .

غيره ، يمدحه ويستفد شعره فيه • الحق ان الشاعر بطموحه واطماعه ما كان ليرضى بذلك ، وان مبتغاه كان أبعد من الفتح ، انه الخليفة ، رجل للدولة وآمرها ، ومفتاح الشراء والغنى •

والشاعر - كما اسلفنا - كان ينقل خطواته بتؤدة وثبات من ممدوح الى آخر ، بعد ان يمهد للانتقال بتلميحات تتبعها تصريحات ووساطات لدى ممدوحه القديم • وأكبر الظن انه التمس من الفتح مشافهة ان يصله بالخليفة أو بلاطه ، قبل ان ينقل ذلك الالتماس الى الشعر •

ولعل من أوائل قصائده التي طلب فيها من الممدوح ايصاله او ايفاء وعده بتقديمه للخليفة ، هذه الحائية التي يخيل لنا انه لم ينشئها الا لهذه الغاية ، وقد مهد لطلبه والتماسه بالثناء على الممدوح ونعته بالبدر الذي يجلو الدياجي بنوره ، والضرغام الحامي لعرينه ، والوايل العام بقطره ، والفتى الفارع الطول ، المحسّد لمكرماته ، المفتوح لمفاتيح الأمور ، وحين انتهى من تقدمته هذه انتقل الى الغرض الاساس الذي كان يتوخاه ، وهو تذكير الفتح بانجاز ما وعده به من التقديم الى الامام ويعنى به الخليفة • والبحثري يستعجله بهذا التقديم ، ويرى ان اخباره عنه لدى الخليفة سبيل من سبل النصح الذي هو فريضة على الفتح بالنسبة للخليفة •

هل الفتح الا البدر في الافق المضحى
او الضيغم الضرغام يحمى عرينه
مضى مثل ما يمضي السنان وأشرفت
فتى ينطوي الحساد من مكرماته
يجد فتقاد الامور لجده
وما أفقلت عنا جوانب مطلب
فداؤك أقوام سبقت سراتهم
وعدت فأوشك نجح وعدك انه
وانت ترى نصح الامام فريضة

تجلّى فأجلى الليل جنحاً على جنح
او الوايل الداني من الديمة السح؟
به بسطة زادت على بسطة الرمح
ومن مجده الادنى على كمد برح
وان راح طلقاً في الفكاهة والمنرح
نحاوله ألا افتتحناه بالفتح
الى القمة العلياء والخلق السمح
من المجد اعجال المواعيد بالنجح
واخباره غني سبيل من النصح

له مكرمات يقصر الوصف دونها وأبلغ مدح يستعار لها مدحي^(١)

حساد ومناوئون :

ويبدو ان مرور الأيام بالشاعر في صحبة الفتح وتردده عليه وملازمته اياه لم تكن تشي بعض مناوئيه من المنافسة والمزاحمة ، فبدت بعض ملامح ذلك في قصيدة للبحري يظهر انه أنشأها في خلال سنة ٢٣٥ هـ ، وحاول الشاعر ان يطب في اسناد الاوصاف الكثيرة الى ممدوحه والتي كان بث أكثرها في تضاعيف قصائده فيه • فهو بعد التمهيد بالغزل المعتاد يقول لنا انه سيحمل همه وهمته ظهر كل جمل طويل الذيل ، متين الألواح ، عظيم البنيان ، وانه متى تنخ هذه المطايا لدى الفتح فانها ستجد فناء رجبا ، وسيداً كريماً ، كيف لا ؟ وهو حليف ندى ، تفيض العطايا من يديه اذا سئل ، ويتبرع اذا لم يسأل وانه موئل العفاة ، وملجأ العفاة ، فارح الطول ، تتقاصر رؤوس الرجال عنه ، وذو هيبة في نفوس أصحابه ، تشخص الأبصار نحوه - اذا ما بدا - وتخفض الأصوات عن كل مسمع ، فلا حركة ولا ضوضاء ، وانما هي ايماعات بالعيون اليه ، واشارات بالأنامل نحوه • والبحري كثير الولع بوصف هيبة الفتح والتفنن في ذلك ، وهو الى جانب هذه الصفات والهيبة والوقار ، يتحلى بصفات أخرى ، كاحتفاله بالاسراع الى طلب المعالي ، والعفو عن الجناة ، والعلم بنصرير الليالي ، والحلم في اوقاته المناسبة والشجاعة والبسالة ، والذود عن بني العباس والاخلاص لهم • وبعد هذا الاطراء يدلف الشاعر الى الدفاع عن نفسه ، فهو يقول للممدوح على الرغم من انعامه عليه وانتشاله اياه من وهدة الخصاصة ، واعتاقه له من ذلل المطامع فليس بالذي لا يستحق ذلك ، هذا وقد نافسته عصبية ما بين مقصرٍ ومنتحلٍ ومدعٍ وانه اذا أجرى واياهم في مضمار الى غاية جاء سابقاً ، وجاءوا من بعده متخلفين ، وهو يطلب اليه ان لا يقرنه بامثال اولئك لتخلفهم عنه ، وقصورهم عن اللحاق به :

(١) الديوان ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦ •

قَرَا كلَّ ذِيَّالِ جُلَّالِ جَلْنَفِعِ
عَجَالِ إِلَى طِيِّ الْفِيَّافِيِّ وَادْرَعِ
بِضْنِكَ ، وَلَا تَفْزَعِ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعِ
وَذُو كَرَمٍ الْإِسْلَامِ يَسْلُ يَتْبَرَعِ
لَعَانِ ضَرْبِكَ أَوْ لَعَافِ مَدَقَعِ
سَنَا قَمَرٍ مِنْ سُدَّةِ الْمَلِكِ مَطْلَعِ
رُؤُوسِ الرِّجَالِ عَنِ طَوَالِ سَمِيدِعِ
لَأَبْلُجِ مَوْفُورِ الْجَلَّالَةِ أَرْوَعِ
إِذَا حَضَرُوا بَابَ الرُّوَّاقِ الْمَرْقَعِ
سِوَاهُ ، وَغَضَّ الصَّوْتِ عَنِ كُلِّ مَسْمَعِ
إِلَيْهِ بَعِينٍ ، أَوْ مَشِيرٍ بِاصْبَعِ
يَعَانِي صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ عَهْدِ تَبَعِ
يَبْتَ جَارِ رَأْسِ الْحِيَةِ الْمَتَطَّلِعِ
وَعَدْتَهُمُ لِلدُّخَالِ الْمَتَمَنِّعِ
وَلَا فِيهِمُ بِالْمُدَّهِنِ الْمَتَمَنَّعِ
وَحَظِيٍّ مِنْ جَدَوَاكِ غَيْرِ مَطْمَئِنِّعِ
الِيَّ ، وَلَا الْمَوْضُوعِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِي
وَمُنْتَحِلِ مَا لَمْ يَقْلِهِ وَمُدَّعِ
وَجَاؤُوا عَلَى آثَارِ حَسْرِيٍّ وَظَلَمِّعِ
لِحَاقِي وَلَمْ يَجْرُوا إِلَى أَمْدَمْعِي (١)

سِيحْمَلِ هَمِي عَنِ قَرِيبِ وَهَمْتِي
يُنَاهِبُنِ أَجْوَازِ الْفِيَّافِيِّ بِأَرْجَلِ
مَتَى تَبْلُغِ الْفَتْحِ بِنِ خَاقَانَ لَا تَنْخِ
حَلِيفِ نَدَى إِنْ سَبَلَ فَاضَتْ حِيَاضَهُ
تُؤْمَلِ نَعْمَاهُ ، وَيَرْجِي نَوَالَهُ
وَيَبْتَدِرُ الرَّأْوُونَ مِنْهُ إِذَا بَدَا
إِذَا مَا مَشَى بَيْنَ الصَّفُوفِ تَقَاصَرَتْ
يَقُومُونَ مِنْ بَعْدِ إِذَا بَصُرُوا بِهِ
وَيَدْعُونَ بِالْأَسْمَاءِ مَثِيٍّ وَمَوْحِدًا
إِذَا سَارَ كَفَّ اللَّحْظَ عَنِ كُلِّ مَنْظَرِ
فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا أَفَاضَةَ شَاخِصِ
عَلِيمِ بِتَصْرِيفِ الْمِلَالِيِّ كَأَنَّهُ
حَلِيمِ فَإِنَّ يَبِلُ الْجَهُولُ بِحَقْدِهِ
أَمِينِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي سِرِّ أَمْرِهِمْ
فَمَا هُوَ بِالسَّهْلِ الشُّكِيمَةِ دُونَهُمْ
مَكَانِي مِنْ نَعْمَاكَ غَيْرِ مُؤَخَّرِ
فَمَا أَنَا بِالْمَغْضُوضِ فِيمَا أَتَيْتَهُ
وَقَدْ نَافِسْتَنِي عَصْبَةَ مِنْ مَقْصَرِّ
إِذَا مَا ابْتَدَرْنَا غَايَةَ جِئْتُ سَابِقًا
فَلَا تَلْحَقْنِ بِي مَعْشَرًا لَمْ يُؤْمَلُوا

وظاهر ان هذه المدحة قوية الاسر جيدة النسيج ، فخمة الالفاظ ،
عالية الاسلوب ، وهي مع ذلك لا تكاد تخلو من التعمل والجنوح الى الغرابة
أحياناً وربما جرى في ذلك حتى في الغزل الذي مهد به في مقدمتها . كما
جهد الشاعر ان يكثر فيها من التقسيم الذي عرف به كقوله في الغزل :

اسرّ بقرب من ملّم مسلّم وأشجى بسين من حيب مودع
وقوله :

ومن لوعة تعادني اثر لوعة ومن أدمع ترفضّ في أثر أدمع
تذكير بالوعد :

وهذه قصيدة أخرى تأتق فيها ما شاء له التأتق واحتفل ما شاء له الاحتفال ، أشار فيها الى حنين ركابه التي بالعراق الى برد الشأم وريفه مما يدل على ان ذلك كان في ايام القيظ - كما حنت الى نهر الساجور في منبج ، وأشار الى مستقر الفتح وهي سامراء بقوله : « التي تهوى » وبقوله : « عالية العراق » ثم دلف الى وصف الممدوح فأشاد باكرامه للضيوف الذين كان هو في جملتهم ، كما ذكر ان أبواب الفتح قد تفتحت بالاذن له ، ورفعت الحجب الساترة عنه ، وهذا دليل مكاتته منه ، وعنايته به ، ولعله في هذا يريد اخبارنا عن الفارق بين حالته هذه وبين امتناع تلك الحجب عليه وصعوبة الاذن له بالدخول على الفتح في ابان محاولته الاتصال به^(١) * وهو يعترف بعطف الفتح عليه ، وتابع الوفاء اليه ، حتى ارتفع بذلك قدره ، وسمت منزلته ، وانه ليحار في شكره ، لكثرة ما أسدى اليه ، ولعظم تشريفه له * ويستطرد الشاعر في تعداد خلال الممدوح وشمائله وهي : الكرم والشجاعة والسادد وما الى ذلك ، حتى اذا قارب الانتهاء من مدحته ، تذكر وعد الفتح له بتقديمه الى الخليفة ، فذكره بذلك والتمس منه الوفاء به :

حنت ركابي بالعراق وشاقها في ناجر برد الشأم وريفه
ومدافع الساجور حيث تقابلت في ضفتيه : تلاعه وكهوفه
ان لم يريثنا الجواز عن التي تهوى ويمعنا النفوذ اريفه
او نائل الفتح بن خاقان الذي للمكرمات تليده وطريفه

(١) أنظر : ص ٨٢ من هذا البحث .

يقرى البدور بها ونحن ضيوفه
 جزلاً ، وعرفني الغنى معروفه
 وترفعت عني اليه سجوفه
 وتابعت جملاً الى الوفه
 شرفاً أطلّ على النجوم منيفه
 اغناؤه ابيّاي أم تشريفه
 فينا ، وليث والرماح غريفه
 من فوق أبنية الامير ستوفه
 زاتته أنك صنوه وحليفه
 عن ساحتي أحداثه وصروفه
 يوميه لم يؤمن على مخوفه
 انى اذاً واهي الوفاء ضعيفه
 فضل الى جدوى يديك تضيفه
 خلفى ، فان نقيصة تخليفه (١)

ملك بعالية العراق قبابه
 لم ألقه حتى لقيت عطاءه
 فتفتحت بالاذن لي أبوابه
 عطفت علىّ عناية من ودّه
 عالي المحل أنالني بنواله
 ايّ اليمين أجلّ عندي نعمة
 غيث تدفق واللجين رهامه
 قل للأمير وأيّ مجد ما التقت
 أمّا السّماح فان اول خلّة
 لما لقيت بك الزمان تصدعت
 وأمنته ولو ان غيرك ضامن
 فلئن جحدت عظيم ما أوليتني
 فهلمّ وعدك في الامام فانه
 وهو الخليفة ان أسر وعطاؤه

استحسان الفتح لشعره :

وإذا كنا نجعل الكثير عن استحسان الفتح لما كان يسمعه من شعر
 البحترى فيه وما كان يقوم به حياؤه من انشراح واهتمام واقبال ، وذلك لقلّة
 ما تسرّب من الأخبار اليها في هذا الصدد ، فان لدينا خبراً يتعلّق بهذه
 القصيدة وما انطوت عليه من المحاسن والمزايا ، وما كان لها من أثر كبير في
 نفس المدحوق وهذا الخبر رواه الصولي في اخبار البحترى قال فيه :
 « حدثني احمد بن يزيد المهلبى » عن ابيه قال : انى لعند الفتح اذ دخل
 البحترى فأشده قصيدته :

شرح الشباب أخو انصبا وأليفه
 ملك بعاليه العراق قبابه
 فلما بلغ الى قوله :
 يقرى الضيوف بها ونحن ضيوفه

فلما بلغ الى قوله : فهلم وعدك في الامام ♦♦♦

رأيت الفتح قد اهتز وطرب لذلك ، فقلت : ايها الأمير ، حدثني اسحاق الموصللي قال : كنت أغنى محمد الأمين فيشرب ، وأنشده الشعر الحسن فيقول : وانا والله أطرب على حسن الشعر كما أطرب على حسن الغناء ! وما أحسبه أنشده أحد أحسن من هذا الشعر ، ولا فهم أحد به أتمّ من فهم الأمير ، فقد شكر الجدوى والاذن والجاه والانس ، وهذا جميع ما تمدح به الملوك ، فقال : هاتوا ارطالاً حتى تشرب على حسن الوصف ، فجيء بأرطال ، فأعاد البحترى الابيات ، فشربنا رطالاً رطالاً ♦ ثم دعا لنا ببدرة ، فقال : اقتسماها بينكما الى ان أكلم أمير المؤمنين ♦ ولما خرجنا قال البحترى : أحسن الله جزاءك يا أخي وابن عمي فقلت : أحسن الله عني جزاءك لما سقت اليّ « (١) » ♦

نصيحة الفتح له بتلحين شعره :

وفي أخبار البحترى للصولي خبر حدث به البحترى نفسه - كما يقال - جاء فيه : « كنت أمدح المتوكل مقوماً لفظي ، غير مرسل نفسي ، فقال لي الفتح - وكان والله ، ما علمت ، قوي الأدب ، حسن المعرفة بالشعر - : ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين الى مثل هذا ، لئن كلامك حتى يفهم ، فانه يلد ما يفهم ، فعلمت انه نصحنى ، فمدحته بأشعارى التي منها :

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا ومنها :

لم لا ترقّ لذل عبدك ومنها :

عن ايّ شعر تبسم

فحظيت عنده ، وقربت من قلبه ، وتوقّرت على صلاته « (٢) » ♦

(١) اخبار البحترى ص ٧٩ - ٨١ •

(٢) نفسه ص ٨٦ - ٨٧ •

فالخبير يشير - كما ترى - الى ان البحري كان يقوّم لفظه ، ويرتفع
شعره الى مستوى يصعب فهمه على المتوكل ، وقد لمح الفتح ذلك فأشار
عليه بترقيقه وتليينه ليفهمه المتوكل ، ومن ثمّ ليلذ فهمه له ، ومعنى هذا ان
اقتراح الفتح منصب على قصائد الشاعر في المتوكل فحسب • ولعل استدراك
البحري وقوله في الفتح (وكان والله ، ما علمت ، قوى الادب ، حسن
المعرفة بالشعر) دليل على هذا • بيد اننا حين نرجع الى قصائد البحري في
الفتح نجد له قصيدتين : احدهما ترجع - كما يرى الشارح -
الى سنة ٢٣٤ هـ ، اي قبل اتصال الشاعر بالمتوكل ، وهي التي مطلعها :

فؤادي منك ملآن وسريّ فيك اعلان

وثانيتها تعود الى سنة ٢٣٧ هـ ، كما يقال ، اي بعد اتصاله بالمتوكل
بستين وهي التي مطلعها :

مني وصل ومنك هجر وفيّ ذلّ ، وفيك كبر

وإذا صح تاريخ القصيدة الاولى ، أو لايعنى هذا ان الشاعر قد لمس
من فتحه الميل الى التسهيل ، والرغبة في التليين والترقيق ، فحاول ذلك في
هذه القصيدة ، وحين رأى اعجاب الفتح بهذا اللون أكثر منه بعد ذلك
وبخاصة عند اتصاله بالمتوكل ! ولعل الذي يرجح هذا ان للبحري قصيدة
أخرى ترجع - كما يرى شارح الديوان الى سنة ٢٣٢ هـ في كاتب الفتح
هذا ، نحا فيها منحى هذه السهولة والليونة ، مما يحمل على الظن انها كانت
ترشيحاً لقصائده المينة - اذا صح التعبير - فيما بعد (١) •

أما اذا صح الخبر الذي روى عن البحري في ترقيق شعره وتليينه
وانه كان بعد اتصاله بالمتوكل ، فمعنى هذا ان التأريخ الذي رجحه الشارح
لقصيدته النونية غير صحيح ! وينبغي ان تكون ضمن القصائد التي نظمت
بعد نصح الفتح له • فالقصيدة الاولى هي :

(١) أنظر : ص ٧٦ •

فؤادي منك ملآن وسرّي فيك اعلان
وانت الحسن ، لو كا ن وراء الحسن احسان
غزال فيه اعراض وابعاد وهجران
ودون النجح من موعو ده مطبل وليّان
سقاني كأسه شزراً وولّي' وهو غضبان
وفي القهوة أشكال من الساقى وألوان
جباب مثل ما أسك ر طرف منه وسان
وطعم الريق اذ جاد به والمصبّ هيمان
لنا من كفته راح ومن ريّاه ريحان

★ ★ ★

كفى الفتح بن خاقان ال نذي شيّد خاقان
علاً يشبهها قدس اذا أرسى ونهلان
فللحاسد اغضاء اذا عدت واذعان
أبى لي الفتح أن أحفل بالاعداء من كانوا
فما أرهب ان عزّوا ولا أبهج ان هانوا
وأعداني على الأيد ام ماضي العزم يقظان
له في وفره هدم وفي عليه بنيان
صحا واهتز للمعرو ف حتى قيل : نشوان
لك النعماء والطول وافضال واحسان
وأخلاقك أنصار على الدهر وأعوان
وأموالك للحمد ال نذي يؤثر أثمان^(١)

والقصيدة بعامتها - كما ترى - واضحة السهولة ، سواء في ألفاظها
أو معانيها ، حتى ليخيل الى القارىء انها لا تتطلب جهداً كبيراً في محاكاتها

(١) الديوان : ٢٢٤٣/٤ - ٢٢٤٥

والنسج على غرارها ، ومن اجل هذا نرى الجرجاني يقول : « لا يمكن ادعاء ان جميع شعره (اي البحترى) في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادي منك ملآن وسرّي فيك اعلان « (١)

اما القصيدة الثانية فهي :

مني وصل ، ومنك هجر وما سواء اذا التقينا
اني - وان لم أبج بوجدي - يا ظالمًا لي بغير جرم -
قد كنت حرًا وانت عبد برح بي حبك المعنى
أنت نيمي وانت بؤسي غاب دجاها ، وايّ ليل
تمزج لي ريقة بخمر لعله ان يعود عيش

وفيّ ذلّ ، وفيك كبر سهل على خلّة ووعر
أسرّ فيك الذي أسرّ اليك من ظلمك المفرّ
فصرت عبدًا وانت حرّ وغرّتي منك ما يغرّ
في ظلها والزمان نضر يدجو علينا وأنت بدر ؟
كلا الرضاين منك خمّر كما بدا ، او يُديل دهر

* * *

افضال فتح علىّ جمّ المنعم المفضل المرجى
اذا تعاطى الرجال مجداً هم ثماد وانت بحر
اني وان كنت ذا وفاء لذاكر منك فضل نعمى
وكيف شكريك عن سواء
ونيل فتح لدى غمر والأبلج الازهر الأغرّ
بذّهم سبقه المبرّ وهم ظلام ، وانت فجر
لا يتخطى اليّ غدر وستر نعمى الكريم كفر
وما يداني نذاك شكر

(١) أنظر : اخبار البحترى ص ٨٦ حاشية (٣) .

عذر وحسب الكريم ذنباً اتيانه الأمر فيه عذر^(١)
وواضح ان هذه القصيدة هي الأخرى من السهولة والليونة في الفاظها
ومعانيها بحيث لا تحتاج الى ثبيان ذلك وشرحه ، بل يخيل اليها انها اكثر
سهولة وليونة من القصيدة السابقة ، ويبدو ان البحري قد عمد الى التزام
المطابقة في جل ابياتها ، حتى يمكن القول انها اكثر قصائده في هذا
الالتزام ، ولا نعتقد ان من الصعوبة مجازاة قوله :

مني وصل ومنك هجر وفي ذلّ وفيك كبر
وكذلك باقي ابيات القصيدة •

اعتلال الفتح :

غير ان البحري - لحسن الحظ - لم يوال انتهاج هذه الطريقة •
واكبر الظن انه رأى فيها خروجاً على طبعه ، وتبدلاً لموهبته ، واجحافاً
بعبريته ، وتطويحاً بسمعته فجاد عنها وآب الى منهجه القويم وطبعه
السوى ، فدخل على الفتح بقصيدة في اعقاب القصيدة السابقة وذلك في سنة
٢٣٩ هـ - كما يقال - يمدحه فيها ويشير الى علة انتابته وكادت تودى به •
والقصيدة تمثل طابع شعر البحري العام الذي مرّ الشيء الكثير منه
في قصائده السابقة ، غير اللينة او المرققة • وهي تبدأ بالغزل التقليدي على
عادة الشاعر في عموم قريضة ، ثم انتقل الى الغرض المقصود ، فاذا الممدوح
قد احبى - بجوده - موات الكرم ، واذا هو في مدارج العلياء منقطع القرين ،
مفتقد العديل ، له من تقريب الخلفاء واحتفالهم به ما ليس لغيره ، وهو اخ
في الجود يهتزله حتى ليبدو ذلك في تألق وجهه الذي يشبه تألق اشعة
الشمس في متن المهند الصقيل ، وبالطبع فان شخصاً كهذا ، حين يعتل فان
المعالي تشرف على شفا خطر مهول ، وان الناس من حزنهم عليه ما بين
مرفضّ الدموع ، ومضرم الحشا ، وانه من العجب ان تجنبي النوائب

(١) الديوان ٢/١٠٥٠ - ١٠٥١ •

أفضل الناس وخيارهم ، وتنخطى ذوي الخمول والأقدار الضئيلة • ويبدو ان العلة كانت مستفحلة وخطيرة ، حتى لتجد آثارها في قلق الناس وعويلهم واضطرابهم ، وما ذلك الا لفرعهم ان يذهب بذهابه الفضل المرجى ، والمجد الأئيل ، ولكن دفاع الله عنه ، وصنعه فيه ازالا ما علق في الاذهان من أفكار ، واختلج في الصدور من آلام ، فكان في شفاؤه فرحة للمسلمين وتهنئة لهم في كل ثغر وصقع :

زكت بالفتح أحداث المساعي
بمنقطع القرين اذا ترقى
رحيب الباع يرفع منكبا
ويحكم في ذخائره نداء
اخ للمكرمات 'يعد' فيها
خلائق كالغيوث تفيض منها
ووجه رقق ماء الجود فيه
يريك تألق المعروف فيه

* * *

ولما اعتلّ أصبحت المعالي
فكائن فضّ من دمع غزير
ألم تر للنواب كيف تسمو
وكيف تروم ذا الفضل المرجى
كفاك الله ما تخشى ، وغطى
فلم ار مثل علتك استفاضت
وكم بدأت وثنت من ميت
وقد كان الصحيح أشدّ شكوى
محاذرة على الفضل المرجى
ليهن المسلمين بكل ثغر

محبسة على خطر مهول
وأضرم من جوى كمد دخيل
الى أهل النوافل وافضول
وتخطو صاحب القدر الضئيل ؟
عليك بطل نعمته الظليل
باعلان الصبابة والعويل
على مضض ، وجافت من مقيل
غدائسذ من الذنف العليل
واشفاقاً على المجد الأئيل
سلامة رأيك الثبت الأصيل

وصححك التي قامت لديهم مقام الفوز بالعمر الطويل
 تعافى في الكثير وانت باقى لنا أبداً ، وتوعظ بالقليل^(١)
 والبحثري - كما ترى - قد أجاد في الكثير من اجزاء هذه القصيدة
 سواء في وصف شمائل الممدوح ، او في تصوير ما اتاب الناس من قلق
 واضطراب في اعتلال رجل كريم له ايدٍ بيض عليه وعلى غيره •
وساطة الفتح في نزاع بني تغلب :

وحدث نزاع عنيف بين قبائل تغلب جرّ الى صدام ومعارك دامية
 بينها ، ويبدو ان هذا الصراع الدموي بين هذه القبائل لم يجد له مكاناً في
 كتب التاريخ والمراجع الاخرى سوى ما ذكره البحتري في شعره ، ويبدو
 كذلك ان هذا الصراع نشأ قبل شق اهل حمص عصا الطاعة على الخلافة
 كما سيأتى في سنة ٢٤١ هـ وعلى هذا فمن المرجح ان هذه القصيدة تدور
 في فلك سنة ٢٣٩ هـ لا في سنة ٢٤٣ هـ التي يحددها شارح الديوان ،
 والذي يدعونا الى هذا هو اشارة البحتري الى يد الفتح في فض هذا النزاع ،
 فقال من قصيدة يمدحه بها لتدخله في حوادث حمص وتوسطه لدى
 الخليفة :

رددت الردى عن أهل حمص وقد بدا لهم جانب اليوم العبوس العصبص
 فكانت يداً بيضاء مثل اليد التي نعشت بها عمرو بن غنم بن تغلب^(٢)
 وقال من أخرى في مدحه ايضاً :

توالت أياديه على الناس فاكتفى بها كلّ حيّ من شأم ومعرق
 فكم حققت في تغلب الغلب من دمٍ مباح ، وأدنت من شتيت مفرق^(٣)
 لقد صورّ البحتري في هذه المدحة تصويراً مؤثراً الحرب التي نشبت
 بين هذه القبائل ، كما وصف الوفود التي أمت الحاضرة ، شاكرة للفتح
 صنيعه الذي أسداه لهم بتدخله في هذا الصراع المؤلم •

(١) الديوان : ١٧٣٧/٣ - ١٧٤٠ •

(٢) أنظر : ص ١٢٩ • (٣) أنظر : ص ١٣١ •

وأفتتح المدحة بالغزل الذي حمل في بعضه على الغواني اللائمي أخذن
يصدفن عنه ، لو خط الشيب شعره ، ولا كتمال عقله ، ثم التفت الى بني
تغلب فتحسر على ما أصاب ديارهم من نكبات حتى كادت ان تخلو من
سكانها ، فهذه بلد وسنجان والمحلية وماردين قد مشى فيها الدمار ، وحلّ
فيها الخراب من جراء هذا الصراع الدموي ، فهو يألم من تجدد القتال
بينهم في كل آن ، لانه يجرّ الى فنائهم والقضاء عليهم ، وليس عملهم هذا
الا كعمل من تأخذ العزة بالاثم ، ثم يصور الصدام بين المتنازعين فيقول :
اذا ما تلاقوا في ساحات الوغى تحاجزوا ، وكان الموت هو القاسم العادل
بينهم ، كما كانت الحرب سجلاً بينهما ، وهم متكافئون في الشجاعة
والبسالة والاقدام ، لانهم أخوة تربطهم وشائج الرحم والقربى ، وتزجيهم
الى هذا الشجار السيوف المرهفة ، والجياد الضامرة ، والأحساب الزاكية ،
وان الموت ليرى واضحاً حين يلتقي الجمعان ، وحين ترى فوارسهم وقد
ترجلوا فالتحموا مع بعضهم في مازق ضنك ، يصرعهم الطعن الدراك ،
ويعمهم صوت الضراب حتى اذا دبّ الفزع في قلوب الأعمار من الفتيان
لهول ما يرونه ، ردهم الى تحمل لمكروه ، وخوض المعامع ، الكهول
الشيب ، وبعد هذا الوصف المؤثر حقاً ، والجميل ايضاً ، يشير البحري
الى صفح الخليفة المتوكل عن هذه القبائل المتناحرة ، ويشير ايضاً الى ان الذي
لعب دوراً كبيراً في فض هذا النزاع هو الفتح بن خاقان • فكان أثره
فيهم اثر الغيث في الارض الموات ، ولولاه لذهبت دماؤهم هدراً ، وقد تلافى
ما وقع بينهم في مواعده ولو تأخر عن ذلك لأفنى بعضهم بعضاً • ويبدو ان
هذه القبائل المتقاتلة رأت - بعد ان مشى الفتح بينها بالسلام والقضاء على
ما بينهم من الترة والعداء - ان تشكر الفتح لمسعاه السلمي بينهم ، فأرسلت
وفوداً عنها اليه ، وصفها البحري بانها وفود الشكر، جاءت لتسني على عمل
المدوح ازاءها ، ثم راح يصف هيبة المدوح وخشوع الوفود واخبارتها
وهي تسير الى المكان المحدد لها ، فهذه الوفود ما كادت ترى الفتح حتى

قصرت من خطواتها هية له واجلالاً ، ثم تهافت على تقبيل يده عرفاناً بالجهيل وشكراناً ، واذا حاولوا القاء خطبة ، حالت جلالتة ووقاره دون ذلك ، حتى لتكاد تحسب في أبصارها - وقد نكسوها هية له - ضرباً من الحول والانحراف ، وكان المدوح يجمع بين القوة والفصاحة والرأي الحصيف ، واستطاع بكل ذلك ان يستل من صدورهم ما علق بها من موجدة وضغينة • ويفشى بينهم السلام والوئام والاخاء ، ثم أولم لهم ليزيل ما في نفوسهم من غل ، وما في قلوبهم من سخيمة ، وخلع عليهم ليعث فيهم الطمأنينة والشعور بالرضا والاحترام ، وبهذا فقد رأب صدعهم ، ولم شملهم ، وبعث فيهم حياة جديدة ، سيظنون يشيدون بصاحبها على مدى الأيام والأحقاب •

والحق ان القصيدة من النمط العالي ، ويبدو ان البحثري قد نسج على غرارها حين امتدح المتوكل في سنة ٢٤١ هـ بمناسبة الفداء بين الروم والمسلمين ، وحين تطرق الى وصف وفد الروم الذي قدم الى سامراء في تلك الآونة^(١) :

وإن فؤادي من جوى بك لا يخلو	ضمان على عينيك انني لا أسلو
محاسن أسماء يخالفها الفعل	عدمت الغواني كيف يعطين للصبأ
وجمل ولم تجمل بعارفة جمل	فنعم ولم تععم نبيل نعدّه
تصرّم لهو المرء أن يكمل العقل	عقلت فودعت التصابي ، وانما

★ ★ ★

دياركم أمست وليس لها أهل	بني تغلب ! أعزز على بأن أرى
مراع من سنجار يهمل بها الوبل	خلت بلد من ساكنها واوحشت
من الحرب ما فيه خداع ولا هزل	وأزعج اهل المحليات ناجز
تبيد ، ودار من مجامعكم تخلو	أفي كل يوم فرقة من جميعكم
بساعة عزّ كان آخره الذل	مصارع بغي تابع الظلم بينها

(١) انظر : الوفد الرومي في سامراء في الفصل الثالث •

وللموت فيما بينهم قسمة عدل
ففي هذه سجل وفي هذه سجل
ومثل من الأقوام زاحفه مثل
أخ لا بليد في الطعان ولا وغل
عناق ، واحساب بها يدرك التبل
فوارسهم في مأزق وهم رجل
وضرب كما ترغو المخزمة النزل
على الهول من مكر وهما الاشب الكهل

★ ★ ★

أتيتم ، وللجانين في مثلها الشكل
أتت وأمير المؤمنين لها أهل
يد الغيث عند الارض حرقتها المحل
فلا قود يعطى الا ذلّ ولا عقل

★ ★ ★

تقدم من نعمك عندهم قبل
من اليوم ضمتهم الى بابك السبل
خطاهم وقد جازوا الستور وهم عجل
على يد بسام سجيته البذل
جلالة طلق الوجه جانبه سهل
ومالوا بلحظ ، خلت انهم قبل
سديداً ، ورأياً مثل ما انتضي النصل
جميل ، وأبرا غلّها قولك الفصل
قراك فلا ضغن لديهم ولا ذحل
عطاء جواد ما تكاءده البخل^(١)

اذا ما التقوا يوم الهياج تحاجزوا
غدوا عصبتي ورد سجالهما الردى
كفى من الأحياء لاقى كفيّه
اذا ما أخ جرّ الرماح انبرى له
تحثيم البيض الرقاق وضمّر
وما الموت الا أن تشاهد ساعة
بطعن يكبّ الدار عين دراكه
يهال الغلام الغمر حتى يردّه

تجافى أمير المؤمنين عن التي
وعاد عليكم منعماً بفواضل
وكانت يد الفتاح بن خاقان عندكم
ولولاه طلّت بالعقوق دماؤكم

أتوك وفود الشكر يشنون بالذي
فلم أر يوماً كان أكثر سؤوداً
ترأوك من أقصى السماط فقصروا
فلما قوضوا صدر السماك تهافتوا
اذا شرعوا في خطبة قطعتهم
اذا نكسوا أبصارهم من مهابة
نصبت لهم طرفاً حديداً ومنطقاً
وسلّ سخيمات الصدور فعالك الـ
فما برحوا حتى تعاطت أكفهم
وجرّوا بروود العصب تصفو ذيولها

(١) الديوان : ١٦١٥/٣ - ١٦٢١ .

عصيان أهل حمص :

وفي جمادى الآخرة من سنة ٢٤٠ هـ وثب أهل حمص بعاملهم على المعونة ، وهو ابو المغيث الرافعي موسى بن ابراهيم لقتله رجلاً من رؤسائهم ، فقتلوا جماعة من أصحابه ، ثم أخرجوه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، فبلغ ذلك المتوكل ، فوجه اليهم عتاب بن عتاب ، ووجه معه محمد ابن عبدويه الأنباري ، وأخبرهم ان الخليفة أمر ان يحل محمد بن عبدويه محل أبي المغيث ، فان سمعوا وأطاعوا ورضوا فيها ، وإلا ارسل اليهم من يحاربهم ويقضى على فتنهم ، فرضوا بابن عبدويه هذا ، ولكنهم ما لبثوا ان وثبوا مرة أخرى في جمادى الآخرة من سنة ٢٤١ هـ بعاملهم الجديد بمعاونة قوم من نصارى هذه المدينة ، فأرسل المتوكل جيشاً من دمشق والرملة ، وأمر عامله أن يأخذ ثلاثة من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضرب التلف ، فاذا ماتوا صلبوا على ابوابهم وان يأخذ عشرين آخرين فيضرب كل واحد منهم ثلثمائة سوط ، ويرسلهم مكبلين الى سامراء ، فانصاع لأمره وفعل ما أراد .

ويبدو ان الفتح قد توسط لدى الخليفة في أمر أهل هذه المدينة مما حمل البحري على شكر صنيعه هذا في القصيدة التالية . ويبدو ايضاً ان البحري قد تفرّد بتسجيل توسط الفتح في هذه الحادثة اذ لم تشر اليها - فيما نظن - المصادر الأخرى ولا سيما التاريخية منها .

والشاعر بعد التمهيد التقليدي يرى ان الفتح هو نهاية آماله ، وغاية مطلبه وانه القتي المجبول على الكرم ، الفارع الطول ، الذي تغض الابصار اذا ما بدا هية له وتبجيلاً . والبحري - كما قلنا اكثر من مرة - مشغوف بوقار المدوح وهيبته ، ولهذا فهو ما يفتأ يكرر في مدححه وصف هذه الهية والتمدح بها والاعجاب بصاحبها ، ويسترسل الشاعر في اطراء صفات الفتح الذهنية والخليفة ، فهو طود الخلافة ، وحسام الخليفة ، ذو فكر ثاقب ، ورأى حصيف ، ما يكاد ينظر في امر من الامور حتى تتراقد

٤ افكار في حلّ ما غمض وعوص ، وهو كذلك متحفّظ متأنّ في معالجة الأحداث ، لا تظهر عليه أمارات الاضطراب ، ولا تبدو سيمااء التسرع يزين كل هذه الصفات أخلاق رائعة هي الروض المجود ، وقد أعجبت الناظر المتأمل ، وحيرت السامع المتعجب ، وزاد من حسننها وبروزها مجاورتها لنقيضها من الأخلاق ، فهي كالكوكب التي لا يظهر جمالها ولمعانها الاّ في غياب الليالي ودياجيها •

وبعد هذا التمهيّد الطويل والاشادة بشمائل الفتح وخلاله ، ينتقل الشاعر الى أهل حمص ، فيخطبهم بأن شملهم قد لمّ بعد التفرّق ، وبعد ان كانوا ما بين طريد مشرّد ، وثاوٍ ردٍ ، وخائب مترقب ، ومصلّب على الجذوع ، وينبئهم بان الفضل في هذا يرجع الى الفتح الذي أخذ على نفسه اقاتلهم من عثرتهم واغاثة ملهوفهم ، وتأمين خائفهم ، والصفح عن مذنبهم ، وبعث الطمأنينة في نفوسهم بعد ان أشرفوا على يوم عبوس عصب •

ويبدو ان الشاعر وجد في وساطة الفتح وانقاذه لأهل حمص عملاً عظيماً جداً ، ولعل هذا راجع الى عصية البحري ، لان الواثين كانوا من أهل حمص في الشام ، ولهذا فهو يشكره عن (قومه العرب) وعن قوم الفتح (الاتراك) ، وانه - اى الشاعر - لسان هذين القومين في كل مكان ، ثم هو بعد ذلك عبده الذي استرقه بنعمته ، وطوّقه بعوارفه ، وبلغ به أقصى الغايات وأرفع درجات المجد :

لعل وجيف العيس في غلس الدجى	وطىّ المطايا سبباً بعد سبب
يلغني الفتح بن خاقان انه	نهاية آمالي ، وغاية مطلبى
فتى لا يبرى أكرومة لزند	اذا ما بدا اكرومة لم يعقب
ومستشرف بين السماطين مشرف	على أعين الرائيين يعلو فيرتبى
يفضون فضل المدحظ من حيث ما بدا	لهم عن مهيب في الصدر محبب
اذا عرضوا في حدة نفرت بهم	بسالة مشبوح الذراعين أغلب
غدا وهو طود للخلافة مائل	وحدّ حسام للخليفة مقضب

له فكر ينجح في كل مطلب
تسرّع جهل الطائش المتوثب
وقور متى يقدح بزنديه يُنقب
ملكّ العزالي ، ذورباب وهيدب
وكم حيرت من سامع متعجب
بعقب افتراق منكم وتشعب
وثاوٍ رد او خائف مترقب
اذ الشمس لاحتهم حرايى تضب
تدهدتم من حالق متصوّب
وغوثاً للمهوف ، وعفواً لمذب
لهم جانب اليوم العبوس العصبب
بهم ما هوى من سخط أسوان مغضب
نعشت بها عمرو بن غنم بن تغلب
لسانهما في كل شرق ومغرب
نسبت اليها دون رهطي ومنصبي^(١)

اذا انساب في تدبير أمر ترادفت
خفى مدبّ الكيد تشي أناته
ويدي الرضا في حالة السخط للعدى
غرائب أخلاق هي الروض جاده
فكم عجبت من ناظر متأمل
أرى شملكم يا أهل حمص مجتمعاً
وكنتم شطاعاً من طريد مشرد
ومن نفر فوق الجذوع كأنهم
تلافاكم الفتح بن خاقان بعدما
بعارفة أهدت أماناً لخائف
رددت الردى عن أهل حمص وقد بدا
ارفتهم عند السرير وقد هوى
وكانت يداً بيضاء مثل اليد التي
شكرتك عن قومي وقومك اني
وما انا الاّ عبد نعمتك التي
مقاصير الفتح :

ويظهر ان اهل حمص كانوا يكثرون الخلاف وشقّ عصا الطاعة
على الخلافة وانهم عاودوا العصيان مرة أخرى في سنة ٢٤٤هـ^(٢) ، وفي
خلافة المتوكل أيضاً ، ويبدو ان الفتح قد توسط - كما فعل ذلك قبلا -
لدى الخليفة الذي اوشك ان يوعز لجيوشه بالزحف عليهم - بالصفح
عنهم - فقدم الشاعر بهذه المدحة يشكره فيها ويشيد بالآله وأفضاله عليه
وعلى أهل حمص •

(١) الديوان ١٩١/١ - ١٩٥٠

(٢) أنظر الديوان ١٥٠٨/٣ الحاشية •

وبعد التمهيد الغزلي الذي يشير جزء منه الى قطع الشاعر مرحلة الشباب ، وغزو المشيب لمتة ، ينتقل الى الغرض المقصود ، فيخبرنا بتلفته وهو في أعلى دمشق وقد تراءت له هضاب لبنان كأنها السحب المعلقة في أجواز الفضاء الى الحيرة البيضاء والكرخ ، وهما في العراق ، بعد ان ضجر من المقام بين بصرى ودمشق وهما في الشام ، تلفت الى ملجأ عزه ، ومستقر اقامته ، ومفصد هواه وشوقه ، وهو يريد بالكرخ هنا كرخ فيروز الذي فيه قصر المدوح^(١) ، والذي وصف مقاصيره المطلقة على دجلة وقد حفت بالرياض الحو ، وازدانت بأفانين الزهر ، وتضوّعت بأريج الانسام ، وبدت القباب البيض والشمس تضاحكها أشبه بانصاف من البيض المفلّق ، ولاحت الشرفات الممتدة في الفضاء كقوادم الحمام الابيض المحلّق ، وهذه المقاصير الموصوفة هي منازل المدوح ، التي هي ملجأ المحتاجين ، وملاذ المكرويين ، يحلّها كريم يجمع بين سخاء الكفّ ، وطلاقة المحيا ، وقد عمت جدواه ، وعطاياه الشام والعراق ، وشملت فضائله ومعارفه قبيلة تغلب ، فحقن دمها المباح ، ولم شعنها المرقق ، ولعله يشير هنا الى وساطة الفتح في القصيصة السابقة ، كما طوق بمنته عنق حمص واهلها بعد أن أشرفوا على الموت ، فوقوف زحوف الجيوش ، وأعمد سيوف الموت ، ولولاه لكانوا مزعاً بأشفار الصوارم ، ومزقاً بأطراف العوالي ، فوجب لهذا شكره والاعتراف بفضله وجميله ، وهو خليق بهذا العمل ، جدير بالقيام به ، وكيف لا ؟ وهو المرتقي ذر العلاء طبعاً لا تطبعاً ، والمشرف على اعدائه من كل ناحية ، وهو مخلص لمواليه من بني العباس متفان في الذود عنهم وعن خلافتهم ، ولهذا كله فهو - أي الشاعر - يشكره ويعترف له بفضله ونعمته عليه ، وليس له ما يقدمه في هذا سوى ودّ صدره وشعره :

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٨٤ .

ولا القلب من رقّ الغواني بمعق
مكان بياض الشيب كان بمقرقي
وقصرن عن لبيك ساعة منطقي

★ ★ ★

للبنان هضب كالغمام المعلق
ذمت مقامي بين بصرى وجلق
وقصد التفاتي في الهوى وتشوقي
الى منظر من عرض دجلة مونق
أفانين من أفواف وشى معلق
روائح من فأرمسك مفتح
تضحكها ، أنصاف بياض مفتح
قوادم بياضان الحمام المحلق
غنى لعديم ، او فكاكأ لموثق
تلاحق سيل الديمة المتخرق
بها كل حى من شام ومعرق

★ ★ ★

مباح ، وأدنت من شتيت مفرق
غدا الموت مه آخذاً بالمخنق
كتائب تزجى فيلقاً بعد فيلق
الى ظلّ فينان من العيش موراق
أتاح لكم رأى الامام الموقق
أضاعت بروق العارض المتألق
صدور المذاكى من كميته وأبلق

أجذك ما وصل الغواني بمطمح
وددت بياض السيف يوم لقيتي
وصد الغواني عند ايامض لمتني

تلفت من عليا دمشق ودونسا
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما
الى معلى عزى ودارى أقامتي
مقاصير ملك أقبلت بوجوهها
كأن الرياض الحوي يكسين حولها
اذا الريح هزت نورهن تضوعت
كأن القباب البيض والشمس طلقة
ومن شرفات في السماء كأنها
رباع من الفتح بن خاقان لم تنزل
يحل بها خرق كأن عطاءه
توالت أياديه على الناس فاكنتي

فكم حقنت في تغلب الغلب من دم
وكم نفست في حمص عن متأسف
وقد قطعت ارض (الارند) اليهم
به استأنفوا برد الحياة وأسندوا
فشكراً بنى كهلان المنعم الذي
ثنى عنكم زحف الخلافة بعدما
وقد شهرت بياض السيوف واعرضت

هناك لو لم يقتلكم حملتم
 فلا تكفرون الفتح آلاء منعم
 له خلق في الجود لا يستطيعه
 اعين بنو العباس منه بشارم
 و صدر أمين الغيب يهدى اليهم
 رأيتك من يطلب محلك ينصرف
 لك الفضل والنعمى على مينة

حسام الخليفة :

وهذه مدحة لم تؤرخ وأكبر الظن انها جاءت في اعقاب القصيدة
 الماضية ، وقد أشاد فيها بخلال الفتح وصفاته على النسق الذي مرّ في
 أكثر قصيده ، فمدوحة تجشّم خطة من المجد ليس بوسع سواه
 الاضطلاع بها ، ولا بمقدور المقتدى ان ينهض باعبائها ، والمكارم ملازمة
 له ، تحلّ حيث يحلّ ، وتجدها حيث تجده ، وليست هذه الاخلاق
 سوى مواهب ، يرزقها بعضهم ، ويحرمها بعض آخر ، وهو حمّال أعباء
 المعالي ، نهّاض بائقائها ، لا ينوء كاهله بها ، وهو حسام الخليفة المداوي
 لأدواء المخالفين له والخارجين عليه ، جامع بين التأنّي في النظر الى الامور ،
 وبين الاسراع في امضاء العزيمة ، وهو ريب خلائف راشدین مقومين ،
 تعهدوه بالثقيف والتدريب والتعليم حتى عاد كالسيف الابيض القاطع
 الذي ترادفت عليه القيون صقلاً وجلاء • والشاعر ما يكاد يفرغ من نعت
 حتى يعود الى آخر يسنده الى الممدوح ، فهو أيضاً مدبّر ملك ، وظلام
 اعداء ، ووقور شجاع ، ومستهلك للمكرّمات ، مستنفذ لها ، ولا سبيل الى

- (١) افلتت الشيء : أخذه بسرعة • اللهزمي : الحاد القاطع من
 السيوف والاسنة • المذلق : المحدد الطرف •
 (٢) الجراز : السيف القاطع •
 (٣) الديوان ١٥٠٩/٣ - ١٩١٢ •

مجازاة أحد له في هذا الشأن وهو أي الشاعر لا يزفّ قصائده الغرّ إلا لمستحقها والكفاء لها ، وهل هناك غير الفتح :

لقد جشم الفتح بن خاقان خطّة بيت المضاهي فاطر الطرف دونها متى تلقه تلقّ المكارم والندی وما هذه الاخلاق الا مواهب تحمل أعباء المعالي بأسرها حسام أمير المؤمنين الذي به وما هزّه الا تقرّر عنده أمدّ الرجال لبثه حين يرتأي بتسديده تلقى الامور وتجتبي ربا في حجور الملك يغريه بالحجى فأضّ كما أضّ الحسام ترادفت مدبرّ ملك ، ايّ رأيه صارعوا وظلام أعداء اذا بدى اعتدى وقور يردّ العفو فرط شداته ارى المكرمات استهلكت في معاشري أراحوا مطاياهم فلا الحمد يتغى

من المجد ما يستطيعها المتجشم ويمجز عنها المقتدى المتعلم وبعضهم في الفرط والحين يكرم^(١) والاّ حظوظ في الرجال تقسم اذا حظّ منها مغرم عاد مغرم يعالج أدواء الاعادي فتحسّم قرار اليقين ايّ سيفيه أصرم وأسرعهم امضاء حين يعزم وتنقض أسباب الخطوب وتبرم خلائف منهم : مرشد ومقوم عليه القيون فهو أبيض مخذم به الخطب ردّ الخطب يدمى ويكلم بموجزة ترفضّ من وقعها الدم^(٢) وفي القوم أشتات : مليم ومجرم^(٣) وبادت كما بادت جديس وجرهم ولا المجد يستبقى ، ولا المال يهضم

* * *
اليك القوافي نازعات قواصداً ومشرقة في النظم غرّاً يزيدها

- (١) الفرط : الحين .
(٢) يرفضّ : يسيل . الموجزة : الطعنة السريعة اخراج الدم .
(٣) الشداة : الاذى والشر .
(٤) نازعات : مشتاقات . يسيرّ : يجعل كوشي السيراء : وهي ضرب من الحلل مخططة أو يخالطها حرير .

ضوامن للحاجات اما شـوافعاً مشفّعة او حاكمات تحكّم (١)

والحق ان البحري - على الرغم - من تكراره للصفات والمعاني ، فان احتفاله بالالفاظ والتصوير والتقسيم والتشبيه قد أسبغ على الكثير مما أتى به حلة قشبية ، وصورة رائعة زاخرة بالالوان والاصباغ ، ومن أجل هذا فاننا قد لا نبعد كثيراً عن الصواب ، اذا ما زعمنا ان البحري يعد في هذا نسيج وحده من بين شعراء العربية ، فهو على الرغم من تكراره لوصف هية الفتح ووقاره ورزاقته وطوله وما الى ذلك ، فانه ما يكاد يتناول هذا الجانب منه حتى تجسد نفسك مأخوذاً بوصفه ، مسحوراً ببراعته ، مشدوداً بأبياته ، وكأنك تسمع منه هذا اول مرة • وقل مثل ذلك عند وصفه لاخلاق الممدوح ، وتفننه في تشبيهها ونعتها واطرائها •

غرق الفتح :

تروى المراجع ان الفتح خرج يوماً متصيداً فاجتاز على بعض القناطر وقد انقطع عن عسكره ، فانخفضت به القنطرة فغرق فراه أكار فطرح نفسه عليه وأتقده وقد كاد ان يتلف ، فجلس بعد أيام للناس لتنهته بالسلامة ، فكان من الطبيعي ان يكون في جملة المهئين شاعره البحري الذي دخل عليه فأشده قصيدة بهذه المناسبة فقال له الفتح : هونا بشر وأنت تنظم وتعب (٢) •

يوم النهر :

لقد مهد البحري لقصيدته - كعادته - بالغزل ، ولكنه غزل فيه رقة ولطافة وروعة لا تجدها الا لدى الوليد ، ثم انتقل بعد التمهيد الى

(١) الديوان ٣/ ١٩٢٨ - ١٩٣١ •

(٢) أخبار البحري ص ٩٦ - ٩٧ ، والفرج بعد الشدة للتنوخي

ص ٢٤٨ •

الثناء على الفتح فأشار الى ان في بقاءه بقاء الجود والعطاء ، وانه الفتى الذي ما تزال أياديه البيض شاهدة له ، وهو كالبدر الذي يبدد الدياتي ويكشف الظلمات ، تزينه أخلاق كالانجم الزهر واضحة نيرة ، والبحري يتفن كثيرا في وصفه أخلاق الفتح وتشبيها ، فمرة هي كالسحب المحملة بما تجود به^(١) ، وأخرى كالروض المنور الموشى بأفانين الزهور^(٢) ، وتارة كالانجم الزهر المشرقة^(٣) ، والى جانب ذلك فهو مسعر حرب ، وحارس أمين ، ينطوي على الامانة والتقى ، ويتحلى بالكفاية والنصر ، ويتجمل بالتواضع والورع ، ورجل هذه صفاته لا بد ان يفدى بمن هم دونه قدرا ومنزلة وكرما واحسانا ، وان يدعى له بالبقاء وطول العمر ، لان في ذلك بقاء المساعي ، ودوام المعالي • والبحري بعد كل هذه التقدمة من الاوصاف يدلف الى الغرض الذي يرمي اليه من قصيدته هذه ، فيحاول ان يعلل ببراعة وطرافة انخفاف القنطرة او الجسر - كما يسميه - صاحبه وولى نعمته • وان هذه الحادثة (يوم النهر) - كما يسميها - يوم عظيمة ونعماء في آن واحد ، وان اجتيازه النهر - وهو البحر - أحدث في أمواجه ولججه ما أحدث من اضطراب واندفاع وطغيان ، ادت الى تحطيم قواعد الجسر التي انهدمت به ، لعدم قدرتها على احتماله ، ولم يكن الجسر في ذلك ظلما ولا باغيا ، لانه ليس بوسعه مقاومة من هو أعظم منه ، وأنتى يكون ظلما وقد تحمل حلما كجبل قدس ، وهمة كجبل رضوى ، وقدراً لا يعد له قدر ! ولولا رحمة الله به ، ودفاعه عنه ، ومنته عليه ؛ لأظلمت الدنيا ، وذهب بهاؤها وحسنها بذهابه ، وانه حين حزبه الأمر ، وادلهم عليه الخطب ، ورأى المكروه منه قاب قوسين أو أدنى ، لم يذهل للأمر ، ولم يستسلم للمكروه ، فنهض وشمّر في حزم ،

(١) أنظر : ص ١٢٢ •

(٢) أنظر : ص ١٢٩ •

(٣) أنظر : الصفحة القادمة •

وطلع من بين الأهوال كما يطلع البدر من وراء الظلمات منيرا مشرقا ،
ولعل في هذا إشارة الى مكابدة الفتح ، ومكافحته للنجاة من الغرق والذي
أشار اليهما الوليد في قصيدة أخرى كما سنرى !

وبعد هذا الوصف الجميل ، والتعليل الرائع لهذه الحادثة ، ينهي
قصيدته بالدعاء للمدوح بالبقاء الحميد الذي يشيد به الشعر ، ويقول : انه
ليعجبه فقره الى المدوح ، ولولا محبته له لما أحب الفقر ! وانه ما زال
شاكرا المعروف له ونعمته عليه ، لا عذر له في جنود هذه النعمة والكفر
بصاحبها :

هل العيش الا أن تساعفنا النوى بوصل سعاد أو يساعدا الدهر
ويوم تثنت للمدواع وسلّمت بعينين موصول بلحظهما السحر
توهمتها ألوى بأجفانها الكرى كرى النوم، او مالت باعطافها الخمر

★ ★ ★

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدا اذا بقي الفتح بن خاقان والقطر
فتى لا يزال الدهر حول رباعه أياد له بيض وأفنية خضر
أضاء لنا أفق البلاد ، وكشفت مشاهده ما لا يكشّفه الفجر
بوجه هو البدر المنير نفى الدجى سناء ، وأخلاق هي الأنجم الزهر
غمام سماح ما يغبّ له حيا ومسعر حرب ما يضيع له وتر
وحارس ملك ما يزال عتاده مهندة بيض وخطية سمر
فذاك رجال باعد المنع رفدهم فلا الحمس ورد من نداهم ولا العشر
ألامت سجايهم وضنت أكفهم فاحسانهم سوء ، ومعرفتهم نكر
بقاء المساعي ان تمد لك البقا وعمر المعالي أن يطول لك العمر

★ ★ ★

لقد كان يوم النهر يوم عظيمة أطلت ، ونعماء جرى بهما النهر
أجزت عليه عابراً فتساجلت او اذيتّه لما طما فوقه البحر
وزالت أو اخي الجسر ، وانهدمت به قواعده العظمى ، وما ظلم الجسر

تحمل حلماً مثل قدس ، وهمّة
 ولولا دفاع الله عنك ، ومنّة
 لأظلمت الدنيا ولا نقضت حسنّها
 ولما رأيت الخطب ضنكاً سيّله
 صرمت فلم تقعد بحزمك حيرة الـ
 وما كان ذاك الهول الا غيبة
 كرضوى ، وقدرأ ليس يعد له قدر
 عليك ، وفضل من مواهبه غمر
 ولا نحتاً من افنانها الورق الخضراً؟
 وقد عظم المكروه واستفطع الأمر
 مروع ولم يسدد مذاهبك الذعر
 بدا طالعاً من تحت ظلّمثها البدر
 * * *

أراك بعين المكتسى ورق الغنى
 ويعجبني فقري اليك ، ولم يكن
 ووالله ما ضاعت أيار أيتها
 وما لي عذر في جحودك نعمة
 بالائك اللاتي يعدّها الشعر
 ليعجبني لولا محبتك الفقر
 الى ، ولا ازرى بمعروفها الكفر
 ولو كان لي عذر لما حسن العذر^(١)

وقد لا نغالي اذا ما زعمنا ان هذه القصيدة قد انطوت على شيء غير
 قليل من الجودة والروعة والبراعة ، ويخيل اليّنا ان البحري قد حدا في
 قصيدته هذه حدو رائيته في التوكل التي أنشأها بمناسبة عيد الفطر ،
 وكأنني به أراد أن لا يحرم الفتح من امثالها ، ففسج على منوالها كما
 ترى !

ولم يكتف البحري بهذه القصيدة التي صورّ فيها غرق الفتح
 ونجاته تصويراً مؤثراً بل أردفها بقصيدتين أخريين ، وجه احدهما الى
 المتوكل ، ووجه الثانية الى الفتح نفسه .

يد الله :

ففي القصيدة الاولى هنا الخليفة المتوكل بنجاة وليّه ومولاه وصديقه

(١) الديوان ٢/ ٨٤٤ - ٨٤٧ . جاء في أخبار البحري ص ٩٨ - ٩٩
 ان المبرد قال : « كأنني به (أي البحري) ينشد الفتح (وورد الابيات
 الثلاثة الاخيرة) فقال الفتح : أما هذا البيت فما وقع موقع ابياتك !
 قال : وكان الفتح من اعلم الناس بالشعر » .

من هذا الحدث الجلل الذي أشرف فيه على خطر عظيم ، فاعتبر النجاة عطية من الله أنعم بها على المتوكل • وكيف لا تكون هذه النجاة عطية عظيمة لعبد أخلص لسيده سرًا وعلانية ، ويبدو ان البحري كان حاضرًا ساعة الحادث بدليل قوله :

ولم أنسه يطفو ويرسب تارة ويظهر للرائين ثم يغيب

فالفتح قد تعرض في غرقه الى أمر عظيم - كما يظهر - فكان يطفو ويرسب ، ويظهر للعيون ثم يختفى تحت طيات الأمواج ، حتى كاد يئلف ، لولا ان تهيأ له أكار أنقذه وخلصه من موت محقق كما أسلفنا • ولكن البحري هنا يشير الى ان نجاته كانت بسبب دعوة الفتح وهو في محتته باسم سيده المتوكل ، حتى يقسم بانه لو دعاه وهو في مازق أكثر حرجاً مما كان فيه لفرجه عنه الخليفة المذكور ، ثم يعود فيقول كما قال في قصيدته السابقة ، لولا دفاع الله عنه ورحمته به لبيقت تبكيه العيون وتشتاقه القلوب ، ولكنه جاء بعد يأس وقنوط من انقاده ونجاته ، فحلت الأفراح ، وذاعت البشريات :

لتهنىء أمير المؤمنين عطية
يد الله في فتح اليك جميلة
وليک دون الاولياء محبة
وعبدك أخطته اليك نصيحة
رمته صروف النائبات فأخطأت
ولم أنسه يطفو ويرسب تارة
دعا باسمك المنصور والموج غامر
وأقسم لو يدعوك والخييل حوله
فلولا دفاع الله دامت على البكا
فجاء على يأس وقد كادت القوى
من الله يزكو نيلها ويطيب
وانعامه فيه عليك عجيب
ومولاك والمولى الصريح نسيب
وأرضاك منه مشهد ومغيب
كذا الدهر يخطي مرّة ويصيب
ويظهر للرائين ثم يغيب
لدعوته ، والموت منه قريب
لفرجها عنه أغرّ نجيب
عيون ولجت في الغرام قلوب
تقطع ، والآمال فيه تخيب

فيا فرحة جاءت على أثر ترحه وبشرى أتت بعد النعي تؤوب
بقيت أمير المؤمنين ، فأنما بقاؤك حسن للزمان وطيب^(١)
دفع الله :

وفي القصيدة الثانية مدح الفتح وهناه بنجاته من حادثة الغرق المذكورة ،
وكرر فيها ما ذكره في القصيدتين السابقتين ، فتمنى ان يكون لعدوه
ومكايده الحدث الواقع والحمام الفاجع ، وان ما حصل لم يكن الا عشرة
دعى لها بالاقالة ، وهي ليست غريبة فلربما كبا الجواد المتقدم ، ونبا الحسام
القاطع ، ولن يظفر الاعداء بزلة منه تفرحهم ما دامت عين الله ترعاه ،
ورحمته تكلؤه ، وان الامام (الخليفة) قلق الضمير على ما أصابه ، جزع
على ما اتابه ، وهل هناك أبلغ على الحزن الشديد من نشيج يعلو ، ومدامع
تفيض ، ثم ان ما أصابه كان فضيلة دلت على كرم جوهره ، وصلابة عوده
وشجاعة قلبه ، فلم يتغير لونه ، ولا خارت عزيمته ، ولا ارتعدت فرائضه ،
وانما برز من غمرات الموت : رابط الجأش ، مشرق الجبين ، فكان ذلك
نباً كبت الحاسدين ذبيعه ونهه :

بعدوك الحدث الجليل الواقع ولمن يكابدك الحمام الفاجع
قلنا : لعل ما عثرت ولا تزل نوب الليالي وهي عنك رواجع
ولربما عثر الجواد وشأوه متقدّم ، ونبا الحسام القاطع
لن يظفر الأعداء منك بزلة والله دونك حاجز ومدافع
احدى الحوادث شارفتك فردّها دفع الاله ، وضعه المتتابع
دلت على رأى الامام وانّه قلق الضمير لما أصابك جازع
هل غاية الوجد المبرح غير ان يعلو نشيج او تفيض مدامع ؟
وفضيلة لك ان منيت بمثلها فنجوت متدأ وقلبك جامع
ما حال لون عند ذاك ولا هفا عزم ، ولا راع الجوانح رائع
حتى برزت لنا وجأشك ساكن من نجدة ، وضياء وجهك ساطع

(١) الديوان ٢٠٣/١ - ٢٠٤

خبر يسوء الحاسدين اذا بدا وأعاد فيه محدث او سماع
سارت به الركبان عنك ، وربما كبت الحسود لك الحديث الشائع^(١)

وهكذا يتخذ البحري من هذا الحادث مادة للاشادة بالفتح ووصف
ما اتابه من أمر كاد يودي بحياته ، وقد تفنن - كما رأيت - في تعليل
انخساف الجسر ، كما أبدع في وصف جهاد الفتح ومكابذنه الغرق حتى
نجا منه ، ثم صور قلق الخليفة عليه والمحين له ، كما ندّد بأخصامه
ومناوئيه ، كل ذلك بلفظ رشيق ، وتشبيه رائع ، وقوة أسر ، وجودة
سبك ، واحتفال بالموسيقى والتقسيم .

مناجزته للأسد :

وفي غضون هذه السنة - على ما يبدو - وهي سنة ٢٤٦ هـ يعترض
الفتح احد أسود حديقة المتوكل للوحوش في سامراء^(٢) ، فينبى له الفتح
بسيفه ويجهز عليه ، وتهز هذه الحادثة شاعرية البحري فيخلدها بقصيدة
رائعة تعد من عيون شعره ، ومن فرائد الشعر العربي أيضاً في هذا الباب .
وقد استهلها كالعادة بالغزل الذي جرى عليه في عموم شعره ، وهو غزل
أحسن ما يقال فيه انه غزل بحري في رفته وعدوبته وسلاسته ، ثم دلف
بعد التمهيد الى الثناء على المدوح فنصح الممتعين ان يردوا حوض الفتح ؛
لانه معدن الجود ، ومنبع الكرم ، ولانه العارض الشجاج ذو الجود
والعطاء ، وهو يجمع الى ذلك شجاعة مشهودة في حومة الوغى ، ورزانة
عند خفوف الحلوم ، ووقاراً عند ادلهمام الخطوب ، وهو عنيد اذا عوزز
في الملمات ، سهل اذا أخذ بالمين لا ينقصه الحزم ساعة الحزم ، ولا يدخله
الهوج اوان الكف . وبعد هذا الاطراء والتمدح بصفات المدوح وشمائله

(١) الديوان : ١٣٠٧/٢ - ١٣٠٨ .

(٢) للوقوف على هذه الحديقة يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء

في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٠٢ .

يصور لقاءه للاسد الذي وصف عربيه ومرتاده وصفاً دقيقاً شاملاً ، كما وصف المعركة بينه وبين الفتح وصفاً رائعاً مشبعاً بالحركة حركة الليث الغاضب الذي يُدلّ بشجاعته وقوته ورهبته ، وحركة الفتح التي لا تقل عن حركة ذلك الليث عنفاً وبسالة وادلالاً ، حتى ليخل الينا ان البحري كان حاضراً هذه المعركة وواقفاً على تفاصيلها ، ونحن لا نريد ان تسترسل في وصف هذه الحادثة وانما يحسن تركها كما وصفها الشاعر لثلاثا نفسد عليه جمال الوصف وروعة الاسلوب وسحر البيان •

وبعد ان انتهى من الوصف انتقل الى الاعتراف بفضل الممدوح وحسن صنيعه ، وكثرة عطاياه ، حتى الآن له الأيام بعد شدنها ، وعاتب له الدهر الزارى فأرضاه ، وأبسه النعمى التي غيرت عليه أخاه ، ولهذا كله فهو مدين لولى نعمته هذا برداً جميلة وشكر معروفه ، وتخليده بقوافٍ سائرة ، تشدو بها الركبان في مشارق الارض ومغاربها :

أجدك ما ينفك يسري لزينبا
سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى
وما زارنى إلا ولهت صباية
خيال اذا آب الظلام تأوَّبا
هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
اليه ، والا قلت : أهلاً ومرحباً
* * *

أقول لركب معتفين تدرعوا
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه
هو العارض الشجاج أخضل جوده
على عجل قطعاً من الليل غيها
أعم ندى فيكم وأقرب مطلبها
وطارت حواشي برقه فتلها
وقور اذا ما حادث الدهر أجلبنا
فان جثته من جانب الذل أضجبا
يلاحظ أعجاز الأمور تعقبها
فتى لم يضيع وجهه حزم ولم يبت
حرون اذا عاززته في ملمة
رزين اذا ما القوم خفت حلومهم
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه
هو العارض الشجاج أخضل جوده
* * *

وما نغم الحساد إلا أصالة
وقد جربوا بالامس منك عزيمه
لديك ، وفعلأً أريجياً مهدباً
فضلت بها السيف الحسام المجرّباً

يحدّد ناباً للمساء ومخلّبنا
 منيع تسامى غابه وتأنّبا
 ويحتلّ روضاً بالأباطح معشبا
 يبصرّ ، وحوذاناً على الماء مذهبا^(١)
 عقائل سرب او تقنّص ربربا
 عيطاً مدمى او رميلاً مخضباً^(٢)
 الى تلف او يثن خزيان أخيبا
 له مصلتاً عضباً من البيض مقضباً^(٣)
 عراقاً اذا الهيابة النكس كذباً^(٤)
 من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
 رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
 وأقدم لماً لم يجد عنك مهربا
 ولم ينجبه ان حادعتك منكباً
 وكنت متى تجمع يمينيك تهتك الضريبة ، أو لا تبق للسيف مضربا

* * *

وعاتبّت لي دهري المسيء فأعتابنا
 عليّ ، فأضحى نازح الودّ أجنبنا
 إذا أنا لم أصبح بشكرك متعبنا
 لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكبنا
 وسارت به الركبان: شرقاً ومغرباً^(٥)

غداة لقيت الليث ، والليث مخدر
 يحصّنه من نهر نيزك معقل
 يرود مغاراً بالظواهر مكتباً
 يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً
 اذا شاء غادى عانة او غدا على
 يجرّ الى أشباله كل شارقٍ
 ومن يبع ظلماً في حريمك ينصرف
 شهدت لقد انصفته يوم تنبرى
 فلم ارَ ضرغامين أصدق منكما
 هزبر مشى يبغي هزبراً واغلب
 أدلّ بشغب ثم هالته صولة
 فأحجم لما لم يجد فيك مطعماً
 فلم يقنه ان كرّ نحوك مقبلاً
 وكنت متى تجمع يمينيك تهتك الضريبة ، أو لا تبق للسيف مضربا

ألنت لي الأيام من بعد قسوة
 وألبستني النعمى التي غيرت أخى
 فلا فزت من مرّ الليالي براحة
 على أن أفواف القوافى ضوامن
 ثناء تقصّى الارض : نجداً وغائراً

(١) يبصرّ : يبرق ويتلألأ .

(٢) العبيط : الذبيحة تنحر وهي سمينة من غير علة . الرميل :

الملطخ بالدم .

(٣) العضب : السيف القاطع .

(٤) النكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة .

(٥) الديوان ١٩٦/١ - ٢٠١ .

والحق ان وصف البحري للاسد من الجودة والروعة والنفاسة هو الذي حمل الجرجاني على القول بعد كلامه على لامية المتنبى في الاسد أيضاً : « ولولا أبيات البحري في هذا المعنى لعددت هذه من أفراد ابي الطيب ، ولكن البحري قال يصف قتل الفتح بن خاقان اسداً عرض له (واورد - ١١ - بيتاً) من قوله : « غداة لقيت الليث ... الى قوله : وكنت متى تجمع يمينك » فاستوفى المعنى وأجاد في الصفة ووصل الى المراد » (١) .

اعتذاره وعتابه للفتح :

ويبدو ان البحري على الرغم من مهارته في التزلف ، وحذقه وسائل التمدح ، ومرونته في التقلب ، ومكنته في اجتياز ما يعقور سميله من عقبات ، لم يستطع ان يفلت من حبال الأخصام ، ومكائد المناوئين ، ومن فساد الطوية ، والتدنى الخلقي الذي كان سائداً بعض جوانب ذلك المجتمع .

وان الشاعر بعد مضي حوالي ثلاث عشرة سنة في صحبة الفتح والانقطاع اليه ، والاشادة بخلاله وصفاته وأعماله وما كان يطرأ عليه من أمور وأحوال ، حتى صار من خواصه يشفق اليه في الناس (٢) ، أقول بعد كل هذه الأعوام من الصفاء والمودة والوئام ، تظهر في سماء صفائهم خيوط سوداء ما تلبث ان تحلك وتدكن حتى تستحيل ظلاماً دامساً ، وحجاباً صفيقاً يحولان بين الشاعر وبين ممدوحه والذي يدل على تأخر ما حدث بينهما قول البحري من قصيدة له في عتابه للفتح ، يشير فيه الى انه قد شارف الاربعين من عمره ، واذا صح ان ولادته كانت في سنة ٢٠٦ هـ فمعنى هذا ان الخلاف بينهما كان في غضون سنة ٢٤٦ هـ ، يقول :

ومن يطلع شرف الأربيع - من يحيى من الشيب زوراً غريباً (١)

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجاني ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) انظر اخبار البحري ص ٨٤ .

(٣) الديوان ١٥٠/١ .

ولو شئنا ان نتلمس الاسباب التي عملت عملها في تكدير هذا الصفاء الذي استحال الى قطعة تامة بين الشاعر وولي نعمته لوجدنا ان ما قيل في ذلك ما يزال ملفعاً بغلالة من الظنون والشكوك والترجيح ، لم يصل - فيما نحسب - الى القطع او اليقين .

فالصولي يذكر في أخبار البحري سبين لغضب الفتح على الشاعر واطراحه له ، يقول : « وسألت أبا الغوث عن سبب غضب الفتح على ابيه الموجب لهذه الاعتذارات » فقال : استبطأ برّه في وقت من الاوقات فبلغه انه هجاه وثلبه ، وكان يحسد على مكانه منه فيتكذب عليه عنده .

وأما محمد بن يحيى بن ابي عباد فحدثني أن بعض الكتاب الأجلاء جعل للبحري الف دينار على ان يخبّب خادماً للفتح ، فخبّبه ، فغضب عليه . قال : وفي شعر ابن ابي طاهر ذكر لهذا ، وقد هجا البحري به (١) .
فالسبب الثاني - كما ترى - يشير الى افساد البحري غلاماً للفتح لقاء مبلغ كبير من المال ، ويبدو ان هذا السبب قد حمل البعض على التعليق عليه بشيء ينمّ عن القبول الخفي له ، فهو يقول : « والبحري مولع بافساد الغلمان ، وهو مشهور بميله اليهم » (٢) .

ويبدو لنا انه - على الرغم من الاخبار التي تشير الى ميل الشاعر الى هذا التردي الخلفي الذي كان شائعاً في عصره ومجتمعه ، فاننا نستبعد ان ينزلق البحري وهو الذي كان يقدر منزله لدى الفتح حق قدرها - الى هذا المهوى الذي لا يخلو من الشره المادي والتدني الخلفي !

وأكبر الظن ان الشاعر كان مكثيفاً بما كان يمنحه اياه الفتح من هبات مترادفة وعطايا متصلة اذا صح ما اعترف به له في تضاعيف مدائحه فيه . وعلى هذا فان ما أتهم به الشاعر من افساد غلام الفتح - كما نظن -

(١) أخبار البحري ص ٧٧ - ٧٨ والتخيب : افساد الرجل عبداً

أو أمة لغيره .

(٢) أنظر : أخبار البحري ص ٧٨ هامش ٢ .

لا يعدو ان يكون ضرباً من التلفيق الذي الصقه به بعض مناوئيه وخصومه •
وأما الشاعر نفسه فيخبرنا اكثر من مرّة بجهله للسبب الذي أغضب
الفتح عليه ، فهو يقول :

ولو كنت أعرف ذنباً لما تخالجنني الشك في أن أتوبا

ويقول :

أعد نظراً فيما تسخطت هل ترى مقالاً دنيّاً ، او فعلاً مذمّماً
ولم أعرف الذنب الذي سؤتني له فأقتل نفسي حسرة وتندماً (١)
وحين يستغلق على الشاعر معرفة السبب لهذا الاطراح يرفع عقيرته
صارخاً :

تناه العدى عني فأصبح معرضاً وأوهمه الواشون حتى توهما (٢)
والغالب على الظن ان السبب في غضب الفتح هذا يعود - كما يرى
الشاعر - الى سعاية بعضهم لديه ، وتغيير قلبه عليه ، مما حمله على جفائه
واطراحه •

ولكن ماذا كان وراء هذه القطيعة ؟ وماذا جناه البحثري من جرائمها ؟
وما ذا أفاد الأدب منها ؟ من غير شك انها أصابت الشاعر بخسارة مادية ،
اذ حيل بينه وبين الوصول الى ممدوحه ، ولكنها عادت على الادب بقصيدتين
ومقطعة في العتاب والاعتذار بلغت درجة عالية من الروعة والاجادة
والاحسان •

عديم الضريب :

فهذه احدى القصيدتين اللتين أنشأهما في عتاب الفتح ، وفيها يشير
الى انه قد شارف الاربعين من العمر ، ثم يقول : اختبر طبائع من رأهم

(١) الديوان ١٩٨٥/٣ •

(٢) نفسه ١٩٨٣/٣ •

من أهل زمانه فلم يجد للفتح نظيراً ولا مثيلاً ، وقد صهرته الحادثات فأبدت له منه ذا عزم وشيك ، ورأى حصيف ، وكان يجمع بين خلتين : بين السماح المرتجى ، وبين البأس المهيب ، فهو كالسيف - ينجد - في الشدة ، وكالبحر - يرقد - في الرجاء ، وهو فداؤه في الخطوب والنوائب ، وإن كان رأيه قد تغير فيه فاستحال البشر قطوباً وآلت اموره الى الخيبة ، وكلما حاول ان يستريب شيئاً يأتيه به ، يرده قدره واكباره اياه عنه ، حتى ليكره التمادي ولو على سبيل الخديعة والتمويه ، لخوفه من التردى في مهاوي المنون ، ولهذا فانه يعود الى ظنه مكذباً اياه بصحة سخطه عليه ، وإن كان متحققاً من صدق ظنه في ذلك ، ولا أدل على صحة غضبه وسخطه عليه من ذمه الزمان ، وشكواه الخطوب ، وانه ليجد نفسه مضطراً لأن يلتجئ الى لومة يبين فيها ما يداخله ويخامره - سواء كان مخطئاً في ذلك أو مصيباً ، فهل يجوز ان يحرم من عطائه وسببه بعد ان كان مغموراً بهما ، مشمولاً بفيضهما ، فهو اليوم يبيع أحبته كما تباع السّوام ، ويفتقدهم ويحزن عليهم الواحد تلو الآخر ، وليس سخطه هذا عليه الا الفراق الذي يفيض الدموع ويشجى القلوب ، ولكن كيف يتوب ويطلب الصفح وهو لا يعرف الذنب ولا مصدره ولا سببه ؟ فليس له حيلة اذن الا الصبر في انتظار رضاه بعد ذلك الرضا او قرب • وليس له الا ترقب صحة رأيه فيه ، وانتظار عطفه عليه :

وحملت عندك ذنب المشـ يب ، حتى كأنى ابتدعت المشيا
ومن يطلع شرف الاربعـ من يحيى من الشيب زوراً غريباً
بلونا ضرائب من قد نرى فما إن رأينا لفتح ضريباً
هو المرء أبدت له الحادئا ت عزماً وشيكاً ورأياً صلياً
تقل في خلتى سوؤدد : سماحاً مرجى ، وبأساً مهياً
فكالسيف إن جثته صارخاً وكالبحر إن جثته مشياً

فدينك من اي خطب عرا
 وإن كان رأيك قد حال في
 وخيت أسبابي النازعا
 يربني الشيء تأتي به
 اكذب ظني بان قد سخط
 ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
 ولا بد من لومة أتحمي
 أصبح وردى في ساحتى
 أبيع الأجرة بيع السّوام
 ففي كل يوم لنا موقف
 ولو كنت أعرف ذنباً لما
 سأصبر حتى الأقى رضا
 أراقب رأيك حتى يصحّ

حيرة :

وأعقب البحرى عتابته واعتذاريته السابقة بمقطعة أشار فيها الى سوء
 حاله واضطراب أمره ، وشماتة الأخصام به ، وانه ليتساءل بمرارة وحزن
 هل ان ممدوحه قد تخلى عنه فعلاً ، واذا كان الأمر كذلك ، فماذا سيكون
 موقفه ازاء من سيسأله عن حاله ؟ وماذا سيقول للشامتين الذين يسرهم
 ما آل اليه أمره ، او للمنكرين المتعجبين من صيرورته الى هذه الحالة ؟
 أيقول لهم انه مغضوب عليه ؟ وكيف يصدقون ذلك ، وعهدهم به لم يذنب
 ولم يعتذر ؟ أم هل يقول لهم ان حاله تخلفت لديه ، ومنزلته ساءت عنده ،
 ومن ذا سيقربه ويستصحبه اذن ؟ ولهذا كله فسنتحى بعده جانب الوحدة ،
 وسيتقى منظوياً على نفسه ، يتجرّع غصص الآلام ، ومرارة الحرمان ،

(١) الديوان : ١٥٠/١ - ١٥٣ .

وسيهجر الشعر ويرفضه ، لانه لا يجد خلاوة التمدح الافية ، فهو يقول :
 أمخلفي يا فتح أنت وظاعن في الظاعين ، وشاهدو مغيبي ؟
 ماذا أقول اذا سلت فحظني صدقي ، ولم يستر عليّ تكذبي ؟
 ماذا أقول لشامتين يسرهم ما ساءني ، ولنكر متعجب ؟
 أقول : مغضوب عليّ ؟ فعلمهم أن لست معتدراً ولست بمذنب
 أم هل أقول : تخلفت بي عنده حال فمن ذا بعده مستصحبى
 سأقيم بعده ، إن أقمت بغصة في الصدر لم تصعد ولم تنصوب
 وسأرفض الاشعار ان مذاقها بمديح غيرك في فمي لم يعذب
 لا أخلط التأميل منك لغيره أبداً ، ولا ألقى دنى المكسب (١)

الرضا من الغنيمة بالاياب :

وحين يجد البحري ان ما عاتب به الفتح واعتذر به اليه لم يكن ذا
 أثر في عدوله عن الصدود والاعراض ، يعود كرهة نالته فينسج قصيدة
 عتابية أخرى تمثل - فيما نحسب - قمة شعره العتابي الذي اشتهر به ،
 لما فيها من دقة الأحكام ، وجميل المحاكمة ، ولطف الاعتذار ، وبراعة
 التصل مما رمى به ، وعزّة النفس التي لا يريد اذلالها او الحط منها •
 والقصيدة تبدأ بالغزل الذي فيما يخيل لنا ان الشاعر نحا فيه منحى
 قد لا يخلو من العمد والقصد الى شيء من الابعاء نحو ما كان بينه وبين
 ممدوحه من التباعد والصدود ، فهو بعد التمهيد التقليدي ينتقل الى
 مقصده ، فيتساءل - على لسان محبوبته بعد فراقه لها ، يقول : هل سيرضى
 الفتح فيكون في رضاه التمام شمله واجتماع أمره ، واتما أيها الخليلان ،
 لا تلوماه على فيض عبرة أبت تباريح الوجد الا فيضها وسجومها ، ولا تعجبا
 من فجيرة الفراق ، فالحب لا يخلو من الحلاوة والمرارة ، ثم من يعذره
 من الأيام التي كدرت صفو مشاربه ، وأبدلت سعوده نحوساً ، وأكسبته

(١) نفسه ١٤١/١ •

سخط امرىء استحال داجياً كالليل البهيم • ولكن الشاعر حاول ان يخفف من حدة غضب المدوح ، ويصور حالته معه ، وهو ازوراره عنه ، واطراحه اياه ، ولعله كان يأمل في ذلك التلطيف والتلين من شدة سخط الفتح عليه ، فهو يقول : انه ظهرت عليه بعض أمارات الرضا ، ولكنها أمارات تنطوي على بقية من العتاب ، اوشكت أن تنقضي وتنقطع ، ثم يستطرد الى وصف حالة الفتح حين يكلمه وما يطرأ على لحظه وقوله من حركات وجمجمة ، فهو ان وقع نظره عليه رده عنه كليلاً وان كلمه أجابه بشيء من الجمجمة التي لا تبين ولا تفصح ، وكأنه يريد بذلك دفعه والتخلص منه ضيقاً وتبرماً ! وما زال الأعداء يثنونه عنه ، والوشاة يوهمونهم ويوغرون صدره ضده ، حتى أخذ ما رمى به عنده سبيله الى نفسه وقلبه ، فأعرض عنه وأطرحه ، وتحولت سهولته وعورة ، وطلاقة جهومة ، ثم يتساءل هل ان من أحسن اليه وانعم عليه يتغى الاساءة عنده ، والانتقام منه ؟ ان هناك من يخوفه من سوء رأيه فيه ، وليس هناك خوف سوى خشيته من جوره وظلمه ، وانه ليعيده ويكبره وينزهه من ان تكون خشيته له من غير ذنب اذنبه ، او جرم أجرمه ؟ ثم أليس هو الموالي فيه تدبيح القصائد المتلازمة كتلاً لؤلؤ النجوم في الليل البهيم ، والتي تحمل في ثناياها ثناء كالروض المزهري ، والوشي المسهم ، ولو انه حاول توقيف شعره وتثريبه واعظم ما أصاب مدائحه فيه من ضيم وحيف ، لربأ بنفسه ان يتخضع ، أو يتدنى بطلب الصفح والمعدرة وليأت ما يأتي وليكن ما يكون ، ولكنه ينحو هذا المنحى من التلطف والتبسط والتضرع لأكباره مقامه واستحيائه منه ، أن يكون كالمذل والمستعظم ؟

والشاعر بعد ان ضجر وتضايق نفس بعض الشيء عما يكابده من الألم والمرارة ، في الايات الاربعة السابقة التي حاول فيها - كما رأيت الاعتزاز بشعره ونفسه وتبيان سبب الحاله في الضراعة والتماس الصفح والمغفرة •

ثم يعود فيطلب من الفتح ان يعيد النظر في اسباب سخطه وغضبه
عليه فهل سيجد هناك ما يؤاخذ عليه من عمل ذميم ، او قول ذنيء ؟

ويتراءى له ان العراق - الذي كان يأمل في ربوعه الغنى والثراء -
قد ضاق به ، وان النوائب تشير عليه ان يرضى من الغنيمة بالاياب - الى
السلام سالماً ثم يعود الى التنصل مما رمى به والى جهله الاسباب لهذا السخط ،
والتذكير بسالف عهده معه ، وخالص ودّه له ، وسيرورة شعره فيه ، فأكبر
ظنه فيه ان لا يحمله الظن على ان يستحل حرمة ما بينهما من ذمام وعهد ،
وان الحياء ليمنعه ان يذهب في سوء ظنه به كل مذهب ، او يشط به في
ركوب عظامم الأمور ، وكيف يعمل هذا وهو ما زال جاهلاً بحقيقة
السخط ، وسبب الاطراح ، فلو علم بهما لما ترددت في قتل نفسه حسرة
على ذلك وتندماً ، وحتى لو صح ما سعى به اليه او توهمه وظنه فيه ، لما
كان من العجب ان يكون الشاعر قد لؤم في عمله ، والممدوح قد كرم في
عفوه وغفرانه ، ثم هل يذكره بما كان بينهما من عهد وثيق وود خالص
لا شائبة فيه او ما دبجه فيه من غرر القصائد التي طبقت بشهرتها ودويها
مشارك الارض ومغاربها ؟ ومع كل هذا فهو يقر بذنبه الذي لم يرتكبه ،
وجنايته التي لا يعرف سببها ، وان كان يحسب انه الوم منه في ذلك ، وهو
لا يتبغى الا رضاه . وهذا ليس بالغريب على مثله ، لشهرته بجميل
الفعال وكرم النفس ، وسجاجة الخلق ، وهل الناس - عنده - سوى قمتين :
فئة تمثل الاصفياء ، فتعتم بجزيل نعمته ، ووفرة أعطيته ، وأخرى تمثل
الاعداء ، فيشيقها بقوة بأسه ، وجراءة نفسه :

يهون عليها أن أبيت متيماً	أعالج وجداً في الضمير مكتماً
وقد جاورت أرض الأعداء وأصبحت	حمى وصلها مذ جاورت ابرق الحمى
بكت حرقة عند الوداع ، واردفت	سلواً نهى الاحشاء ان تصرما
فلم يبق من معروفها غير طائف	ملم بنا وهناً اذا الركب هوما

يكداد وميض البرق عند اعتراضه
ولم أنسها عند الوداع وثرها
وقالت هل الفتح بن خاقان معقب
خليلي كفا اللوم في فيض عبرة
ولا تعجبا من فجعة الين ، انى
عذيري من لايام رنقن مشربي
وأكسينتي سخط امرىء بت موهنا
تبلج عن بعض الرضا ، وانطوى على
إذا قلت يوما : قد تجاوز حدها
وأصيد ان نازعته اللحظ رده
ثناه العدا عنى فأصبح معرضا
وقد كان سهلا واضحا فتوعرت
أمتخذ عندي الاساءة محسن
ومكتسب في الاساءة ماجد
يخوفني من سوء رأيك معشر
أعيدك أن أخشاك من غير حادث
ألست الموالي فيك نظم قصائد
ثناء كأن الروض منه منورا
فلو أنتي وقرت شعري وقاره
لاكبرت أن اومي اليك باصبع
وكان الذي يأتي به الدهر هينا
ولكنني أعلى محلك أن أرى
أعد نظرا فيما تسخطت هل ترى
رأيت العراق أنكرتي وأقسمت

يضيء خيالا جاء منها مسلما
سوابق دمع أعجلت ان تنظما
ارضى فيعود الشمل عنا ملاما
أبى الوجد الا أن تفيض وتسجما
رأيت الهوى طعمين : شهدا وعلقما
ولقيني نحسا من الطير أشاما
أرى سخطه ليلا مع الليل ، مظلما
بقية عتب شارفت ان تصرما
تلبث في أعقابها وتلوما
كليلا ، وان راجعته القول جمجما
وأوهمه الواشون حتى توهمها
رباه ، وطلقا ضاحكا فتجهما
ومنتقم منى امرؤ كان منعما
يرى الحمد غنما والملامة مغرما
ولا خوف الا أن تجور وتظلما
تبين او جرم اليك تقدما
هي الانجم اقتادت مع الليل أنجما؟
ضحى ، وكان الوش فيه مسهما
وأجلت مدحي فيك ان يتهضما
تضرع أو أدنى لمعدرة فما
على ولو كان الحمام المقدما
مدلا ، واستحيك أن أتعظما
مقالا دنيا أو فعالا مذمما
على صروف الدهر ان أشاما

فصار ، رجائي أن أؤدب مسلماً
تذكر بعض الانس او تتذمما
تحلل بالظن الذمام المحرماً
بعيدا ، ولم أركب من الامر معظماً
فأقتل نفسي حسرة وتندماً
لما كان غروا أن ألوم وتكرماً
تناسيه ، والود الصحيح المسلما
وأوجد في أعلى البلاد وأتهمها
اليك ، على أني اخالك ألوما
به ، ولك العتبي على وأنعمها
وان صنع المعروف زاد وتما
قرنت بها بؤسى ، وهاتيك أنعمها
فأضرمته ناراً ، وأجريتها دماً^(١)

وكان رجائي أن أؤدب مملكاً
ولا مانع مما توهمت غير أن
وأكبر ظني أنك المرء لم تكن
حياءً ، فلم يذهب بي الغي مذهبا
ولم أعرف الذنب الذي سوّتي له
ولو كان ما خبرته او ظننته
اذكرك العهد الذي ليس سوّدا
وما حمل الركبان شرقاً ومغرباً
أقر بما لم أجنه متصلاً
لي الذنب معروفاً وان كنت جاهلاً
ومثلك أن أبدأ الفعّال أعاده
وما الناس الا عصبتان : فهذه
وحلة أعداء رميت بعزيمة

وأكبر الظن ان ما مرّ بنا من عتاييات الشاعر ، كان قد لقي صدى
حسناً لدى الفتح ، فرضي عنه ، واستأنف علاقته به من جديد ، على اننا لم
نجد في شعر البحثري ما يشير الى كيفية رضاه عنه ، وما أسبغ عليه من نعمة
بعد زوال القطيعة ، واستئناف العلاقة •

والحق ان البحثري قد نحا في عتابه منحى لطيفاً طريفاً ، حتى أصبح
يعد في طليعة شعراء العتاب ومتقدميهم ، وقد اعترف له بهذا الفضل كثير من
القدامي والمحدثين •

فقال الصولي : « سمعت عبدالله بن المعتز يقول : لو لم يكن للبحثري
من الشعر الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى ، فليس للعرب سينية
مثلها ، وقصيدته في وصف البركة : ميلوا الى الدار من ليلى نحيها •

واعذاراته في قصائده الى الفتح بن خاقان التي ليس للعرب بعد اعتذارات
النابعة الى النعمان لكان أشعر الناس» (١) .

وقال ابن رشيقي : « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ
الصناعة وسيد الجماعة ابو عبادة البحرني (واستشهد على ذلك بمثالين من
قصيدته : البائية والميمية في عتابه للفتح) » (٢) .

وقال ابن الاثير : « وكذلك فاعلم ان النون الثقيلة متصلة بهذا
الباب ، فاذا استعملت في موضع فانما يقصد بها التأكيد : فمما جاء منها قول
البحرني في معاتبه الفتح بن خاقان :

هل يجلبنّ الىّ عطفك موقف ثبت لديك أقول فيه وتسمع
الايات الى قوله :

الإيّا يكن ذنب فعدل واسع

وهذه ايات حسنة مليحة في بابها ، يُمحي بها حرّ الصدور ، ويستمال
بها صعر الخدود ، وانما ذكرتها بجملتها لكان حسنها » (٣) .

الواقع ان الايات التي تكلم عليها ابن الاثير لم تكن في الفتح وانما
كانت في الخليفة المتوكل (٤) . ويبدو ان الذي أوهم ابن الاثير في ذلك هو
اشتهار البحرني بعنانياته للفتح .

وقال بعض المحذنين في عتابه : « اما العتاب فله فيه اليد الطولى ، ويرى
ابن رشيقي انه أحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف ويلقبه بشيخ الصناعة
الشعرية وسيد الجماعة ، وقد أصاب ابن رشيقي فني عتابه نعومة حريرية

(١) أخبار البحرني ص ٧٢ - ٧٣ ، وانظر : ص ٧٧ من المصدر
نفسه .

(٢) العملة لابن رشيقي ١٦٠/٢ - ١٦١ .

(٣) المثل السائر ٢٤٨/٢ - ٢٤٩ .

(٤) أنظر : ص ٢٣٩ من هذا البحث .

فلما تجدها في سواء» (١) • ثم ساق عدداً من الامثلة على ذلك ، ولكنه
- وهذا موطن الغرابة - لم يتمثل بشيء مما قاله في الفتح الذي هو مدار
كلام ابن رشيقي كما رأيت •

فالبحتري اذن كان من المبدعين في هذا الباب ، ومشهود له بين شعراء
العربية بالسبق واليد الطولى !

ونرى من المستحسن ان نثبت هنا ما ذكره ابن رشيقي في تعريف
العتاب وطرائق الشعراء فيه ، لنرى مبلغ تأثير البحتري فيه ، ومدى استخدامه
لطرأته ، يقول : « العتاب - وان كان حياة المودة ، وشاهد النوفاء - فانه باب
من أبواب الخديعة ، يسرع الى الهجاء ، وسبب وكيد من أسباب القطيعة
والهجاء ، فاذا قلّ كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، واذا كثر خشن
جانبه ، وثقل صاحبه ، وللعتاب طرائق كثيرة ، وللمناس فيه ضروب مختلفة ،
فمنه ما يمازجه الاستعطف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج
والانتصاف ، وقد يعرض فيه المنّ والاجحاف - مثل ما يشركه الاعتذار
والاعتراف •

وأحسن الناس طريقتاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة
ابو عبادة البحتري •••» (٢) •

ولو رجعنا الى عتاب البحتري في الفتح لوجدناه ينطبق تمام الانطباق
على ما أشار اليه ابن رشيقي ، فالشاعر لم يكثر من عتابه ، كما علمت ، ولهذا
لم يثقل ظله ، ولم يخشن جانبه ، كما نظن •

وقد طرق في عتابه ما أشار اليه ابن رشيقي ايضاً ، ففي عتابه مزيج من
الاستعطف والاستئلاف ، وفيه شيء من الاحتجاج والانتصاف ، ولم يخل

(١) امراء الشعر في العصر العباسي لأنيس المقدسي ص ٢٤٦ •

(٢) العمدة ١٦٠/٢ •

من ملامح المنّ والاجحاف ، واكثر فيه من الاعتذار والاعتراف .. وكانني
بابن رشيق قد استهدى بعتاب البحترى في الفتح عند تعريفه للمعتاب آنف
الذكر !

مفتاح باب الندى :

وهذه مقطوعة من أربعة ابيات تنسب للبحترى في الفتح، وكان الاولى
بها ان تذكر ضمن مدائحه الاولى للفتح ، ولكننا أرجأناها الى اعقاب الموضوع
لشكوك التي تساورنا في نسبتها للشاعر ، فقد ذكر ياقوت في ترجمة الفتح
ابن خاقان قصة هذه الأبيات منسوبة الى ابي بكر محمد بن جعفر الخرائطى
الذي قال : « حدثنا العباس بن الفضل الربيعي ، حدثنا علي بن الجهم قال :
اني لعند المتوكل يوماً والفتح بن خاقان حاضر اذ قيل له : فلان النخاس
بالباب ، فأذن له فدخل ومعه وصيفة ، فقال له أمير المؤمنين ، ما صناعة هذه
الوصيفة ؟ قال : تقرأ بالألحان ، فقال الفتح ، اقرئي لنا خمس آيات فاندفعت
تقول : « واورد الأبيات وبينها وبين ابيات الديوان خلاف في بعض الألفاظ » .
قال : والله لقد دخل المتوكل من السرور ما قام الى الفتح فوقع عليه يقبله ،
ووثب الفتح فقبل رجله ، فأمره أمير المؤمنين بشرائها ، وأمر له بجائزة
وكسوة وبعث بها الى الفتح ، فكانت أحظى جواريه عنده . فلما قتل الفتح
رثته بهذه الأبيات « واورد لها ثلاثة أبيات في رثائه (١) » .

وعلق شارح الديوان على هذه القصيدة بعد ان ذكرها مخرومة اذ لم
يشر الى رثاء الجارية للفتح بعد وفاته - بقوله : « ولعل علي بن الجهم قد
أراد بهذه القصة صرف هذه المقطوعة عن ان تنسب للبحترى ، لما كان بين
الشاعرين من خصومة .. » ولا ندرى هل ان هذه الأبيات من الجودة
والروعة بحيث لو نسبت الى غير البحترى لرفعت من مكانته الشعرية ،
ولحطت من مكانة البحترى ؟ ولم لم ينسبها ابن الجهم لنفسه كما فعل - كما

يقال - في مقطوعة أخرى للشاعر^(١) ، على انه يخيل اليها ان هذه الأبيات في روحها واسلوبها أقرب الى ما ذكره ابن الجهم عنها ، وأبعد عن ان تكون من شعر البحتري والايات هي :

قد جاء نصر الله والفتح	وشق عنا الظلمة الصبح
وزير ملك ورجا دولة	شيمته الانعام والصفح
كالليث الا انه ماجد	كالغيث الا انه سمح
وكل باب لننقى مغلوق	فانما مفتاحه الفتح ^(٢)

(١) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٩ هامش ١٢٣

(٢) الديوان ٤٧٤/١ •

الفصل الثالث

البحثري والمتوكل

المتوكل :

بعد ان وطّد البحثري صلته بالفتح - كما أسلفنا - وحصل على جوائز وحظى لديه بمكانة مرموقة ، حاول ان يتقدم خطوة أخرى الى الأمام ، فالتمس من ممدوحه ان يقدمه الى الخليفة ، لعله يتسنى له ان يحظى لديه بمثل ما حظي عنده ، وقد أشرنا الى الحاح الشاعر في طلبه هذا ، حتى تهياً له أخيراً ، أن يصل الى مبتغاه ، ويظفر بمطلبه مما سنشير اليه فيما بعد ! •

ولما كان الشاعر قد حظي لدى متوكل بما لم يحظ بمثله لدى خليفة آخر إذا ما استثنينا ابنه المعتز ، ولما كان قد أمضى في رحابه حقبة غير قصيرة من الزمن ، أنشأ فيها روائع مدائحه ، وجميل اوصافه ، وواكبه في أكثر اعماله ، كان خليقاً بنا ان نلمح الى شيء من حياة هذا الخليفة الذي كان له فضل كبير على شاعرنا ظلّ يذكره ويحن اليه طوال أيام حياته بعده •

هو ابو الفضل جعفر بن محمد المعتصم بن الرشيد الملقب بالمتوكل على الله ، ولد بقم الصلح^(١) في سنة ٢٠٦ او ٢٠٧ هـ ، وامه ام ولد اسمها « شجاع » • استخلف بعد أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ وهو في السادسة والعشرين من العمر^(٢) •

(١) قم الصلح : بلدة كانت على فوهة نهر الصلح المختلج من نهر دجلة فوق واسط من الجانب الشرقي • أنظر : نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق : الدكتور مصطفى جواد ص ٦٠ هامش (١) •

(٢) أنظر : تاريخ بغداد ٧/١٦٥ - ١٦٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٤٦ •

وكان أسمر ، رقيق البشرة ، يضرب لونه الى الصفرة ، حسن الوجه والعينين ، خفيف العارضين ، كما كان وسيماً مهيباً الى الغاية ، وكان الى القصر أقرب (١) .

وهو عاشر الخلفاء العباسيين وثالث من اتخذ سامراء عاصمة له ، وأشهرهم في هذه المدينة ؛ اذ تهيأ له من الصفات المحببة ، والأعمال الجليلة ، والمدة الطويلة ، ما جعل عهده يتسم بالرخاء والصفاء والغضارة .

ولعل اول عمل قام به حبّب اليه نفوس الرعية هو ابطاله الجدل والخوض في مسألة القول يخلق القرآن التي تبناها المأمون فالمعتصم فالوائق ، وتشددوا فيها وشددوا على الناس في الاعتقاد بها ، حتى لم يتورعوا عن معاقبة الكثير ممن حاول مقاومتها او التكلؤ في الأخذ بها ، فقتل ذلك على الرعية ، فلما جاء المتوكل واستهلّ خلافته بابطال هذه المسألة سرى عن الناس ، ودخلهم من الفرحة والغبطة ما دخلهم (٢) حتى قال بعضهم في ذلك : « الخلفاء ثلاثة : ابو بكر الصديق (رض) في قتل أهل الردة ، وعمر بن عبدالعزيز في ردّ المظالم ، والمتوكل في احياء السنة ، وامانة التجهم » (٣) .

ولم يكنف المتوكل بذلك بل أمر باحضار الفقهاء والمحدثين الى سامراء للتحدّث بالسنة ، ولعل هذا هو السبب في انتشار المحدثين في هذه المدينة حتى كان لبعضهم طريقة متميزة في الحديث عرفوا بها (٤) ؟
ويبدو ان المتوكل حاول ان يسوس الرعية بشيء من الرفق واللين ،

(١) أنظر : تاريخ الطبري ٢٣٠/٩ ، والتنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣١٣ - ٣١٤ ، وتاريخ بغداد ١٧٢/٧ .

(٢) أنظر : تاريخ اليعقوبي ٢١٧/٣ ، وتاريخ الطبري ١٩٠/٩ ، ومروج الذهب ٣/٤ ، ٨٦ ، ٣١٩ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

(٤) أنظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ ، وسامراء في أدب القرن الثالث

الهجري ص ٨٦ - ٨٩ .

ليكون قريباً من نفوسهم ، حبیباً الى قلوبهم • ولعل ما روى عنه - اذا صح - ان الخلفاء كانت تتعصب على الرعية لتطيئها وانا ائین لهم ليجبوني ويطيعوني « (١) • خير دليل على ذلك •

واتسم عهده بالنضارة والأمن والرفاه ، حتى قيل في ذلك : « وكانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها ، من استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن والعدل » (٢) • وقيل أيضاً : « وكانت أيام المتوكل في حسننها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سرّاء لا ضرّاء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص الاسعار ، وأمانى الحب ، وأيام الشباب ••• » (٣) •

وان عهداً كهذا تسوده الطمأنينة ، وتتوفر فيه الأموال ، ويظهر فيه خليفة كالمتوكل خلیق بان يحظى فيه الادباء والشعراء وأرباب الفنون ، وهكذا كان ، فقد حظى كل اولئك في كنفه برعاية واهتمام كبيرين (٤) • حتى قيل في ذلك : « لا يعلم أحد في صناعته في جدّ ولا هزل إلا وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ، ووصل اليه نصيب وافر من ماله » (٥) •

ولعل رخاء الأيام ، وصفاء الحياة ، ولين عريكة الخليفة ، ودماثة خلقه ، كل ذلك ساعد على ان يسلك في حياته مسلكاً فيه شيء من الانهماك على الشهوات ، والميل الى الدعابة وطلب الفكاهة ، حتى قيل : انه اول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، وكان اصحابه يتسخّفون

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٢ •

(٢) مروج الذهب ٨٦/٤ •

(٣) نفسه ١٢٢/٤ •

(٤) أنظر : محاضرة الابرار لابن عربي ٤٤/٨ ، ومآثر الانافة

للقلقشندي ٢٣٠/١ •

(٥) مروج الذهب ١٢٣/٤ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٤٩ •

ويستخفون بحضرتة ، وكان يهانز الجلساء ، ويفاخر الرؤساء^(١) . • بيد
انه - مع كل ذلك - كان محبباً الى قلوب الناس مقرباً اليهم^(٢) وكان مهيباً
الى الغاية كما يقول المسعودي^(٣) . •

ولقد كان عصر المتوكل يتسم بطابع العمارة وبكثرة البذخ والاسراف ،
ولعل مرد ذلك هدوء الحالة السياسية ووفرة الأموال ، وشغف الخليفة
بذلك ، فشيّد قصوراً فخمة ، وعمائر ضخمة ، أتينا على اوصافها في كتابنا
« سامراء في ادب القرن الثالث الهجري » •

وقد كلفت تلك العمائر والقصور أموالاً طائلة ، كما كلفت الأعمال
الأخرى كثيراً من اموال الدولة ، ولا أدل على الاسراف والبذخ الكثيرين
مما يرويه الشابستي في دياراته عن اعمال هذا الخليفة ، فقد ذكر في معرض
كلامه على أحد قصوره وهو البرج فقال : « وكان البرج من أحسن
أبنيته فبلغت النفقة على هذا القصر الف وسبعمائة الف دينار ،
وجلس فيه على السرير الذهب ، وعليه ثياب الوشي المثقلة ، وأمر ألا يدخل
عليه أحد إلا في ثياب وشي منسوجة او ديباج ظاهره ، وكان جلوسه فيه في
سنة تسع وثلاثين ومائتين • ثم دعا بالطعام ، وحضر الندماء وسائر المغنين
والملهين ، وأكل الناس ، ورام النوم فما تهيأ له ، فقال له الفتح : يا مولاي
ليس هذا يوم نوم • فجلس للشراب ، فلما كان الليل ، رام النوم ، فما
أمكنه ، فدعا بدهن بنفسج فجعل فيه شيئاً على رأسه ، وتنتقه فلم ينفعه ،
فمكث ثلاثة أيام بلياليها لم ينم • ثم حمّ حمى حادة • فانتقل الى الهاروني
قصر أخيه الواثق ، فأقام به سنة اشهر عليلاً ، وأمر بهدم البرج وضرب

(١) زهر الآداب ٢٩١/١ ، وانظر : الديارات للشابستي ص ٣٩ ،
مروج الذهب ٨٦/٤ •

(٢) زهر الآداب ٢٩٢/١ •

(٣) التنبيه والاشراف ص ٣١٤ •

تلك الحللى عيناً» (١) .

وذكر أيضاً في موضع آخر بعض بذخ هذا الخليفة واحتفاله بالمتعة وشغفه بالأنس ، حتى ليعد ضرباً من ضروب الخيال ، ونوعاً من الأساطير التي يحلو للبعض ان يبثها في تصايف تصانيفه ، قال : « شرب المتوكل يوماً في بركوارا » (٢) ، فقال لندمائه : رأيتم ان لم يكن أيام النورد لا نعمل نحن شاذكلاه (٣) ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، لا يكون الشاذكلاه الا بالنورد ، فقال : بلى . ادعوا اليّ عبيدالله بن يحيى ، فحضر ، فقال تقدم بان تضرب اليّ دراهم في كل درهم جبتان ، قال : كم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ قال : خمسة آلاف الف درهم ، فتقدم عبيدالله في ضربها ، فضربت ، وعرفه الخبر . فقال : اصبغ منها بالحمرة والصفرة والسواد ، واترك بعضها على حاله ففعل . ثم تقدم الى الخدم والحواشي ، وكانوا سبعمائة ، ان يعد كل واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون قباء الآخر وقلنسوته ، ففعلوا ، ثم عمد الى يوم تحركت فيه الريح ، فنصبت له قبة لها أربعون باباً ، فاصطبغ فيها ، والندماء حوله ، ولبس الخدم الكسوة التي أعدها ، وأمر بنشر الدراهم كما ينشر النورد ، فنشرت اولاً واولاً ، فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والارض كما يقف النورد ، فكان من أحسن أيام المتوكل وأظرفه « (٤) » .

ولعل أقصى ما وصل اليه البذخ والاسراف في عهد المتوكل هذا ، هو

-
- (١) الديارات : ص ١٦٠ - ١٦٢ الطبعة الثانية .
(٢) بركوارا : من أحسن أبنية المتوكل واجلها ، بلغت النفقة عليه عشرين ألف درهم . ولمعرفة المزيد عن هذا القصر يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري » ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٣) الشاذكلاه ، ويقال فيها الشاذكلي : لفظة فارسية معناها « يوم الفرح العظيم » وعربيتها النثار . أنظر الديارات ص ١٦٠ هامش (٥) .
(٤) الديارات ص ١٦٠ .

ما أنفقه على حفلة اعذار ابنه المعتز التي أقامها في قصره بلكوارا ايضاً ، وقد وصف هذه الحفلة وصفاً دقيقاً شاملاً الشابستي كذلك ، وأثنى على الكثير مما جرى فيها ، وأسماها دعوة الاسلام الثانية • فمما جاء في وصفها قوله : « ولما صح عزمه على اعذار ابى عبدالله المعتز ، أمر الفتح بن خاقان بالتأهب له ، وان يلتبس في خزائن الفرش بساطاً للايوان في عرضه وطوله ، وكان طوله مائة ذراع ، وعرضه (خمسين)^(١) ذراعاً • فلم يوجد إلا فيما قبض عن بني أمية ، فانه وجد في أمتعة هشام بن عبدالملك على طول الايوان وعرضه • وكان بساطاً ابريسماً مذهب مفروز مبطن ، فلما رآه المتوكل ، أعجب به وأراد ان يعرف قيمته ، فجمع عليه التجار ، فذكر انه قوم على اوسط القيم عشرة آلاف دينار • فبسط في الايوان ، وبسط للخليفة في صدر الايوان سرير ، ومد بين يديه أربعة آلاف مرفع^(٢) ذهب مرصعة بالجواهر فيها تماثيل العنبر والند والكافور المعمول على مثل الصور ، منها ما هو مرصع بالجواهر مفرداً ، ومنها ما عليه ذهب وجوهر وجعلت بساطاً ممدوداً ، وتغدى المتوكل والناس ، وجلس على السرير ، وأحضر الأمراء والقواد والتدما وأصحاب المراتب فأجلسوا على مراتبهم ، وجعل بين صوانيتهم والسماط فرجة ، وجاء الفراشون بزبل قد غشيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين ، فصبت في تلك الفرج حتى ارتفعت وقام الغلمان فوقها ، وأمروا الناس عن الخليفة بالشرب ، وأن ينتقل كل من يشرب بثلاث حضنات ما حملت يده من ذلك المال ، فكان اذا أثقل الواحد منهم ما اجتمع في كفه أخرجه الى غلمانه فدفعه اليهم وعاد الى مجلسه • وكلما فرغ من موضع أثنى الفراشون بما يملأونه به حتى يعود الى حاله • وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع

(١) في الاصل (خمسون) •

(٢) المرفع : الكرسي ، وفسره محقق ثمار القلوب بالاناء الصغير

ص ١٦٦ هامش (٤) •

كل واحد ، وأقاموا الى ان صليت العصر والمغرب ، وحملوا عند انصرافهم على الأفراس والشهاري ، واعتق المتوكل عن المعتز الف عبد ، وأمر لكل واحد بمائة درهم وثلاثة أثواب • وكان في صحن الدار بين يدي الايوان اربعمائة بُلِيَّة^(١) • عليهن أنواع الثياب ، وبين ايديهن الف نبيجة^(٢) خيزران ، فيها انواع الفواكه من الاترج والنارنج على قلته كان في ذلك الوقت ، والتفاح الشامي والليموه ، وخمسة آلاف باقة نرجس وعشرة آلاف باقة بنفسج ، وتقدم الى الفتح بان ينشر على البليات وخدم الدار والحاشية ، ما كان أعدّه لهم وهو عشرون الف درهم ، فلم يُقدم احد على التقاط شيء ، فأخذ الفتح درهماً ، فأكبت الجماعة على المال فذهب ، وكانت قبيحة^(٣) قد تقدمت بان تضرب دراهم ، عليها « بركة من الله لاعذار أبي عبدالله المعتز بالله » • فضرب ألف ألف درهم نشرت على المزين ومن في حيزه من الغلمان والشاكرية^(٤) ، وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان ••• وقال ابراهيم بن العباس : سألت أبا حرملة المزين في هذا اليوم ، فقلت كم حصل لك الى ان وضع الطعام ؟ فقال : نيف وثمانون الف دينار سوى الصياغات والخواتيم والجواهر والعتيدات •

وأقام المتوكل بركوارا ثلاثة أيام ، ثم أصدع الى قصره الجعفري^(٥) ،

(١) البلية : المرأة المغنية الراقصة في الحفلات •

(٢) النبيجة : السفرة او الطبق من الخوص أو الخيزران •

(٣) هي أم المعتز •

(٤) شرح محقق الديارات هذه الكلمة بقوله : « الشاكرية : فرقة من الجند ظهرت في أيام المهدي (كذا) واستفحل أمرها في أيام المستعين » • ومعلوم ان المهدي متأخر بالنسبة للمستعين ، وعلى هذا فالصواب (المهدي) لا المهدي ، ويبدو انه من آثار الخطأ المطبعي ولكنه لم يثبت في جدول الخطأ والصواب •

(٥) أكبر الظن ان الشابشتي يريد بالقصر الجعفري قصر المتوكل في مدينته المتوكلية ، واذا كان كذلك ففيه نظر ، ذلك ان قصر الجعفري

وتقدم باحضار ابراهيم بن العباس ، وأمره بان يعمل له عملاً بما أنفقه في هذا الاعذار ، ويعرضه عليه ، ففعل ذلك ، فاشتمل العمل على ستة وثمانين ألف ألف درهم .

وكان الناس يستكثرون ما أنفقه الحسن بن سهل في عرس ابنته بوران ، حتى أرخ ذلك في الكتب ، وسميت دعوة الاسلام ، ثم أتى من دعوة المتوكل ما أنسى ذلك . . . (١) .

وكان المتوكل الى جانب ذلك يحفل بالعلم والادب ، كما كان سمحاً

ابتدىء بناؤه في سنة ٢٤٥هـ ، في حين ان وفاة ابراهيم بن العباسي الصولي كانت في سنة ٢٤٣هـ (انظر : تاريخ بغداد ١١٨/٦ ، معجم الادباء ٢٦٠/١ ، وفيات الاعيان ٢٩/١ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣١٥/٢ ، الاعلام للزركلي ٣٨/١ وغيرها) ، فكيف يتسنى لمن كانت وفاته في سنة ٢٤٣هـ ان يقوم باعداد نفقات حفلة الاعذار في سنة ٢٤٥هـ ، على ان هناك قصراً آخر باسم الجعفري المحدث أشار اليه الطبري في حوادث سنة ٢٤٨هـ . غير اننا نستبعد ان يكون ذلك القصر من الاهمية في نفس المتوكل ما كان لقصره الجعفري في مدينته المتوكلية . ومن الجدير بالذكر ان محقق الديارات لم يلتفت الى هذا ، وانما أحالنا الى الذيل (١١) الذي تكلم فيه على القصر الجعفري والجعفري المحدث ، ولكنه لم يبين المقصود من القصر الجعفري الذي أشار اليه الشابشتي ، وانظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٠ - ٢٦٩ .

(١) الديارات ص ١٥٠ - ١٥٦ ، وانظر : ثمار القلوب للثعالبي ص ١٦٦ - ١٦٧ ، حيث أشار الى هذه الدعوة وأضاف الى ما ذكره الشابشتي قوله : « . . . ونظر ابن حمدون الى سطل ذهب مملوء مسكاً فأخذه ، ومر به ليدفعه الى غلامه ، فقال له المتوكل : الى اين ؟ فقال : الى الحمام يا أمير المؤمنين . . . » وانظر : الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢٩٤/٢ وجاء فيها « وكان أكبر عيد بقصر الخلافة في القرن الثالث الهجري عيد ختان عبدالله (كذا) » والصواب ابى عبدالله وهي كنية المعتز « المعتز بن المتوكل . . . ثم ذكر المبلغ الذي أشار اليه الشابشتي ، وعلق عليه بقوله : « وهو مقدار يشبه ما يقال في القصص الخيالية » .

جواداً ومدحاً حتى قيل : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل^(١) ،
ولعله اول خليفة عباسي أثنى عن كل بيت الف دينار^(٢) .

والحق ان المتوكل كان مرضي السيرة ، محبوب الصفات ، حتى يمكن
الزعم بانه اكثر الخلفاء العباسيين تقرباً من قلوب الرعية ، ونولا ما شاب
عهده بشيء من الاعنات للمطالبيين الذي مردّه السياسة ، وبأقدامه على النيل
من مشوى الحسين بن علي (رض) لكان من افراد الحكام في العهد العباسي
كله^(٣) .

ولا أدل على حب الناس له وتعلقهم به ، ما تشير اليه المراجع من
الأسى الذي ران عليهم ، والحزن الذي كابدهم حين سمعوا بمقتله على
أيدي الأتراك في المؤامرة التي كان ابنه المنتصر أحد المشتركين فيها وذلك
سنة ٢٤٧ هـ ، حتى ادعى بعضهم انه رأى فيما يرى النائم ليلة مقتله منشداً
ينشد ابياتاً تشير الى موته وموت وزيره الفتح^(٤) ، كما ادعى آخرون ان ماء
زمزم قد غار ليلة مقتله ايضاً^(٥) .

هذا هو المتوكل الذي اتصل به البحري اتصالاً وثيقاً حتى أصبح من
جلسائه وندمائيه والمقرين اليه^(٦) .

-
- (١) أنظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٩ .
(٢) أنظر : تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ١٤٢/٥ .
(٣) أنظر : النجوم الزاهرة ٢/٢٨٣ - ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، والكامل في
التاريخ لابن الاثير ٧/٥٥ - ٥٦ . والجدير بالذكر ان جرجي زيدان يرى
خلال تعليقه على ما الزم به المتوكل اهل الذمة من ارتداء ملابس خاصة بهم
لمعاضدتهم بعض الخارجين على الخلافة - في حكم المتوكل نوعاً من العسف
والجور شمل رجال الدولة وغيرهم ، وهو رأي يجانف الحق كثيراً فيما
نحسب اذا ما قيس بما فعله غيره من الخلفاء .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٤ .
(٥) تاريخ بغداد ٧/١٧١ .
(٦) أنظر : العمدة ١/٤٥ .

لقد جهد البحتري ان يكون شاعر البلاط منذ عهد هذا الخليفة^(١) ،
ومن ثمّ كان شعره سجلاً حافلاً لكثير مما قام به المتوكل من أعمال عمرانية
 واجتماعية وسياسية ، مما سنراه من خلال مرافقتنا الشاعر في رحلته الطويلة
 مع الخليفة •

أول اتصاله بالمتوكل :

ما زالت الخطوط الاولى لاتصال البحتري بالمتوكل غير واضحة المعالم
 شأنها في ذلك شأن اول اتصاله بالفتح بن خاقان ، فهذا الصولي جامع أخباره
 يشير في خبرين له الى هذا الاتصال ، يقول في الاول : « حدثني يحيى بن
 البحتري » قال : قال أبي : اول ما مدحت به الفتح بن خاقان :

هب الدار ردّت رجع ما انت قائله

فأنشدته اياها سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد ما أقمت شهراً لا أصل
 الى انشاده وهو مع ذلك يجرى عليّ ويصليني ، ثم جلس جلوساً عاماً ،
 وحضرت وحدي فرأيتّه يتسم عند كل بيت جيد ، فعلمت انه يعرف الشعر
 وكان ذلك أعجب اليّ من جميع ما وصلني به ، وكان اول ما اهتز له حين
 بلغت الى قولي :

وقد قلت للمعلي الى المجد طرفه دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله
 والى قولي :

صفت مثلما تصفو المدام خلاله وورقت - كما رق النسيم - شمائله
 فلما فرغت سرّه ما سمع ، وأمر لي بخمسة آلاف درهم ، وقال :
 أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب ، فاعمل شعراً تنشده إياه اذا
 رجع ؟ فلما جاء الفطر ركب ورجع ، اوصلني اليه بعد أيام ، فدخلت
 فأنشدته :

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٢/ ٣٦٦ •

أبراً على الأنواء نائلك الغمر فلما بلغت الى قوالي :
بهرت قلوب السامعين بخطبة هي الزهر المبتوث واللؤلؤ النثر
قال المتوكل للفتح : هذا شاعرك ؟ فجعل يصفني له ، فأمر لي بعشرة
آلاف درهم ، فأخذتها من وقتي ، وخصصت بالفتح حتى كنت أشفع اليه في
الناس ، ثم صيّرني بعد ذلك من جلساء المتوكل (١) .

ويقول في الثاني : « وقد روي في اتصال البحري بالمتوكل خبر :
حدثني احمد بن ابراهيم الغنوي قال : طوب أبو سعيد الثعري بمال بعد
غزاته المشهورة وسلم الى ابي الخير النصراني الجهبذ ، ليستخرج المال منه ،
فجعل يعذّبه ، فشقّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : يأخذ بنار النصرانية !
فقال البحري :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الاسلام
الآيات الى آخرها فقرأ الشعر على المتوكل ، فأمر باطلاقه
وتوليته ، وأمر باحضار قائله ، فأحضر البحري ، فاتصل به ، وكان اول
شعر أنشده قوله في أبي سعيد :
جعلت فداك الدهر لبس بمنفك الآيات (٢) .

وحين نعود الى الخبر الاول نجد ان الصولي يشير الى ان الذي قدّم
الشاعر الى المتوكل هو وزيره الفتح ، وان اول شعره فيه قصيدته الرائية .
بيد اننا حين نرجع الى هذه القصيدة ، نجد الشاعر يشير فيها الى عزم المتوكل
على السفر الى الشام الذي كان في سنة ٢٤٣ هـ ، وهذا يناق بطبيعة الحال
التاريخ الذي قدم فيه الشاعر الى الخليفة ، كما يشير اليه الخبر المذكور (٣) .

(١) أخبار البحري ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) أخبار البحري ص ٩٧ - ٩٨ ، والفرج بعد الشدة للتونخي

ص ٩٥ .

(٣) أنظر : أخبار البحري ص ٨٤ هامش ٢ ، وأنظر : ص ٩٥ .

اما الخبر الثاني فهو يشير الى ان السبب في احضار البحرى من قبل المتوكل هو سماعه الايات التي قالها في أبي سعيد الثغرى حين ألقى في حبس سامراء متهماً ببعض الاموال وكان ذلك في حدود سنة ٢٣٣ هـ (١) ، وهذا يعني ان البحرى تسنى له الاتصال بالخليفة دون الاستعانة بوسيط في هذا الشأن ، وهو أمر بعيد الاحتمال على ما نظن ، والذي يدفعه اشارات الشاعر في خلال قصائده في الفتح التي المنح والمخ فيها الى تقديمه للخليفة وتذكيره بالوعد الذي قطعه له .

ويبدو ان البحرى بدأ بالتلميح الى رغبته في الوصول الى الخليفة قبل ان يوطد صلته بالفتح (٢) ، وجاء ذلك في قوله من قصيدة يعاتب فيها علي بن

(١) أنظر ص ٨٤ .

(٢) علق شارح الديوان على احدى قصائد الشاعر في الفتح (الديوان ٤٤٥/١) بقوله : « هذه القصيدة نظمها البحرى متوسلاً فيها من الفتح ان يصله بخدمة المتوكل ، ويبدو ان الفتح كان قد وعده بذلك ، فهو يتعجل الوفاء بالوعد فيقول في البيت الثامن « وعدت فأوشك نجح وعدك » ثم يخاطبه في البيت التاسع فيقول « واخبره عني سبيل من النصح » . ثم عاد يتعجله في قوله من القصيدة رقم ٥٥٦ :

فهلهم وعدك في الامام فانه فضل الى جدوى يدك تضيفه
وهو الخليفة ان أسر وعطائه خلفي فان نقيصة تخليفه
ويظهر ان الفتح تباطأ في تقديمه الى الخليفة فعاتبه في القصيدة رقم ٧٦١ وعاتب معه علي بن يحيى المنجم :

لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق وأعطى منها وادع وهو مفحم
ولو وصلتنى بالامام ذريعة درى الناس أي الطالبين يحكم «
فالشارح يرى ان البيتين الاخيرين من القصيدة (٧٦١) جاء في معاتبه الفتح لتباطؤه في تقديم الشاعر الى الخليفة ، والصحيح ان هذه القصيدة (٧٦١) نظمت قبل القصائد التي ذكر الشارح امثلة منها ، وأكبر الظن انها نظمت قبل ان تتوطد صلة البحرى بالفتح وقبل ان يعده بتقديمه للخليفة ، وان الشاعر كان يشكو من تباطؤ الفتح في العطاء والمنح لا في الوفاء بالتقديم
أنظر : ص ٥٥ .

يحيى المنجم :

ولو أنصفتني سر من راء لم أكن الى العيش من ايطانها أتظلم
لقد خاب فيها جاهد وهو ناطق وأعطى منها وادع وهو مفهم
ولو وصلتني بالامام ذريمة درى الناس أي الطالبين يحكم
أعاب أخواني ولست ألومهم مكافحة ان المئيم الملووم^(١)

غير ان هذا التلميح ما لبث ان تحوّل الى تصريح والحاح بعد توطيد
صلته بالفتح وتمكنه منه ، فهو يقول له مرة :

وعدت فأوشك نجح وعدك انه من المجد اعجل المواعيد بالنجح
وأنت ترى نصح الامام فريضة واخباره غني سبيل من النصح^(٢)
ويقول له اخرى :

فهلّم وعدك في الامام فانه فضل الى جدوى يدك تضيفه
وهو الخليفة ان أسرّ وعطاؤه خلفي ، فان نقيصة تخليفه^(٣)

ومهما يكن من أمر غموض الملامح الاولى لاتصال الشاعر بالخليفة ،
ومهما يكن من أمر الذي اوصله ومهد له السبيل ، فان الشاعر تيسر له
الوصول الى هدفه المنشود وغاياته القصوى ، وانه سرعان ما ثبت قدمه ،
وحاز إعجاب الخليفة به .

حتى أصبح نديماً له لا يكاد يفارقه^(٤) ، ويبدو انه استهل صلته به
بإبدال كنيته القديمة وهي ابو الحسن بابي عبادة^(٥) ، وقد كانت له نوبة

(١) الديوان ١٩٧٨/٣ وانظر ص ٥٠ .

(٢) الديوان ٤٤٦/١ .

(٣) نفسه ١٤٢٥/٣ وانظر اخبار البحري ص ٨٠ .

(٤) أنظر : العمدة لابن رشيق ٤٥/١ .

(٥) أنظر : الموازنة للآمدي ٢٥/١ ، واخبار البحري ص ٥٨ ،

وتاريخ بغداد ٤٤٧/١٣ ، ومن الجدير بالذكر ان الآمدي يشير الى ان
البحري أبدل كنيته القديمة (ابا عبادة) الى أبي الحسن ليزيل العنجهية

يحضرها في دار الخليفة^(١) وانثالت عليه عطايا المتوكل وهباته حتى أثرى وأفاد . وقد سجل الشاعر الكثير من أعمال الخليفة في خلال الحقبة التي واكبه فيها والتي أربت على اثني عشرة سنة وهي حقبة تمثلت بالازدهار والرخاء والطمأنينة كما أسلفنا .

مجموع شعره في المتوكل :

ان ما أنشأه البحري في اثناء هذه الحقبة بلغ زهاء (٣٩) تسع وثلاثين قصيدة ومقطعة ، اشتملت على نحو (٨٦٤) اربع وستين وثمانمائة بيت ، وهذا العدد من الأبيات يقارب ما نظمه في الفتح بن خاقان ، وهو في رأينا قليل ، اذا ما استحضرننا أهمية الممدوح ومكاته وطول المدة التي انقطع فيها اليه ، ويخيل لنا ان السبب في هذه القلة يرجع الى ما أشرنا اليه عند كلامنا على مدائحه في الفتح .

تحلل أغراض هذه القصائد والمقطعات الى مديح الخليفة والاشادة بصفاته وأعماله والى تعزيته بوفاة والدته ، ورثته بعد مقتله .
أما عدد الأبيات التي اشتملت عليها كل مقطعة او قصيدة فيبينها التوزيع الآتي :-

٢	من (٥) أبيات الى (١٠)
١٦	من (١١) الى (٢٠)
١٣	من (٢١) الى (٣٠)
٨	من (٣١) الى (٤٥)

وبلغ عدد أبيات الغزل الذي مهدت به هذه القصائد زهاء (٢٠٥) أبيات

والاعرابية ، ويساوي في مذاهبه اهل الحاضرة ، ويتقرب بهذه الكنية الى اهل النباهة والكتابة من الشيعة . في حين يشير الصولي والخطيب الى انه استعاض عن كنيته أبي الحسن بأبي عبادة في أيام المتوكل ، لانها أشهر .
(١) أنظر : أخبار البحري ص ٨٩ .

ويجمل بنا بعد هذا الاستعراض السريع لحياة المتوكل ، وصلة البحترى به
ان نواكب مسيرة الشاعر الطويلة في رفقة ممدوحه الكبير .
الخليفة في عيد الفطر :

ولعل من اوائل شعره فيه قصيدته الرائية التي أنشأها في سنة ٢٣٥هـ
بمناسبة حلول عيد الفطر ، وخروج الخليفة لأداء الصلاة في مسجده الجامع .
ووصف فيها وصفاً دقيقاً ، موكب الخليفة واحتفال العيد ، ومهدّ لذلك
بتسعة أبيات من الغزل الرقيق الذي عرف به البحترى ، ثم انتقل الى شكر
الله على نعمته للخليفة ، وانعامه عليه بملك وسيع زانه الخليفة وحسنه
بسيرته المحموده ، وعدله الشامل ، واحسانه العميم . وكان البحترى شعر
بعظمة الخلافة وجلالة الملك ، وضخامة الجيوش ، فلممدوح أفضل صائم ،
لان صيامه عن عقيدة وايمان ، وانطاره لم يكن الا لان سنة الله تبيح ذلك ،
فهذا اليوم يوم الفطر ، يوم أغرّ محجل بالنسبة لبقية الأيام ، وقد بدا عزّ
الملك وهيبته بما ظهر من احتشاد الجحافل ، وجلبه الجيوش ، حتى ليخال
الرائي ما يشاهده جبلاً سائرة مائجة ، تزخر بصهيل الجياد ، وادعاء
الفرسان ، ولمعان السيوف ، وبريق الأسنة ، فخشعت الأرض ومادت بائقها ،
واعتكر الجو بالنقع المثار ، فكانت الشمس تظهر تارة ، وتحتجب تارة أخرى
من كثافة الغبار الاكدر والعجاج الأغر^(١) . وقد انجلت دكنة الغبار ،

(١) من الجدير بالذكر ان وصف البحترى هذا يعيد الى الاذهان ما
رواه المبرد عن كثافة الجيوش في سامراء في عهد الخليفة المتوكل ، فقد جاء
في ذلك قوله : « كنت بسر من رأى في أيام المتوكل وكانت الجيوش متكاثفة
فما كان أحد من مرّار الطريق يعدم حصاة تتلقاه من حذف حوافر الخيل
فأنشدني بعضهم :

لا تقعدنّ سامرا على الطرق ان كنت يوماً على عينيك ذا شقق
حوافر الخيل أقواس وأسهمها صمّ الحجارة والاغراض في الحدق

(انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٩) .

وتبددت حلقة الدجى عند طلوع محيّا الخليفة المشرق ، وقد استشرفه
الناس مأخوذين بخليفتهم ، مفتتين فيه ، فكان بعضهم يومئذ إليه باصبه ،
وكان البعض الآخر مكتفياً بتحديق النظر إليه^(١) . ويبدو ان الناس كانوا
يرفعون عقيرتهم بالتهليل والتكبير في اثناء مرور موكبه بينهم ، وبعد هذا
يدلف الخليفة الى المسجد في خشوع واخبات ، لا يبدو عليه شيء من
الزهو والكبرياء حتى ليكاد المنبر - لو يستطيع - من فرط اعجابه به ،
واشتياقه له - ان يسعى اليه ماشياً ، وها هو الخليفة بعد ان صعد المنبر شنّف
آذان المسلمين بخطبة موشحة بالمواعظ ، مدبّجة بالحكم ، فألانت القلوب
القاسية ، وهدت النفوس الحائرة ، ثم أمّ المسلمين ، فصلّوا وراءه خاشعين
مخبتين :

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر
وأراك خنت على النوى من لم يخن
انى وان جانبت بعض بطالتي
ليشوقني سحر العيون المجتلى
وألام في كمد عليك وأعدز
عهد الهوى ، وهجرت من لا يهجر
وتوهم الواشون أني مقصر
ويروقني ورد الخدود الاحمر
* * *

بالبر صمت وانت أفضل صائم
فانعم بيوم الفطر عيناً انه
أظهرت عز الملك فيه بجحفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
فالخيل تصهل ، والفوارس تدعي
والارض خاشعة تميد بثقلها
وبسنة الله الرضية تفتخر
يوم أغر من الزمان مشهّر
لجب ، يحاط الدين فيه وينصر
عدداً يسير بها العديد الاكثر
والبيض تلمع ، والأسنة تزهر
والجو معتكر الجوانب أغبر
* * *

(١) كرّر البحثري مثل هذا في وصفه لموكب الخليفة المهتدي في سنة

طورا ، ويطفئها العجاج الاكدر
ذاك الدجى ، وانجاب ذاك العثير
يومما اليك بها ، وعين تنظر
من أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا

★ ★ ★

نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يزهى ولا يتكبر
في وسعه لمشى اليك المنبر
تنبى عن الحق المين وتخبر
بالله ، تنذر تارة وتبشر
يعتادها ، وشفاؤها متعذر
نفس المروي ، واهتدى المتحير
من ربهم ، وبذمة لا تخفر (١)

والشمس مائة توقد في الضحى
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلي
وافتن فيك الناظرون ، فاصبع
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطلعتك النبي فهللو

حتى انتهيت الى المصلّى لابساً
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو ان مشتاقا نكلف غير ما
أيدت من فصل الخطاب بخطبة
ووقفت في برد النبي مذكرا
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراعي آخذين بعصمة

وغني عن البيان القول بان هذه القصيدة اشتملت على شيء غير قليل
من جودة السبك ، وروعة المعنى ، ودقة الوصف ، وان ابن خلكان كان على
حق حين علق عليها بقوله : « وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة ،
والسهل الممتع ، فله دره ! ما أسلس قياده ، واعذب الفاظه ، وأحسن
سبكه ، والطف مقصده ، وليس فيه من الحشو شيء ، بل جميعه
نُخب » (٢) .

المتوكل وصعوبة شعر البحتري :

ذكر الصولي في أخبار البحتري ان البحتري قال : « كنت أمدح

(١) الديوان ١٠٧٠/٢ - ١٠٧٣ .

(٢) وفيات الاعيان ٧٩/٥ .

المتوكل مقومًا لفظي ، غير مرسل نفسي ، فقال لي الفتح - وكان والله ،
ما علمت ، قويّ الادب ، حسن المعرفة بالشعر - ليس بك حاجة في مدح
أمير المؤمنين الى مثل هذا ، لئن كلامك حتى يفهم ، فانه يلذّ ما يفهم ،
فعلت انه نصحني ، فمدحته بأشعاري التي منها :

لي حيب قد لججّ في المهجر جدا

لِم لا ترقّ لذلّ عبدك • ومنها :

عن اي ثغر تبسم فحظيت عنده ، وقربت من قلبه ، وتوفّرت على صلته « (١) •

وعقّب عبدالقاهر الجرجاني على تليين البحري لشعره بقوله :
« لا يمكن ادّعاء ان جميع شعره في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن
فضل النظر ، كقوله : فؤادي منك ملآن (٢) • وقوله : عن ايّ ثغر تبسم •

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قلّ نشاطه لها واعتناؤه بها
إلاّ لانه لم يفهم معانيها ، كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له اليه « (٣) •
وحين نرجع الى ديوان الشاعر نجد فيه هذه القصائد التي أشير اليها
في الخبر السابق ، ونجد ان شارح الديوان قد وضع تواريخ لها كما
سيأتي •

وقد ذكرنا عند الكلام على علاقة البحري بالفتح الخبر المتقدم الذي
نصح له فيه الفتح في تليين شعره ، وأشرنا الى ان الشاعر مدح الفتح
بقصيدتين من هذا اللون السهل اللين يرجع تاريخ اولاهما الى سنة ٢٣٤ هـ ،
ويعود تاريخ ثانيتهما الى سنة ٢٣٧ هـ ، كما ذكرنا ان البحري مدح كاتب
الفتح هذا بقصيدة نحا فيها منحى هذه السهولة والليونة يعود تاريخها الى

(١) اخبار البحري ص ٨٦ - ٨٧ •

(٢) من الجدير بالذكر ان هذه القصيدة ليست في المتوكل وانما هي

في الفتح أنظر : ص ٦٩ - ٧١ •

(٣) اخبار البحري ص ٨٦ حاشية رقم (٣) •

سنة ٢٣٢ هـ ، وقلنا لعل هذه القصيدة كانت ترشيحاً لقصائده اللينة في الفتح
والتوكل فيما بعد (١) .

من قصائده اللينة :

فمن شعره اللين في التوكل هذه الدالية التي يرى شارح الديوان انها
من اوائل ما مدح به المتوكل بعد اتصاله به ، ولهذا فهو يؤرخها في سنة
٢٣٤ هـ ، وهو تأريخ - فيما نحسب - بعيد الاحتمال ، ومجانب للصواب ،
اذا ما استهدينا بخبر الصولي الأنف الذكر ، فالخبر يشير الى ان الفتح نصح
له بتسهيل شعره وتلينه بعد ان سمع مدائح فيه ، ورأى فيه تقويم اللقظ
الذي - كما يقال - لم يكن بوسع المتوكل فهمه ! فأين هذه المدائح التي
نظمها الشاعر في ممدوحة في اثناء هذه السنة ؟

ومن العجيب ان الشارح يؤرخ قصيدة أخرى بنفس التأريخ وهي
تدور في فلك القصيدة السابقة من حيث السهولة والليونة أيضاً . فكأن
الشاعر قد نبه الى اتباع هذه الطريقة قبل ان يتصل بالخليفة ، وهو أمر
غريب وبعيد عن الحقيقة والصواب ، وعلى هذا فمن المحتمل ان تكون
القصيدتان قد نظمتا بعد هذا التأريخ بزمن حتى يصح الخبر الذي جاء على
لسان البحري في أخباره .

على انه ينبغي ان نشير الى ان البحري لم يكثر من هذا الشعر اللين
السهل ، لا في الفتح ولا في التوكل ، الأمر الذي يدعونا الى الظن بان الشاعر
قد عدل عن هذا اللون حفاظاً على شاعريته من التبذل ، وصوناً لها من
الهدر والتدني (٢) .

ويبدو لنا ان اتهام المتوكل بقلة الفهم لشعر البحري المقوم لا يخلو
من الغلو والاسراف ، بدليل عدول الشاعر عن هذا اللون من الشعر ،

(١) أنظر : ص ٦٩ - ٧١ .

(٢) أنظر : ص ٧١ .

وقلة القصائد التي دبحها فيه ، هذا الى ان المتوكل لم يكن متهماً بقله الفهم او ضحالة الثقافة ، بل كان مولعاً بالأخبار والانساب وما يقع فيها من غريب اللغة ، ولا أدلّ على ذلك من اختياره المبرّد حين أشخصه من البصرة لحل معضلة نحوية اختلف فيها مع وزيره الفتح بن خاقان^(١) . هذا الى ان كبار شعراء العصر كانوا يؤمنونه وينشدونه مديحهم فيه ، ولم يحاول أحد منهم ان يلبس من شعره فيه ، وكان بعضهم من خواصه وندمائه والمقربين اليه كعلى بن الجهم مثلاً .

ودالية البحري هذه مفتحة بالغزل الذي استغرق اكثر من نصفها ثم انتقل الى الغرض الاساس فاذا المتوكل قائم بأمور الدين والدنيا ، يفوق الناس شئمة وخلقاً وبدلاً ، ذا عزيمة نفاذة ، وطّدت ملكه ، وعدل شامل ، عمّ البلاد ، وهو ذو كفّ معطاء ، تبرّ على السحاب المدرار ، بل هو في السماحة والجدود بحر خضمّ ، وهو وزرّ الدنيا في العطاء والبذل ، وجمالها في السناء والمجد ، وشييه النبي في خلقه وأخلاقه ، ونسييه في محتده وأصوله :

لي حيب قد ليجّ في الهجر جدا	وأعاد الصدود منه وأبدا
ذو فنون يريك في كلّ يوم	خلفاً من جفائه مستجدا
يتأبى منعاً ، وينعم اسعاً	فأ ، ويدنو وصلاً ويبعد صدا
أعتدى راضياً وقد بتّ غضبا	ن وأمسى مولى ، وأصبح عبدا
وبنفسى أفدى على كل حال	شادناً لو يمس بالحسن أعدى
مرّ بي خالياً فأطمع في الوص	سل ، وعرضت بالسلام فرداً
وثنى خده اليّ على خو	في فقبّلت جلتاراً ووردا
سيدي أنت ما تعرضت ظلماً	فأجازى به ، ولا خنت عهدا

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث البحري ص ٢٠٣ ، ٢٠٩

رقّ لي من مدامع ليس ترقا وارث لي من جوانح ليس تهدا
أتراني مستبدلاً بك ما عشم ت بديلاً ، وواجداً منك بدا ؟
حاشى لله أنت أفتر أبحا ظاً ، وأحلى شكلاً ، وأحسن قدّاً

★ ★ ★

خلق الله جعفرأ قيمّ الدنـ يا سداداً ، وقيمّ الدين رشدا
أكرم الناس شيمه ، واتم الناس خلقاً ، واكثر الناس رفدا
ملك حصنت عزيتمه الملك فأضحت له معاناً ورداً
أظهر العدل فاستنارت به الأرز ، وعمّ البلاد : غوراً ونجداً
وحكى القطر ، بل أبرّ على القطر سر بكفّ على البريّة تندى
هو بحر السماح والجود فازدد منه قريباً تزدد من الفقر بعدا
يا ثمال الدنيا عطاء وبذلاً وجمال الدنيا سناء ومجداً
وشبيه النبي خلقاً وخلقاً ونسيب النبي جداً فجداً
بك نستعبت الليالي ونستعبدى على دهرنا المسيء فنعدى
فأبق عمر الزمان حتى نؤدى شكر احسانك الذي لا يؤدى^(١)

والحق ان اكثر هذه الصفات قد سبقه فيها غيره من الشعراء ، ولكنه
- كما نظن - اكثرهم إجادة في التحدث عنها ، واقدروهم على صوغها وابرازها
بهذا الثوب القشيب من اللفظ الرشيق ، وقد اكثر في هذه المدحة من
الطباق ، كما اكثر من التقسيم وبخاصة في الايات : الثالث والتاسع والحادى
عشر والثالث عشر والثامن عشر والتاسع عشر .

ويخيل لي ان البحترى - وان جنح فيها نحو السهولة والليونة - لم
يسف فيها الى درجة يؤاخذ عليها كما يظن البعض .

هزء الخليفة بالشاعر :

ومثل القصيدة الدالية السابقة في السهولة والليونة هذه الميمية التي

(١) الديوان : ٧١٢/٢ - ٧١٣ .

يرجع الشارح انها من منظومات سنة ٢٣٤ هـ ، وهو ما نستبعده أيضاً •
ولهذه القصيدة قصة تآققتها المصادر الادبية والتاريخية لم تخل
- فيما نظن - من التزيّد والاضافة حتى كادت ان تبعد عن الحقيقة كثيراً ،
وبخاصة ما يتعلق بطريقة انشاد البحترى لشعره عموماً •

فقد روى الصوالي في اخبار البحترى : « ان البحترى أنشد المتوكل
وابو العنيس حاضر ، قصيدته : عن ايّ ثغر تبسم الى آخرها •• وكان اذا
أنشد يخال ويحجب بما يأتي به ، فاذا فرغ من القصيدة ردّ البيت الاول ،
فلما ردّه وقال :

عن ايّ ثغر تبسم وبأيّ طرف تحننم

قام ابو العنيس ، وقد غمز المتوكل ان يولّع به ، فقال للبحترى :

من ايّ سلح تلتنم وبأيّ كفّ تلتنم

ادخلت رأسك في الحرم

فولّى البحترى لما سمع ذلك مغضباً فجعل يصيح خلفه : وعلمت أنك
منهزم • فضحك المتوكل لذلك ، وأمر لابي العنيس بالصلة التي أعدت
للبحترى •

وقال احمد بن يزيد عن ابيه قال : فجاءني البحترى فقال لي يا أبا خالد
انت عشير وابن عم وصديق ، وقد رأيت ما جرى عليّ ، أترى أن أخرج
الى منيح بغير اذن ، فقد ضاع العلم ، وهلك الادب ؟ فقلت : لا تفعلن من
هذا شيئاً ، فالملوك تمزح باكثر من هذا ، ومضيت معه الى الفتح فشككا اليه
ذلك فقال له نحواً من قوالي ، وعوّضه ، فشكر لي ذلك « (١) •

وروى المسعودي في مروجه ان المبرد قال « ووردت سرّ من رأى ،
فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب ، فسئلت عن بعض ما وردت له ،

(١) اخبار البحترى ص ٨٨ - ٨٩ •

فأجبت ، وبين يدي المتوكل البحترى الشاعر فابتدأ ينشده قصيدة يمدح بها المتوكل ، وفي المجلس ابو العنيس الصيمرى ، فأنشده البحترى قصيدته التي أولها :

عن اىّ ثغر تبسم وبأىّ طرف تحتكم

(الايات) فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف ، فوثب ابو العنيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أأمر بردّه ، فقد والله عارضته في قصيدته هذه ؟ فأمر بردّه . فأخذ ابو العنيس ينشد شيئاً لولا ان في تركه بترأ للخبر لما ذكرناه ، وهو :

من اىّ سلاح تلتقم وبأىّ كفّ تلتطم

أدخلت رأى البحترى أبى عبادة في الرحم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص برجله اليسرى ، وقال : يدفع الى ابى العنيس عشرة آلاف درهم ، فقال الفتح يا سيدي البحترى الذي هجى واسمع المكروه ينصرف خائباً ! قال : ويدفع الى البحترى عشرة آلاف درهم ، قال : يا سيدي ، وهذا البصرى الذي اشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع اليه عشرة آلاف درهم . فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه « (١) » .

اما ابو الفرج الاصفهاني فقد روى عن جحظة البرمكي قوله : « حدثني ابو العنيس الصيمرى قال : كنت عند المتوكل والبحترى ينشد :

عن اىّ ثغر تبسم وبأىّ طرف تحتكم

حتى بلغ الى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم

للمرتضى ابن المجتبى والمنعم ابن المنتقم

(١) مروج الذهب ٩/٤ - ١٠ .

اسلم لدين محمد فاذا سلمت فقد سلم

وكان البحري من أبغض الناس انشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه
مرة جائياً ، ومرة القهقري ، ويهز رأسه مرة ، ومنكيه أخرى ، ويشير
بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ثم يقبل على المستمعين ،
فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت هذا والله ما لا يحسن أحد ان يقول
مثله • فضجر المتوكل من ذلك وأقبل عليّ وقال ما تسمع يا صيمري
ما يقول ، فقلت : بلى يا سيدي ، فمرني فيه بما أحببت فقال : بحياتي اهجه
على هذا الروي الذي أنشدنيه ، فقلت تأمر ابن حمدون ان يكتب ما أقول ،
فدعا بدواة وقرطاس ، وحضرني على البديهة فقلت :

ادخلت رأسك في الحرم وعلمت أنك تنهزم
(الابيات) (١) •

فهذه الروايات تجمع على استهزاء المتوكل بالشاعر وسخريته واصغائه
الى شاعر آخر أقل شاعرية من البحري بدرجات ، ولكنه اكثر منه مجوناً
واستهزاء وهزلاً !

ويخيل لنا ان هذه السخرية من الخليفة لم تكن منذ اول صلته
بالشاعر ، واكبر الظن انها كانت بعد توطيد الصلة بينهما وبعد مرور وقت
غير قليل من اختلاف البحري الى مجلس المتوكل ، واذا صح هذا فتأريخ
القصيدة ينبغي أن يتأخر كثيراً عما حدده لها شارح الديوان !

ويبدو لنا كذلك ان ما رواه الاصفهاني على لسان جحظة من ان
البحري « كان من ابغض الناس انشاداً ، يتشادق ، ويتزاور في مشيه
مرة جائياً ومرة القهقري ••• الخ » • لا يخلو من الوضع ، ولا يبعد ان
يكون من تلفيقات جحظة البرمكي نفسه •

(١) الاغاني ١٧٣/١٨ طبعة الساسي ، وانظر : معجم الادباء

فالروايتان الاولى والثانية لا تشيران الى مثل هذه الحركات العجيبة الغريبة التي لا يمكن ان تصدر عن شاعر له منزلة كمنزلة البحترى ، بل ان ما رواه المسعودي على لسان المبرد الذي كان في جملة من شهد الحادث في مجلس الخليفة لم يكن فيه اشارة من قريب او بعيد الى أية حركة من هذه الحركات العجيبة الغريبة ؟

وانه لمن الغرابة ان ينصح الفتح للشاعر بتريق شعره وتليينه حتى يفهمه المتوكل ولا يلفت نظره الى ما يقوم به من هذه الحركات الغريبة التي قد لا تليق به كشاعر مختص به وبالخليفة •

واذا صح ان الشاعر كان مبتلى بالقيام بهذه الحركات أفليس من الغريب حقاً ان يهجو أحد المغنين بقوله :

اذا صاح سالت له مخطئة على العود ، وانقلعت بلغمه
كثير التلف والاعترا ض ، شديد التفلت والهمهمة^(١)

ويبدو ان ما ذكره الاصفهاني عن حركات البحترى قد أخذ طريقه الى بعض الدراسات الحديثة التي وضعت في الشاعر المذكور ، واعتبر حقيقة مسلماً بها ، وهو اتجاه - كما نظن - فيه اجحاف كثير بحق هذا الشاعر الكبير^(٢) • فلو صح ما اتهم به الشاعر من هذه الحركات لوجد منه أخصامه

(١) ديوان البحترى ٢٠٧٧/٤ ، وانظر : « حياة البحترى وفنه »
للدكتور احمد بدوى ص ٢٢٠ ففيه تفنييد لما اتهم به البحترى من القيام بامثال هذه الحركات المزعومة •

(٢) ممن أخذ بهذا الرأي الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر ص ١١٥ - ١١٦ ، حيث عرّض بطريقة انشاد البحترى وعدّها نوعاً من اعجاب الشاعر بنفسه ، واستشهد - لتأكيد هذا الرأي - بأحد رجال الديمقراطية في أثينا في غضون القرن الخامس ، كان يقوم بحركات على غرار ما كان يقوم به البحترى ، وأشار الى ان قصيدة الصيمرى التي هجا فيها البحترى مثبتة في الموشح ، بيد اننا حين نرجع الى المصدر المذكور لا نجد شيئاً منها فيه •

ومناوئوه مادة اللطعن عليه ، والتشنيع به ، وبخاصة من قبل الصيمري نفسه الذي خلت قصيدته التي هجاه فيها من آية اشارة الى هذه الحركات (١) ، أو من قبل ابن الرومي الذي هجاه هجاء مقذعاً فاحشاً ولكنه لم يشر الى شيء مما رمى به الشاعر من هذا القبيل (٤) .

وأكبر الظن ان هزل المتوكل في هذا المجلس لم يكن التقصد منه الحط من قيمة الشاعر او تبرمه بطريقة انشاده المزعومة ، وانما كان من أثر عمل الشراب في الخليفة كما يقول المبرد . ولا ندري هل ان الشاعر قد أفلح بمن الحركات التي كان يقوم بها كما يرويه الاصفهاني بعد هذه الحادثة ؟ أو أنها بقيت ملازمة له الى آخر أيامه ؟

اما القصيدة فهي تجرى على هذا النمط السهل اللين :

عن أيّ ثغر تبسّم	وبأيّ طرف تحتكم ؟
حسن يضمن بحسنه	والحسن أشبه بالكرم
أفديه من ظلم الوشا	ة ، وإن أساء وان ظلم
وكان في جسمي الذي	في ناظريه من السقم

(١) مما جاء في قصيدة الصيمري قوله :

يا ابن الثقيلة والثقي	ل على قلوب ذوى النعم
وعلى الصغير مع الكبير	ر مع الموالي والحشم

معجم الادباء ١٨/١٣ . واكبر الظن ان هذين البيتين لا يصدقان في ان البحثري كان ثقيلاً فعلاً على قلوب من كان متصلاً بهم ، وان ثقل ظله امتد حتى شمل الناس أجمعين . فليس في الأخبار التي رويت عنه في صلته الكبيرة مع اكثر رجالات الدولة ما يشير الى شيء من هذا .

(٤) هجا ابن الرومي البحثري بأكثر من سبعين بيتاً هجاء مقذعاً فاحشاً ، ورماه بانتحال الشعر وسرقتة ، وطول اللحية ، وخبث الأصل وما الى ذلك ، ولكنه لم يشر الى انه كان مبتلي بالقيام بأية حركة من الحركات القبيحة التي الصقت به عند انشاده الشعر . (انظر : ديوان ابن الرومي ص ٤٠٨ - ٤٢٦ شرح محمد شريف سليم) .

يهنيك انك لم تذق
 أقسمت بالبيت الحرا
 وعُلا أمير المؤمنين
 لقد اصطفى ربّ السما
 ملك بدا وجبينه :
 قل للخليفة جعفر ال
 للمرتضى ابن المجتبي
 أما الرعيّة فهي من
 نعم عليها في بقا
 يا بني المجد الذي
 اسلم لدين محمد
 لنا الهدى بعد العمى
 سهرأ ، وانى لم أنم
 م ، وحرمة الشهر الأصم
 ن فانها حقّ القسم
 ء له الخلائق والشيم
 شمس الضحى ، بدر الظلم
 متوكل بن المعتصم
 والمنعم ابن المنتقم
 أمنات عدلك في حرم
 ثك ، فلتتم لها نعم
 قد كان قوّض فانهدم
 فاذا سلمت فقد سلم
 بك ، والغنى بعد العدم^(١)

ويبدو لنا ان القصيدة - على الرغم من سهولتها وليونتها - لا تخلو من
 الرقة والعدوبة في الالفاظ ، ومن الخفة في الوزن •

ولاة العهود :-

ومن القصائد التي تدور في فلك السهولة والليوننة ايضاً هذه المدحة
 التي يشير فيها الشاعر الى ان المتوكل بكرمه قد أعجز غيره وأعياه ، وانه
 لا سبيل الى ان يسمى كسموه ، او يجاء بمجد كجده ، وأنى يمكن
 الوصول اليه وهو في الذرا من الشرف والرفعة ، وكرم المحتد؟ أليس هو
 سليل آباء كرام ينتمون الى قريش ، وان وشائج القربى تربطه بأشرف
 الخلق وهو الرسول الكريم ، وهو عفوّ مقدر ، يير سبل الرشاد الى
 الآخرين ، بحسن سيرته ، وسداد رأيه ، حتى لتبدو مخايله وأماراته ضرباً
 من سيماء الرسول ، الذي اشتمل ببردته واقدى بأثاره ، ثم يتقل الى

(١) الديوان : ٣ / ١٩٩٨ - ١٩٩٩ •

الاشادة بولاية العهود فيدى اعتزازه بذلك العمل ، وفرحة الناس بهم ،
 ويشير الى تمسكهم بالبيعة التي أحكمت عقودها ، وأكدت شروطها فيقول :
 لم لا ترق لذلّ عبدك وخضوعه ، فتفى بوعدك ؟

★ ★ ★

قل للخليفة جعفر أعيأ الرجال مكان' نذك !
 أيّ امرئ يسمو سموك ، أو يجيء بمثل مجدك ؟
 وعلا قصيكَ أو قريـب
 رباع تمدّ به النبوة والخلافة قبل مدك
 أحرزت ميراث الرسو ل بسهمة العباس جدك
 ووصلت عفوك ، يا أميـر المؤمنين ، لنا بجهدك
 ورعيتنا فأرئيتنا سنن الرشاد بحسن قصدك
 حسنت لنا الدنيا بحمـد الله ربك ثم حمدك
 وعليك من سيميـا النبـي مخايل "شهدت برشدك
 تبدو عليك اذا اشتمت ت برده من فوق بردك
 اعززت أمة أحمد بالفاضلين ولاة عهدك
 فهم جميعاً يحمـدون ، ويشكرون جميل رفدك
 متمسكين ببيعة أحكمتها بوثق عقـدك
 فاسلم لهم ولسؤدد أصبحت فيه نسيج وحدك^(١)

خروج أهل أرمينية :-

ويحدث ان يشب أهل أرمينية بعاملهم يوسف بن محمد في سنة
 ٢٣٧ هـ بسبب خروج أحد بطارقة الروم عليه الذي أخذه يوسف وأرسله
 الى دار الخلافة ، فأثار هذا العمل بطارقة الروم الآخرين فاجتمعوا
 وحاصروا يوسف في المدينة التي كان يتحصن فيها فقتلوه ومن قاتل معه ،

(١) الديوان ٧٠٥/٢ - ٧٠٦

ونهبوا وسلبوا وعاثوا فساداً ، فوجه المتوكل اليهم بغا الشرايبي الذي استطاع ان يفتك بالخارجين فتكاً ذريعاً ، وأن يرسل جملة منهم الى دار الخلافة في سامراء (١) .

ويدخل البحثري على المتوكل بمدحة يشير فيها الى هذه الحادثة (٢) ، والى ولاية العهد لابنائه الثلاثة ، ويفتحها - على عادته - بالغزل الذي يستغرق تسعة أبيات منها وهو غزل جهد الشاعر - على ما يبدو - ان يتأنق بألفاظه ومعانيه ما وسعيه الجهد والتأنق ، ثم ينتقل الى مدح الخليفة ، فيشير الى تأميم ركابه حضرته ، بعد تجشمها المشاق وجوزها رحاب اليد واليافي ، مستهدياً بنور طلعه في تبديد حلقة الدياجي حتى اذا حطت ركابه وركاب أصحابه العطشى في ساحل بحره الواسع نعت غلغلهما ، من ثرة مياهه الموردة ، ووجدوا في كنفه آمالهم المشوذة ، وأهدافهم المطلوبة ، وقد تجسم في كرمه واسراعه رفق معنفيه . وهو الى ذلك عظيم القدر في قلوب الناس ، عزيز الجانب لديهم ، وكأن قدره في نفوسهم ، وعزته لديهم ، تتجددان دائماً وأبداً ، ثم ينتقل الشاعر الى وصف جيش الخلافة ، ممهداً

(١) تاريخ الطبري ١٨٧/٩ - ١٨٨ ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ٥٨/٧ - ٥٩ .

(٢) يؤرخ الشارح هذه القصيدة في سنة ٢٣٥ هـ مستنداً الى ان الشاعر أشار في البيت الثلاثين الى عقد المتوكل البيعة لابنيه الثلاثة ، ولكن ماذا نفسر اشارة البحثري الى خروج (ارمينية) في البيت الثالث والعشرين ، والذي أرخه الطبري وابن الاثير في سنة ٢٣٧ هـ ، فهل كان الشاعر يستبقي الحوادث ؟

ومن الجدير بالذكر ان المتوكل حين بايع بولاية العهد لابنائه الثلاثة احتفل بذلك احتفالاً كبيراً ، فقد أشار اليعقوبي في تاريخه الى هذه الحادثة فقال : « وبايع المتوكل بولاية العهد من بعده لابنه محمد ثم لابنيه : ابي عبدالله المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله وأحضر وجوه الناس من كل بلد الى سر من رأى فأعطاهم على البيعة الجوائز وأعطى الجند لعشرة أشهر ووجه الخطباء ليخطبوا بذلك » . تاريخ اليعقوبي ٢١٩/٣ طبعة المنجف .

بذلك الى ما يبغى الاشارة اليه من خروج بعض العمال على الخليفة المذكور .
 فهو أي الخليفة - محاط بانصاره واتباعه الذين جمعوا بين حسن النية ،
 وقوة الشكيمة ، ووفرة العدة والعدد ، فهذه رماحهم اذا ما غرزت او ركزت
 في الارض - تحيل الجو لكثافتها وتشابكها - الى غاب كثيف اشبه بغاب
 الأسود ، وان بريق السلاح ولمعانه الوهاج فيه ، أشبه ببحر من الحديد
 يتراءى في البر المديد ، وان من يحمل هذا السلاح قوم أشداء مفطورون على
 حب القتال وغشيان ساحات الوغى ، وحوامات الجلال ، وانه - اي الممدوح -
 لم يغفل عن الخارجين عليه والذالعين لسلطانه ، فهو يتقضاهم ويتبعهم بعزم
 نافذ ، وقلب حديد ، فها هو يتصدى لمن خرجوا عليه في أرمينية فيرميهم
 بجيش لجب ، وقوة رادعة ، تحيلهم الى قنيل وصليب وأسير ، فالممدوح
 بقضائه على هذه الفتنة قد أرجع الى الخلافة هيبتها ، وأعاد الى الاذهان أفعال
 آبائه السالفين في معالجة أمثال هذه الأمور ، ولكنه مع قدرته وبسالته وتكيله
 باعدائه وأخصامه ، رؤوف برعيته ، عفو عن المذنبين والمسيئين ، وكأنه يريد
 بذلك عفو المتوكل عن قتل ابن البعيث *

وهو الى جانب مقدرته وكفائه مزين بالأناة والوقار والتلبث والحلم ،
 وان هذه الصفات كثيراً ما أعادت الى اليأس من النجاة - لعصيانه أملاً ،
 والى القانط من الحياة - لجرمه - حياة ! ثم ينتقل بعد هذا الى قضية أخرى
 مهمة في تاريخ الخلافة العباسية ، وهي قضية ولاية العهد . فالمعروف ان
 المتوكل عقد البيعة لابنيه الثلاثة بولاية العهد ، وهم : المنتصر والمعتز والمؤيد ،
 وذلك يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة ، وقيل ليلتين بقيتا منه ، من
 سنة ٢٣٥ هـ ، وعقد لكل واحد منهم لواءين : أحدهما أسود وهو لواء
 العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل ، وأقطع كل واحد منهم جزء من
 المملكة الواسعة^(١) .

(١) انظر : الطبري ١٧٥/٩-١٧٦ ، والكامل في التاريخ ٤٩/٧-٥٠ .

وعلى الرغم من أن قضية تعدد ولاية اليهود لم تكن الا مفرقة لمن تعقد لهم ، ومجزئة لاوصال الدولة ، ومقسمة الرعية الى طوائف وأشباع ، فان شاعرنا قد بارك هذا الاتجاه ، واعتبره عملاً جديراً بالثناء والاشادة ، فالمتوكل بعمله هذاحفظ راعيته وتعهد أمورها حين عهد الى أبنائه الفتيّة بولاية العهد من بعده ، وكيف لا وأمامهم نور النبيّ يهتدون به ، وخلفهم هداية أبيهم تعضدهم وتسند ظهورهم • فهم أحقّ من غيرهم بهذه البيعة في راعة النهار ، وهم اولى بلالىء تاجها المعقود عليهم ، وأنىّ يدّعي مدعٍ فيها ، وهذه أماراتها واضحة جلية تدلّ الآخرين على انها لهم دون سواهم ، ولعله كان يرمى من طرف خفي الى مناوئي العباسيين من العلويين ، وقد أكثر الحديث عنها حتى كاد أن ينفذ ، واستفاق كل منافس وحسود لهم ، ولكنهم لم ينالوا سوى الخيبة والخذلان :

أعطاف قضبان به وقدود	لما مشين بذى الأراك تشابهت
وشيان : وش ربيّ ووشي برود	في حلتي حبرٍ وروض ، فالتقى
وردان : ورد جنى وورد خدود	وسفرن ، فامتأّت عيون راقها
غضٍ وسلسال الرضاب برود	وضحكنا، فاغترف الأفاحي من ندى

* * *

من مترع للطالين بعيد	طلبت أمير المؤمنين ركابنا
في سيرها والييد بعد الييد	فالخمس بعد الخمس يذهب عرضه
نسري بدر في الدآدي السود	نجلو بغرته الدجى ، فكأنتنا
غلل الظما عن بحره المورود	حتى وردنا بحره فتقطعت
ويرى مكان السؤدد المنشود	في حيث يعتصر الندى من عوده

أنصاره من عدّة وعديد	في هضبة الاسلام حيث تكاملت
تغنوا له نظر الملوك الصيد	مترادفين على سرادق أغلب
أيقنت أن الغاب غاب اسود	جو اذا ركز القنا في أرضه

واذا السلاح أضاء فيه حسبه
ومدربين على اللقاء يشفهم
لحقت خطاه الخالعين وأثقت
براً تآلق فيه بحر حديد
شوق الى يوم الوغى الموعدود
عزماته في الصخرة الصيخود^(١)

★ ★ ★
ورمى سواد الأرمنين وقد غدا
فغدوا حصيداً للسيوف تكبهم
وله وراء المذنبين ودونهم
واناة مقتدر تكفكف بأسه
في عقر دارهم قدار ثمود^(٢)
أطرافهن ، وقائماً كحصيد
عفو كظل المزنة الممدود
وقفات حلم عنده موجود

★ ★ ★
حاط الرعيّة حين ناط أمورها
قدّاهم نور النبيّ وخلفهم
لن يجهل السارى المحجّة بعدما
كانوا أحقّ بعقد بيعتها ضحىّ
عرفوا بسيمائها فليس لمدّع
فئت أحاديث النفوس بذكرها
والياس احدى الراحتين ولن ترى
بثلاثة بكروا ولاة عهدود
هدى الامام القائم المحمود
رفعت لنا منهم بدور سعود
وبنظم لؤلؤ تاجها المعقود
من غيرهم فيها سوى الجلمود
وأفاق كلّ منافس وحسود
تعباً كظن الخئب المكدود^(٣)

المتوكل وخلق القرآن :

مرّ بنا ان من أعمال المتوكل المهمة في مطلع استخلافه ابطله الخوض
في مسألة خلق القرآن ، التي بناها المعتزلة ، وشدّد في أخذ الناس بها :
المأمون والمعتصم والواثق ، وقد تعرّض كثير من رجال الدين الذين وقفوا
ضده هذه المسألة الى الاضطهاد والتكيل ، وقد اطلق عليها كثير من المؤرخين
اسم « المحنة » ♦

وكان احمد بن ابي دواد قاضي قضاة المعتصم والواثق وفترة من عهد

(١) الصيخود : الصمّاء الراسية الشديدة .

(٢) قدار ثمود : هو قدار بن سالف عاقر ناقة الله .

(٣) الديوان ٦٩٧/٢ - ٧٠١ .

المتوكل ، من القائلين بها ، والمؤيدين لها • وكان احمد هذا - الى جانب ذلك - كريماً نصيحاً مقررّاً للعلماء والأدباء ، وقد امتدحه كثير من الشعراء ، منهم ابو تمام ، وابو عبدالرحمن العطوي الذي انقطع اليه ، والذي لم يشتهر شعره الاّ بعد ان أمّ سامراء وأقام فيها •

وأصيب ابن ابي دواد هذا في سنة ٢٣٣ هـ بالفالج ، ثم تعرّض هو وابنه ابو الوليد الى غضب المتوكل سنة ٢٣٧ هـ ، وصدورت املاكهما وكل ما كان في حوزتهما ، ثم احدر أبناء احمد الى بغداد • وتوفى هو وابنه ابو الوليد في سنة ٢٤٠ هـ^(١) •

ان موقف ابن ابي دواد من مسألة القول بخلق القرآن كان مدعاة لهجائه من قبل الشعراء ، والبحتري الذي كان يقيم في هذه الاثناء في كنف المتوكل اتخذ من انحراف الخليفة عن اتقاضي وابنه ذريعة لمدح المتوكل ، واطهار عمله للناس ، من جهة ، وللنيل من ابن ابي دواد من جهة أخرى ! فابتدأ الايات بالثناء على المتوكل الذي وصف أيامه بالغرالحسان ، وبانه أعاد الدين فذاً بعد ان انقسم الناس فيه فئتين متخاصمتين ، وقسم ظهور الظالمين في كل بقعة من الارض ، فانزوى الظلم ولم يعد له مكان يعرف ، وقضي على المتجبرين الطغاة بدهاية دهاء كان من آثارها ما أصاب ابن ابي دواد الذي ترك جسماً هامداً لاجراك به ، ولا قدرة له على النطق الا ما كان بالاشارة والايماء ، ثم يمضي يهجو ويشفى بدائه العضال ، ويشمت بما آل اليه حاله ، وان انتطاسي قد تحير في أمره فأخذ يطمئه اشفاقاً ، ويمنيه تلطفاً ، وبعد ان شفى البحتري غليله مما أصاب المهجوف في جسمه انتقل للنيل منه في عقيدته ، فذكر ان اصحاب ابن ابي دواد لا يخوضون في مسألة خلق القرآن الاّ وهم نشاوى ، تدار عليهم الكؤوس في مجالس

(١) انظر : الطبري ١٦٣/٩ ، ١٨٩ - ١٩٧ وسامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٨٥ •

الشرب ، ثم انهى الأبيات بثلث أبي الوزير الذي لا نعرف سبب هجائه له
في هذا المكان :

أمير المؤمنين لقد سـكنا
رددت الدين فذآ بعدما قد
قصمت الظالمين بكلّ أرض
وفي سنة رمت متجبريهم
فما أبقت من ابن أبي دؤاد
تعربّ بارتباط الجرّز حتى
وما كانت غداة زمان يشـرى
تحيرّ فيه سابور بن سهل
إذا أصحابه اصطبحوا بليـلٍ
يديرون الكؤوس وهم تشاوى

الى أيامك الغرّ الحسان
أراه فرقتين تخاصمان
فأضحى الظلم مجهول المكان
على قدر بداهية عوان
سوى جسد يخاطب بالمعاني
رمته في اليدين وفي اللسان
سراطين الصرّاة ويهربان
وطاوله ومناه الأمانسي
أطالوا الخوض في خلق القران
يحدثنا فلان عن فلان

★ ★ ★

وآخر حادث أتنا غدونا
وكان إذا تسربل كل قبح
أهشّهم الى غير المعالي

نعوذ أبا الوزير من الزمان
وساءك في السماع وفي العيان
وأضحكهم الى غير الخوان^(١)

من صفات المتوكل :

وتتوالى غرر البحثري في المتوكل ويجهد ان يحتفل ما وسعه الاحتفال
بهذه الغرر ، فيضفى عليها من عبقريته الشعرية ، وطاقته الفنية ما يحيلها الى
نماذج مجتابة في بابها ، تخطر بالحلل الموشاة ، وتزهو بالأصباغ والشيات •
وهذه احدى خرائده التي قدّم لغرضه فيها بعشرة ابيات شككا فيها
حبيبه وما يقاسيه من جفائه واخلافه ، وما كان عليه هذا الحب من الجمال ،

(١) الديوان ٤/٢٢٩٠ - ٢٢٩٢ ، وانظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي

وما تخيل من مطاوعته له التي أتاحت له بعض الثيل منه ، ثم يلتفت الى الذي ينشد الجدا والعطاء فينصح له ان يؤم صوب الامام ، فيه ما يبتغيه من نوال ، وما يسعى اليه من ثراء ، فهو أجود من السحاب وأمضى من الحسام ، ساس الملك بالعدل والسداد ، وقام بالأمر خير قيام ، وهو اذا ما حمى الوطيس ، واستعرت الحرب ، وحزب الأمر وادلهم الخطب ، فرج المأزق بضرب دراك ، وجلّى الكرب بطعن نفاذ ، وهو بخلاله الحميدة ، وسجاياه الكريمة فرض حبه على الناس فرضاً ، - وهذا يذكرنا بدمائة خلق المتوكل وحب الرعيّة له ، وتقربهم منه كما أسلفنا • ثم هو ابن عم النبيّ ونسيه ، وفي المحل الزاكي من قريش : نفساً وديناً وعرضاً • والبحثري يحلو له ان يكرر ويعيد في هذه الاوصاف وبخاصة قرابة الخليفة من الرسول ، واشتماله ببردته والسير على سننه وطريقته ، وانتمائه الى قبيلة قريش التي تعدّ في مقدمة القبائل العربية شرفاً ومنزلة ومكانة :

أيّها العاتب الذي ليس يرضى
انّ لي في هواك وجداً قد استه
فجفوني في عبرة ليس ترقا
يا قليل الانصاف كم اقتضي عن
فاجرني بالوصل ان كان دينا
نم هنيئاً ، فلست أطعم غمضاً
لك نومي ، ومضجعا قد أفضّأ
وفؤادي في لوعة ما تقضى
دك وعدا انجازه ليس يقضى
وأثني بالحب ان كان قرصاً

★ ★ ★

أيها الراغب الذي طلب الجو
رد حياض الامام تلق نوالاً
فهناك العطاء جزلاً لمن را
هو أندى من الغمام واوفى
دبر الملك بالسداد فلبرا
يتوخي الاحسان قولاً وفعلاً
د فأبلى كوم المطايا وأنضى
يسع الراغبين طولاً وعرضاً
م جزيل العطاء ، والوجود محضاً
وقعات من الحسام وأمضى
ما صلاح الاسلام فيه ونقضا
ويطيع الاله بسطاً وقبضاً

وإذا تشنعت حومة الحر
 ورايت الجياد تحت مثار النقب
 غشي الدارعين ضرباً هذا ذيب
 فضل الله جعفرأً بخلال
 يا ابن عم النبي حقا ، ويا أز
 بنت بالفضل والعلو فأصبح
 ب ، وكان المقام بالقوم دحضا
 مع ينهضن بالفوارس نهضا
 لك ، وطعناً يورع الخيل وخضا
 جعلت حبّه على الناس فرضا
 كى قریش نفسا وديننا وعرضا
 ت سماء ، وأصبح الناس ارضا^(١)

المتوكل والخلافة :

وينشئ الشاعر مدحة أخرى ، ولعلها من نظم سنة ٢٤٠ هـ ، لا تقل
 عن سابقتها جودة سبك ، وروعة بيان ، وقوة أسر ، ولطف خيال ، وبعد
 التمهيد التقليدي بالغزل ينتقل الى وصف خلافة الممدوح ، ويشير الى انها
 سعدت به ، واثيرت بصيبح وجهه ، بل انها لبست من جلاله ما بدت كالسحر
 الذي تغشاه الصباح المقبل ، وجاءته طيعة راضية دون قتال او نزال ، وليس
 ذلك بعجيب اذا ما علمنا انها كانت ترقبه وتنظره منذ القدم ، وانها انحازت
 اليه وسعت نحوه ، لانه مستحقها دون غيره ، وقد رضي بها الشرع ،
 وسكنت اليها النفوس وقرت بها العيون ، وكانت مخايله كافية للتدليل على
 فضله واستحقاقه لها دون الحاجة الى شورى في ذلك ، وان الدنيا بدت
 بخلافته - وكأنها روضة مؤرجة مطلولة ، وان الربيع بحسنه وروعته
 وبفضل الخليفة وعنايته قد رقت أيامه وراقت حتى كاد الدجى يستحيل
 نوراً واشراقاً ، والجنبدل يجرى ماء رقرقاً ، وهذا يعيد الى الاذهان ما كانت
 توصف به أيام هذا الخليفة من الهدوء والاطمئنان والنضارة والحسن^(٢) . ولم
 يكن ينقص الخليفة البطولة والاقدام ، فانه قد أذلّ اعداءه ، وأخضع
 مناوئيه ، بنفس شجاعة ، ورأى حصيف ، وعزيمة مؤيدة ، ومنطق فصل .
 ثم هو قد أمت الضلال وأحيا السنة التي كادت ان يطوِّح بها في عهد

(١) الديوان ١٢١٤/٢ - ١٢١٦ .

(٢) انظر : ص ١٥٩ .

من سبقه من الخلفاء ، وهو يشير بهذا الى المتوكل بعد استخلافه ، حيث أمر بترك الجدل والخوض في مسألة القول بخلق القرآن التي أشرنا اليه فيما سلف^(١) . فاطمأنت الرعية المجتهدة ، وهدأت النفوس الحائرة ، وشمل الناس عدل واسع كانوا يفتقرون اليه ، وازاء كل ما تقدم فإن الله ورسوله سيرعيان عبدهما ويحفظانه من كل سوء ، واذا كانت الخلافة تضع الخلفاء في المرتبة العليا فإن فضل ممدوحه أفضل ، واذا كان العاشر في سلسلة الخلفاء العباسيين فإنه الاول في الفضل والندا والاحسان ، وان اشتد له ببرد الرسول وترسمه هداة لخير ما نرجوه في حكمه ونأمله :

اليوم أطلع للخلافة سعدها وأضاء فيها بدرها المتهلل
لبست جلالة جعفر فكانتها سحر تجلله الصباح المقبل
جاءته طيعة ولم يهزز لها رمح ، ولم يشهر عليها منصل
أنى وقد كانت تلفت نحوه من قبل أن يقع انقضاء فتعقل
حتى أتته يقودها استحقاقه ويسوقها حظ اليه مقبل
عن بيعة الا تكن عقية فهي التي رضي الكتاب المنزل
لم تصرف عنها النفوس ولم تزغ فيها القلوب ولم تزل الأرجل
فكأنما الدنيا هنالك روضة راحت جوانبها تراح وتوبل
او ما ترى حسن الربيع وما بدا وأعاد في أيامه المتوكل
أشرقن حتى كاد يقبس الدجى ورطبن حتى كاد يجري الجندل
من بعدما اسودّ الزمان المنتضى فينا ، وجفّ لنا الشرى المتبلل

★ ★ ★

الله سهل بالخليفة جعفر من دهرنا ما لم يكن يتسهل
ملك اذل المعتدين بوطأة ترسو على كند الزمان وتنقل
نفس مشيعة ورأي محصد ويد مؤيدة ، وقول فيصل

★ ★ ★

(١) انظر : ص ١٨٩ .

اسلم أمير المؤمنين لسنة
ورعية أحسنت رعى سوامها
فضل الخلائف والخلافة واقف
أوفيت عاشرهم فان ندبوا الى
أحييتها والناس حيرى ضلل
حتى غدت والعدل فيها مهمل
في الرتبة العليا ، وفضلك أفضل
كرم واحسان فأنت الاول^(١)

الوفد الرومي في سامراء :

وفي سنة ٢٤١هـ يتفق الروم والمسلمون بعد محادثات ومفاوضات حول
أمر الفداء بين رعاياهم ، ويبدو ان الذي طلب هذا الفداء هم الروم في عهد
ملكتهم تدورة التي كان في حوزتها عدد كبير من المسلمين ، وقد عرضت
عليهم التنصر فمن امتنع عن ذلك كان مصيره القتل ، وقد قتلت عدداً كبيراً
منهم ، ثم ارسلت تطلب المغادة لمن بقي منهم في ديارها ، فأرسل المتوكل
رسولاً عهد اليه ان يتقصى عدد المسلمين في بلاد الروم ، ثم اتفق الطرفان
على الفداء ، وتم ذلك على نهر اللامس^(٢) من بلاد الروم ، يوم الاحد
لاشتي عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة وحضره من المسلمين قاضي
القضاة جعفر بن عبدالواحد^(٣) .

وبالطبع ان حادثاً مهماً كهذا لم يكن ليفوت الباحثي تسجيله والاشادة
بمن قام به ، ويبدو من قصيدته ان وفداً من الروم قد وصل فعلاً الى
الحاضرة العباسية سامراء ، وان الخليفة قد أولم له وأظهر من الأبهة

(١) الديوان : ١٧٥٤/٣ - ١٧٥٧ .

(٢) جاء في معجم البلدان لياقوت ٨/٥ من طبعة بيروت ما نصه :
« لامس : من قرى الغرب فاذا جرت قلميية الى البحر نحو مرحلة بان
لك مكان ، وكان يعرف باللامس وهي قرية على شط بحر الروم من ناحية
ثغر طرسوى ، كان فيه الفداء بين المسلمين والروم يقدمون في البحر فيكونون
في سفنهم والمسلمون في البر ، ويقع الفداء » .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ٢٠٢/٩ - ٢٠٣ ، والكامل في التاريخ

٧٦/٧ - ٧٧ .

والبنخ ما جعل أعضاء الوفد يصابون بالدهشة والحيرة مما رأوا •
فبعد المقدمة الغزلية التقليدية ينتقل الشاعر الى الشناء على المتوكل
وتقريظه فيقول : ان الرعية تعيش في بحوحة من الأمان والطمأنينة والعدل
بفضل ما يسوسهم به هذا الخليفة الذي يعيد الى الاذهان سياسة الخليفة
العاقل عمر بن الخطاب ، وان الله اجتناب لهذا المركز الجليل وهو الخلافة ،
لانه رأى فيه ناصرأ لها ، وذائداً عنها ، وهي - اي الخلافة - أفضل رتبة
يحرزها انسان ، وأسمى ما يتمناه ، ولكنه مع كل هذا فهو أفضل منها ،
وهو عفو عن الجائنين والمذنبين ، ولكنه عفو القادر المتزن الذي لا يتهور
ولا يتعجل ، ففعوه كعفو السحاب الذي في ارعاده القصف المحطم ، وفي
بريقه الحريق المدمر ، وهو يقتدي في كل أعماله وأقواله - بجده العباس
اعم الرسول الكريم ووصيه • وبالطبع ان شخصاً كهذا لا يدانيه آخر في
رفعة المجد وشرف المحتد •

ويبدو ان الشاعر حاول ان يجهر لاول مرة باسم من يناوئون المتوكل
الذين أسماهم الروافض ، وهم فرقة من الشيعة ، وقد ألمح - فيما يخيل
الينا - الى منافسي المتوكل وهم العلويون ، قبل هذه المرة في قصيدته الدالية
التي اسلفنا ذكرها^(١) • فهؤلاء الروافض ليسوا بمستطيعين ان يناوؤا منه ،
ومما هو فيه من سمو الحظ ، ورفعة المنزلة ، شيئاً مهماً صغر وضؤل ، ثم
يأخذ بالثناء على عمل الخليفة الذي كان له شرف مغادرة أسراه من قبل الروم ،
فالمسلمون في ظل حكمه العادل ، وشمول رعايته - في عيشة راضية وحرمة
مصونة ، وهل هناك شيء أكثر دلالة على أياديه لهم ، وحياطته حريمهم ،
وتحصينه بيضتهم من هذا الفداء الذي كاد ان يعجز غيره ويستحيل أمره ؟
والشاعر بعد هذا يصف لنا بشيء من التفصيل وفد الروم الذي قدم
الى سامراء ، ويبدو من هذا الوصف ان الشاعر كان قد شهد هذا الوفد

(١) انظر : ص ١٨٧ •

وما أعدّ له ، فهو يقول لقد شهد هذا الوفد بعد عناده وتغته ، معترفاً بجليل فضائل الخليفة ، وعظيم اعماله ، وهي مشهورة معلومة ، وقد بدوها حين رمقوه فتكلموا بلغتهم ، ولو قدر لهم معرفة العربية لراحوا مكبرين ومهللين بما رأوه من جلالته وعظمته ، وانهم ما كادوا يلمحونه حتى ضؤل في نفوسهم من كانوا يكبرونه ، وصغر في عيونهم من كانوا يجلبونه ، وانسه جبههم بحجج دامغة وبراهين ساطعة ، لا مثل لها في قوتها وبلاغتها ، ولعل في هذا اشارة الى ما دار بين أعضاء الوفد وبين الخليفة من حوار وجدال حول الاسرى ، والعلاقات الأخرى بين الفئتين .

ويستطرد البحثري فيصف لنا بشيء من المباهاة التي لا تخلو من الغلو والمبالغة ، ما أعدّ لاعضاء هذا الوفد من مآدبة حافلة عظيمة ، فهم حين حضروا هذه المآدبة كانوا قد ذهلوا ودهشوا من عظمة ما رأوه وشاهدوه ، حتى كانت أكفهم تخطيء سبيلها الى الافواه ، وقد رانت الحيرة عليهم فبهتوا ووجموا ، وجمخ الخيال بشاعرنا فادعى ان من غاب من الروم حسد من كان حاضراً منهم ، ويظهر ان امثال تلك الوفود ما كانت لتؤوب الى بلادها دون ان تنال شيئاً من الهدايا :

ان الرعيّة لم تنزل في سيرة	عمرية مذ سأسها المتوكل
الله آثر بالخلافة جعفرأ	ورآه ناصرها الذي لا يخذل
هي أفضل الرتب التي جعلت له	دون البرية وهو منها أفضل
ملك اذا عاذ المسيء بعفوه	غفر الاساءة قادر لا يعجل
واعفا كما يعفو السحاب ، ورعده	قصف ، وبارقه حريق مشعل
يتقيّل العباس عم محمد	ووصيّه فيما يقول ويفعل
شرف خصصت به ومجد باذخ	متمكّن فوق النجوم مؤثّل

★ ★ ★

فهل الروافض ناقصوك قلامة
ان غيروا بضلالهم أو بدلوا
لن يستطيعوا نقل خطك بعدما
أرسي به قدس وخيم يذبل

في ظل ملكك أدركوا ما أملوا
 وحملت من أعبائهم ما استقلوا
 من ينال ولا فداء يقبل
 عرفوا فضائلك التي لا تجهل
 نطقوا الفصيح لكبروا ولهلوا
 من كان يعظم فيهم ويبجل
 عصم الجبال لا قبلت تنزل
 قمر السماء التم ليلة يكمل
 مالت بأيديهم عقول ذهّل
 فتجور عن قصد السيل وتعدل
 مما يرى او ناظر متأمل
 لو ضمهم بالامس ذاك المحفل
 شهدوا، وقد حسد الرسول المرسل
 حبي الوفود به الهنيء الاعجل
 ودوام عمرك خير شيء يسأل^(١)

لا يعد منك المسلمون فانهم
 حضت بيضتهم وحطت حريمهم
 فاديت بالاسرى وقد غلقوا فلا
 ورأيت وفد الروم بعد عنادهم
 نظروا اليك فقدسوا ، ولو انهم
 لحظوك أول لحظة فاستصغروا
 أحضرتهم حججا لو اجتلبت بها
 ورأوك وضاح الجبين كما يرى
 حضروا السماط فكلما راموا القرى
 تهوي أكنهم الى أفواههم
 متحيرون فباهت متعجب
 وبود قومهم الألى بعثوا بهم
 قد نافس الغيب الحضور على الذي
 عجلت رفدهم ، وأفضل نائل
 فالله أسأل ان تعمر صالحا

ولا أظنني بحاجة الى التدليل على الوصف الحي لأعضاء الوفد
 وحركاتهم وتصوير ما ران على وجوههم من أمارات الدهشة والاعجاب ،
 فكل ذلك واضح بين !

المتوكل والقبائل العربية :

على الرغم من الهدوء الذي كان يسود أقطار الخلافة في عهد المتوكل ،
 فان بعض التحركات والمنافرات كانت تحدث هنا وهناك ، فكان الخليفة
 يقضي عليها ، اما بارسال الجيوش ، واما بتدخله الشخصي ووساطته ،
 ولعل من اهم الحوادث في غضون تلك الحقبة ، ما حدث بين قبائل بني تغلب

(١) الديوان : ١٥٩٩/٣ - ١٦٠٢ .

من قتال كاد يودى بها ويستأصل شأفتها ، وقد أشار البحري الى هذا الحادث بقصيدتين : وجهّ احدهما الى الفتح الذي لعب دوراً كبيراً في الوساطة أيضاً ، وقد مرّ بنا عند الكلام على صلة الشاعر به (١) .

أما الثانية فهي هذه القصيدة ، ويبدو ان البحري جهد ان يجعل القصيدتين في مستوى واحد من حيث النسج الشعر العالي ، ومن حيث معالجة المعضلة ووصف ما حدث بين أفراد القبائل من قتال مستعر ، بل حاول ان يقارب بين ما انطوت عليهما القصيدتان في عدد الأبيات أيضاً .

وقد مهد للغرض الأساس بستة أبيات ، أشار فيها الى صدود حبيته عنه حين رأت انتشار الشيب في عناره ، وشكا من جفائها وفلة وفائها ، وهو ما ذكره في مقدمة مدحته للفتح أيضاً . وقد حملته ناقة عريقة النسب ، فجازت به السباب والقفار ، حتى أجهدت فتشكت من الأين والنصب ، وقد حفيت أخفافها ودميت ، وقد آل على نفسه ألا يزور مقام الملوك ما لم يجهد مطيته وينصبها حتى يوهنها ويضعفها ، وهي تؤم القصور البيض - قصور اولياء نعمه في العراق ، وكسّ عنها بأرض بابل ، ثم الحاضرة العباسية سامراء حيث فيها من قصور الخليفة المتوكل : « الغرد والبديع » . واذا ما بدا « البرج المطل » (٢) ، في الليالي الحالكة الداجية ، فيرشدها الى مقصده ، ويقودها الى مبتغاه ! وانها تقصد زيارة أمير المؤمنين على الرغم مما تكابده من بعد النوى وشط المزار ، وان فضائله واحسانه ونداه عمت أقطار الخلافة ، فالناس في كل بلد يلهجون بها ، وبشيدون بصاحبها ، وانه حامي بيضة الاسلام ، وذائد عن حياضه ، وقد تقرر ذلك في نفوس الأخصام والاعداء ! فالرعية في ظله بأمن ودعة وسلام ، وانه لجدير بالمنصب الرفيع

(١) انظر : ص ١٢٣ .

(٢) يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجري » للوقوف على تفصيلات قصور المتوكل .

الذي تبوأه وهو الخلافة ، وانه بتسنّمه لها قد جلا الشكوك والريب عن الناس ، وأزال عن القلوب خوفها وعن البصائر والأبصار غشاوتها ، فلا ظلم ولا ظلام بعد اليوم ، وبعد هذه التوطئة يذلف الشاعر الى مبتغاه ومقصده فإذا به يتحسّر على ما أصاب أخواله من ربيعة من عفاء الديار ، واقواء الربوع ، وتفرقة الشمل ، وبعد ان كانت تعبّ من رحيق الحياة ، وتروى من مناهل النعيم ، اذا بها تتساقى كؤوس المنون ، وتتوارد حياض الحتوف فما يكادون يفترقون من وقعة دامية حتى يشبههم اليها كرتة أخرى السدم المطلول والتجيع المهذور ، وان نساءهم ليدفعن رجالهن اذا ما قعدوا عن الأخذ بأذحالمهم والقصاص من أخصامهم ، تزجهم الى ذلك حمية جاهلية مفطورة على الشغب ، وعزة كلبية متأصلة في النفوس ، عجز الرجال عن اخضاعها ، واعياها من كبح جماحها ، وهؤلاء فرسانها تضطرم نفوسهم حقداً ، وتعلج نغمة حتى لتضيق بها صدورهم فتضيق منها جواشئهم ودروعهم ، وانها لتكثر من القتل - ثاراً - في اعزّ نفوسها وأبنائها بأيدي تكاد من الحسرة والألم ان تحجم عن الطاعة والاذعان ، واذا ما فاضت دماء أبنائها من استعار الحرب واشتجار الرماح ، تذكرت ما حل بهم من القتل والدمار ففاضت دموعها ندماً وألماً وحسرة ، فهذه الرماح المشتجرة ، والسيوف الماضية ، كانت السبب في تقطيع اواصر الرحم ، ووشائج القربى .
واراقة الدماء •

وبعد هذا الوصف الحي المؤثر لما حصل بين هذه القبائل العربية المتناحرة التي تنتمى الى محتد واحد ، ينتقل البحثري الى الاشادة بفضل المتوكل في القضاء على هذه الفتنة ، واخماد اوارها المستعر ، فيقول : لولا تدخل الخليفة في هذا النزاع لحل في هذه القبائل الدمار والقتل والفناء ، ولكن عمله هذا - بشفاعة الفتح - قد أعاد اليها حياتها ، وسكّن منها نائرتها ، وان عهده الى الفتح القيام بهذه الشفاعة التي قضت على الاوتار والضغائن

لصنيع عظيم سيدكره ابناء هذه القبائل على مدى الازمان ، فقد تهيأ له ان يلمّ شعتهم ، ويؤلف شتاتهم ، بعد ان اوغلوا في العداة ، وتشرّبوا بالأحقاد ، فاذا بغاويها ترفع عن بصره غشاوة الثأر ، فيبصر صوى الهدى واعلام الرشاد ، واذا بمغاليها يقصّر من غلوائه ، ويخفّف من اندفاعه ، واذا بالرماح تركز ، والسيوف تغمد ، فتقرّ القلوب الواجفة ، وتشهد العيون الساهرة ، واذا بالسلام يفشو ، والهدوء يستتب ، والأمان ينتشر ، وقد جاءت - بعد ان ثابت الى رشدها ، وكفت عن شجارها - تعلن ثناءها الذي كأنه قطع الرياض المطولة ، وبدت ازاءه باوجه يلفعها الخجل ؛ لما اجترحته من الذنوب ، وقامت به من العصيان ، وليس لها من عذر غير ان حلم حلمائها قد تسفه بما جناه خلعاؤها ومفسدوها ، وربّ مشفقة حانية على ولدها تحاذر عليه من لقاء الجموع في حومة الوغى ، وتشابك المتطاحنين في معمعة الجلاذ ، أعيدت الطمأنينة الى قلبها المروع ، والسكنية الى نفسها الهلوع بما قام به من اصلاح ذات البين ، وافشاء السلام بين هذه القبائل المتناحرة :

منى النفس في أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها
وقد راغني منها الصدود ، وانما تصد لشيب في عناري يروعها

* * *

تشكى الوجا والليل ملتبس الدجي غريرية الانساب مرت بقيعها
ولست بزوار الملوك على الوجا لئن لم تجل أغراضها ونسوعها^(١)
تؤم القصور البيض من أرض بابل بحيث تلاقى « غردها » « وديعها »
اذا أشرف « البرج المطل » رمينه بأبصار خوص قد أرثت قطوعها
يضيء لها قصد السرى لمعانه اذا اسودّ من ظلماة ليل هزيعها
تزور أمير المؤمنين ، ودونه سهوب البلاد : رحبها ووسيعها
اذا ما هبطنا بلدة كر أهلها أحاديث احسان نداء يذيعها

(١) الأغراض : جمع غرض : وهو للرحل كالحزام للسرج .
النسوع : جمع نسع : سير ينسج عريضا تشد به الرحال . الوجا : الحفا .

حمى حوزة الاسلام فارتدع العدى

★ ★ ★

وقد علموا ألا يرام منيعها

أسيت لاخلوالي تبعة اذ عفت
بكرهي ان بانت خلاء ديارها
وأمتت تساقى الموت من بعدما غدت
اذا افترقوا عن وقعة جمعهم
ندم الفتاة الرود شيمة بعلها
حمية شغب جاهلي وعزة
وفرسان هيجاء تجيش صدورها
تقتل من وتر أعز نفوسها
اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها
شواجر أرماع تقطع بينهم

★ ★ ★

مصانعا منها ، وأقوت ربوعها
ووحشا مغانيها ، وشتى جميعها
شروبا تساقى الراح رفهاً شروعها
لاخرى دماء ما يطلّ نجيعها
اذا بات دون الثأر وهو ضجيعها
كليية أعيال الرجال خضوعها
بأحقادها حتى تضيق دروعها
عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها
تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرحام ملوم قطوعها

★ ★ ★

فلولا أمير المؤمنين وطوله
ولا صطلمت جرثومة تغليية
رفعت بضبعي تغلب ابنة وائل
فكنت أمين الله مولى حياتها
لعمري لقد شرفته بصنيعه
تألفهم من بعدما شردت بهم
فأبصر غاويها المحجة فاهتدى
وأمضى قضاء بينها فتحاجزت
فقد ركزت سمر الرماح، واغمدت
فقرت قلوب كان جمأ وجيها

★ ★ ★

لعاتد جيوب والدماء ردوعها
بها استبقت أغصانها وفروعها
وقد يئست أن يستقل صريعها
ومولاك فتح يومذاك شفيعها
اليهم ، ونعمى ظل فيهم يشيعها
حفاظ أخلاق بطيء رجوعها
وأقصر غاليتها ، ودانى شسوعها
ومخفوضها راض به ورفيعها
رقاق الظبا : مجفوها وصنيعها
ونامت عيون كان نزرأ هجوعها

وباعدها عما كرهت نزوعها

اتتك وقد ثابت اليها حلومها

ومشفقة تخشى الحمام على ابنها
تعيد وتبدي في ثناء كأنه
ربطت بصلح القوم نافر جأشها
بقيت ، فكم أبقيت بالعصو محسنا
لاول هيجاء تلاقى جموعها
سبائك روض الحزن جاد ربيعها
فقرت حشاها واطمأنت ضلوعها
على تغلب حتى استمر ظليها^(١)
ولا احسبني بحاجة للتنبيه الى ما انطوت عليه القصيدة من حكمة
النسيج ، ودقة الوصف وروعة البيان ، وجزالة اللفظ ، بل وصدق الشعور ،
وحرارة العاطفة ، حتى ليخيل لي ان أحداً لم يسبق البحري في اجادة
تصوير ما حدث بين الاخوان من التناحر والتصارع والشقاق !

شعب قبيلة ربيعة :

ومن الحوادث الداخلية ايضاً اضطراب قبيلة ربيعة وشعبها الامر الذي
حدا بالخليفة الى ان يبعث جيشاً للقضاء على ذلك • ومن الغريب ان التواريخ
لم تشر الى هذا الحادث - كما لم تشر الى الحادث السابق - ولولا شعر
البحري لجهلنا هذا الأمر ، ولما وقفنا على شيء منه •

والبحري يطلب الى هذه القبيلة التي وصفها بالاساءة والجنانية ان تقدم
فروض اشكر والاعتراف بالجميل الى الذي غفر لها هذه الاساءة والجنانية •
فان خروج هذه القبيلة وترويعها المناطق المجاورة كان السبب في غضب
الخليفة ، والمحفز له في ما قام به تجاهها ، واذا كانت عينه ساهرة وراعية
لمن هو في اقصي البلاد ، فكيف يغفل عن من يكون بالقرب منه ؟ ومن أجل هذا
فقد بعث جيشاً لجباً في اثر المسيئين ، ضاقت به - لكثرت - رحاب الارض ،
ولاح فرسانه كالحقور على جياذ الكواسر ، وما كادوا يرون رهج الكتائب
المتصاعد حتى طلبوا الأمان ، ولكن بعد فوات الاوان ، وكيف يطلبون
ذلك ، وهم بين وهج الحديد ، وتشاجر الأرماع ؟ ان اليوم الذي مرّ عليهم
كان يوماً عصيباً مريباً حتى لكأنه - من شدة وطأة الجيش عليهم ، وما

(١) الديوان : ١٢٩٦/٢ - ١٣٠١ •

كانوا يلاقونه من العنت والفرع - زمن من الازمان ، وحقبة من الحقبة ،
فاتصر جيش الخليفة ، واندحر الخارجون ، وحين راموا الفرار لم يجدوا
لهم مخرجاً ينفذون منه ، ولا وزراً يلجأون اليه ، فلم يكن لهم الا التسليم
والاذعان ، فأخذوا وكبلتوا بالأصفاد والحديد ، وجيء بهم الى الحاضرة •
والبحتري بعد هذا الوصف لحمية المتوكل وغضبه وقضائه على هذا
التمرد يعود فيلتمس منه ان يمنّ على هؤلاء الأسرى بفكّ قيودهم ،
والصفح عن زلتهم ، ويذكره بانه قد فعل مثل ذلك وقبل ذلك بقبيلة عربية
أخرى هي قبيلة تغلب ، ثم يمضي الشاعر ليخفف من حدة تأثر الخليفة
- فيشير الى تشابك الأنساب والأرحام بين القبائل العربية ، ومنها هذه القبيلة
التي تربطها بالخليفة وشيخة القريبي ، وصلة الرحم • وبعد ان شعر البحتري
بانه قد نجح في تليين جانب الخليفة ، وترقيق قلبه على الأسرى ، أخذ يشني
على افضاله وفضائله ، وانه - اي الشاعر - أخذ يفضل على الآخرين من
افضال الخليفة عليه ، وانه قد اعداه بالكرم حتى أفقره ، وهذا ما يذكرنا
بقول احدهم مثل هذا المعنى^(١) ، واذا صدق البحتري في قوله هذا ، فان
ذلك خير دليل على نفي تهمة البخل التي الصقت به :

أربعة الفرس ! اشكرى يد منعم وهب الاساءة للمسيء الجاني
روعتم جاراته ، فبعثتم منه حمية آنف غيران
لم تكرعن قاصي الرعية عينه فينام عن وتر القريب الداني

(١) جاء في اخبار البحتري ص ٨٢ ما نصه : وسمع ابو الغوث يحيى
ابن علي ينشد قول ابن الخياط المدني (في المهدي) :
لمست بكفي كفه أبنتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت ، واعدانبي فاتلفت ما عندي
فقال : لأبي ما لا يقصر عن هذا ، وهو قوله :

من شاكر عني الخليفة في الذي (وذكر الابيات الاربعة الاخيرة) •
وأكبر الظن ان البحتري قد استحضر في ذهنه صورة بيتي ابن الخياط
حيث أنشأ أبياته هذه •

ضاقت بأسعد أرضها لما رمى
 بفوارس مثل الصقور وضمّر
 لما رأوا رهج الكتاب ساطعا
 يثلون من حرّ الحديد وخلفهم
 يوم من الايام طال عليهم
 راموا النجاة وكيف تنجو عصبة
 جاءتك أسرى في الحديد اذلة
 فافكك جوامعهم بمنك انها
 لك في بني غنم بن نعلب نعمة
 من شاكر عني الخليفة في الذي
 حتى لقد أفضلت من أفضله
 ملأت يدها يدي ، وشرّد جوده
 ووثقت بالخلف الجميل معجلاً

ساحاتها بالرجل والفرسان
 مجدولة ككواسر العقبان
 قالوا : الامان ، ولات حين امان
 شعل الظبا وشواجر الخرسان
 فكأنه زمن من الازمان
 مطلوبة بالله والسلطان
 مشدودة الايدي الى الاذقان
 سمرت على أيدي ندى وطعان
 فهلهم أخرى في بني شيان
 أولاه من طول ومن احسان
 ورأيت نهج الجود حين أراني
 بخلي ، فأقترني كما أعانني
 منه فأعطيت الذي أعطاني^(١)

سفر المتوكل الى الموصل :

يشير المتوكل في احدي مدائحه للمتوكل الى سفر الخليفة الى مدينة
 الموصل على رأس جيش لجب ، يبدو انه كان ينوي فيه غزو بلاد الروم ،
 وهذه الرحلة او الغزوة لم تشر اليها المصادر المختلفة ، ما عدا البحري^(٢) .
 والقصيدة لم يمهدها بالغزل على طريقة الشاعر التقليدي ، وانما
 افتتحها بالقول : بان أمور الدين قد جمعت بعد تفرقتها وشتاتها بالخليفة

(١) الديوان : ٢٢٥٢/٤ - ٢٢٥٥ .

(٢) جاء في دائرة المعارف الاسلامية ٣/٣٦٦ تعليقا على ما ذكره
 البحري في ديوانه من اسماء للاشخاص والحوادث في عصره ما نصه :
 « ولذلك فان ديوانه مادة خصبة لتاريخ هذا العصر ، وان كان لا يضيف
 شيئا من التفاصيل لحوادثه ، وحسبه انه ذكر الاسماء الكاملة للاشخاص
 وذكر حوادث أغفلها المؤرخون » .

المتوكل ، الموفق والميسر لكل صالحه من الأعمال ، والمحبب واؤمل في الصالحين من الناس ، واذا أراد تنفيذ ما يعزم عليه فليس يمنعه من ذلك عاذل أو مشبّط • وخرج بجيوشه مبكراً قاصداً الايقاع بالروم ، في يوم مشهور معلوم ، ولعل هذه اشارة الى ان السفر كان في وقت معين ، ويبدو انه كان في أيام العيد بدليل البيت السابع في هذه القصيدة ، وأمل الشاعر ألا تقف زحوف هذه الجيوش حتى تصل الى الخليج (اي البوسفور) ، ولعله تحرّى في هذا بعث العزيمة في نفس الخليفة ، وازجائه الى التوغل في اعماق الدولة الرومانية ، ثم يمضى الشاعر فيدعو للخليفة بادامة الأعياد واستمرارها ، ومجازاته بنعيم الفردوس وخلودها ، لما عليه من التبتل والتنسك والعبادة ، والسير على هدى الرسول وسنته ، والتمسك بكتاب الله وأحكامه • وشخص هذه صفاته تحقيق بأن يرث الخلافة عن النبي ، وان الخلافة لجديرة به دون سواه ، لانه خير من يحمى حوزتها ، ويذود عن حماها ، فالشاعر لم يفصح لنا ماذا كانت نتيجة هذا السفر او الغزوة الى بلاد الشام • واكبر الظن انها لم تتعد الموصل ، وان هذه الجيوش لم تشارك في حرب أو صدام مع أحد من الأعداء ، وان ما أمّله الشاعر في هذه الحملة لم يلق صدق لدى الخليفة !

والبحتري الذي عرف بتعصبه لبلده قد اتخذ من هذا السفر ذريعة لاغراء المتوكل في التوجه الى الشام ، فهو يعلن عن شعوره الذي لا يخلو من الرغبة الملحة في زيارة الخليفة لبلده ، فهو يقول : انه لو كان يحسد أو ينافس أحداً ، لكان أهل الموصل أول المحسودين والمنافسين بهذه الزيارة • ويبدو ان هذا السفر كان في أيام الربيع ، والبحتري الذي المح الى منافسته وحسده أهل الموصل بهذه الزيارة ما لبث ان أعلن بصراحة عن الوقت الذي سوف يحظى به بلده بمثل هذه الزيارة •

ومن غير شك ان هذه الاشارات ما لبثت ان تكررت بعد ذلك في شعره

حين عزم المتوكل على اتخاذ دمشق عاصمة له بدلاً من سامراء •
والحق ان هذه القصيدة وان انطوت على كثير من الاشارات حول هذا
السفر ، فانها لم تجل لنا جلاء واضحاً عن اهداف هذا السفر وعن الغاية
منه • ولكنها من جهة اخرى تكشف لنا عن أمر أغفلته المراجع القديمة
المختلفة كما أسفنا :

جمعت أمور الدين بعد تزييل	بالقائم المستخلف المتوكل
بموفق للصالحات ميسر	ومحبب في الصالحين مؤمل
ملك اذا أمضى عزيمة أمره	لم يشن عزمته اعتراض العذل
بكرت جياذك والفوارس فوقها	بالمشرفية والوشيج الذبل
غراً محجلة تحاول وقعة	بالروم في يوم أغرّ محجل
وأظن أنك لا تردّ وجوهها	حتى تسيخ على الخليج بكلل
دامت لك الاعياد مسرورا بها	في العز منك وفي البقاء الاطول

★ ★ ★

عرفتنا سنن النبي وهديه	وقضيت فينا بالكتاب المنزل
حقا ورثت عن النبي ، وانما	ورث الهدى مستخلف عن مرسل
عادت بحقوقك الخلافة ، انها	قسّم لأفضل هاشم فالأفضل
وتمتعت في ظل عزك فاغتدت	في خير منزلة وأحصن معقل
فاعمر جوانبها بجذّ صاعد	والبس بشاشتها يحظ مقبل
لو كنت أحسد أو انافس معشراً	لحسدت او نافست أهل الموصل
غشي الربيع ديارهم وغشيتها	وكلاهما ذو بارق متهلل
فمتى تخيم بالشام فيكتسى	بلدى نباتاً من نذاك المسبل ^(١)

انتقال المتوكل الى دمشق :

» حاول غير واحد من خلفاء بني العباس الذين اتخذوا سامراء عاصمة

(١) الديوان : ١٦٢٦/٣ - ١٦٢٨ -

لهم الانتقال عنها الى مكان آخر ، في ظروف مختلفة ، وازمان متباعدة ، ولو اردنا أن نتلمس الاسباب التي دعت اولئك الخلفاء الى التفكير في الانتقال عن هذه المدينة لما وجدنا غير سبب كبير تنطوي تحته أسباب فرعية أخرى : هذا السبب الأكبر هو نفس السبب الذي أدى الى ابتناء المدينة ، واتخاذها مقرّاً للحكم بدلاً من العاصمة الأصلية بغداد ، ونعنى به استفحال أمر الأتراك واستشراء خطرهم على الخلفاء .

وقد مرّ بنا ان من اسباب ابتناء سامراء زيادة جنود المعتصم من الأتراك ، وضيق بغداد بهم ، واشتمزاز أهلها من أعمالهم وحمقاتهم ، مما حدا بالمعتصم الانتقال بهم الى مدينة جديدة بعيدة عن بغداد وأهلها .

واستمرت علاقة الأتراك بالخلفاء حسنة ، ولا سيما في عهد الخليفين : المعتصم والواثق . بيد ان هذه العلاقة الحسنة ما لبثت أن توترت في عهد الخليفة المتوكل الذي حاول - بجد - أن يقاوم هذا العنصر الجديد ، ويقضي على عتوه وجبروته وعلى رأس هذا العنصر المتفطرس (ايتاخ) التركي الذي كان مسؤولاً عن الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابه ودار الخلافة . واستطاع المتوكل ان يدبر لهذا القائد مكيدة يبعده بها عن سامراء ، ومن ثمّ يأمر بالفتك والتخلص منه ، غير ان القضاء على قائد الأتراك هذا لم يكن - على ما يبدو - كافياً للتخلص من نفوذهم وشورورهم : لذلك نجد المتوكل قد عمد الى وسيلة أخرى للنيل من الأتراك ، فعزم على الانتقال الى عاصمة أخرى في قطر آخر غير العراق ، علّه يجد فيها من العنصر العربي ما يغنيه عن العنصر التركي ، فاختار لهذا الأمر مدينة دمشق ، وكتب الى عامله هناك : باتخاذ القصور واعداد المنازل ، واصلاح الطريق ، واقامة المرافد ، ثم شخص اليها من سامراء في سنة ٢٤٣ هـ ودخلها في سنة ٢٤٤ هـ .

ولكنه لم يمكث فيها الا فترة وجيزة اضطر بعدها ان يعود الى عاصمته القديمة سامراء !

ويذكر المؤرخون أسباباً عديدة لترك المتوكل دمشق والأوبسة الى سامراء ، فقد قيل : انه استوبأً البعد ، وذلك ان الهواء بها بارد ندىّ والماء ثقيل ، والرياح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الاسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة • على ان هناك سبباً آخر أشارت اليه المراجع القديمة لعله كان السبب الحقيقي لترك المتوكل دمشق والرجوع الى العراق • فقد ذكر ان الجنود الأتراك حاولوا ان يدبروا مكيذة لاغتيال المتوكل في دمشق ، قال يعقوبي : وبلغه - المتوكل - عن بعض الموالي من الأتراك امر كرهه فشنخص عن دمشق الى العراق • وقال المسعودي : وقد كان الأتراك قد رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير •

وتذكر بعض المراجع سبباً آخر دعا المتوكل الى الانتقال عن سامراء الى دمشق ذلك انه كان محروراً ، فوصف له برد هوائها ، وطيب مناخها ، وقال يعقوبي : وعزم المتوكل على المسير الى دمشق ووصف له برد هوائها وكان محروراً فكتب الى عامله محمد بن احمد بن مدبر بأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل •

وربما كان من اسباب تفكير المتوكل في الانتقال عن سامراء الى دمشق ، عصية البحتری للقطر الذي ينتمى اليه^(١) • هذه - في رأينا - هي الاسباب الجوهرية في انتقال المتوكل الى دمشق ، وفي اياها منها بعد مكوته مدة قليلة الى عاصمته الاولى سامراء •

لقد سجل البحتری تسجيلاً لطيفاً دقيقاً هذه الرحلة ، او المحاولة لاتخاذ المتوكل دمشق عاصمة له • وجهد ما وسعه الجهد ان يحبب دمشق الى الخليفة ، واتخذ لذلك وسيلتين : الاولى ، وهي النيل من العراق عن

(١) منقول من كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٣٣٥ - ٣٣٧ » •

طريق هجائه له وبخاصة ما يتصل بمناخه الذي وصفه بأنه نكد وحرار وما الى ذلك ، والثانية : الاشادة بدمشق واطراء مناخها بكل ما أوتى من قدرة بياينة ، ومكنة أدبية ، كما سنرى ذلك بعد قليل .

وللبحتري أكثر من قصيدة في وصف هذا السفر او النقلة ، وقد أشرنا فيما سلف الى تلميح الشاعر برغبته في اناخة ركاب الخليفة في دمشق عند سفره الى الموصل . ولكن البحتري ما لبث ان جعل هذا التلميح تصريحاً ودعوة ملحة في عدد من القصائد أنشأها - على ما يبدو - بعد تلك القصيدة . ويخيل لنا ان اول قصيدة أشار فيها الى سفر المتوكل الى دمشق هي رائيته التي هناؤها بالفطر .

ولكن أين أنشأ البحتري هذه القصيدة ، او بالحرى في اي مكان أنشدها المتوكل ؟ هل في سامراء او في دمشق ؟ أغلب الظن أنه أنشأها وأنشدها في سامراء ، بدليل قوله في أحد أبياتها :

هنيئاً لأهل الشام (انك سائر) اليهم مسير القطر يتبعه القطر
فهو يشير الى ان الخليفة سائر اليهم ، في حين يقول ايضاً فيها :

لعمري لقد زرت (المصلّى) بجحفل يرفرف في اثناء راياته النصر
فأين هذا المصلى الذي زاره الخليفة . من الواضح انه زار المصلى اولاً ثم سار الى اهل دمشق ، واذا صحّ هذا ، فمعنى ذلك انه أدّى الصلاة في مسجد سامراء ثم بعد ذلك توجه الى دمشق .

والحق ان قصيدة البحتري هذه تعدّ صدى لرائيته التي أنشدها المتوكل في عيد الفطر ، والتي ذكر فيها ما ذكره هنا من الاوصاف المختلفة حتى يمكن القول بان القصيدتين متشابهتان الى حد كبير - معنى ولفظاً^(١) . والبحتري لم يفتح قصيدته هذه بالجزل ، وانما بدأها بالمدح مباشرة ،

(١) أنظر ص ١٧٢ .

دون تمهيد فِعطاء المدح يفوق عطاء الأنواء ، وفخره لا يماثله فخر ، وهو في منزلة ليس بوسع احد ان يساميه فيها او يدانيه ، وان الدنيا حسنت وزنت بفضل عدله ورعايته ، وبشرى ترف لأهل الشام ؟ لانه قاصدهم وسائر نحوهم ، وسينالون من فيض معرفته ما يكفيهم ويغمرهم ، وقد مضى شهر رمضان الذي صامه محملاً بالحمد ، ولو كان باستنطاعته ان يتكلم لأثنى عليه ، بما أولاه من عناية وتقديس ورعاية ، وهذا ما يذكرنا بقوله في رائيته السابقة مما يقرب من هذا المعنى :

فلو ان مشتاقاً تكلف غيرما في وسعه لمشى اليك المنير
وقدم في هذا الشهر ما ينبغي عليه تقديمه من الفروض والتقوى والورع
والأعمال الصالحة ، ما سيكون له خير ذخر وزاد في الدار الأخرى !
وزار المصلّى على رأس جيش لجب مظفر كأنه جبال من الحديد ، تحملها
الناس في ساحات الوغى والجلاد ، وسار بمواكب ، تدل على عزّ الملك ،
وتنبئ عن عظيم السلطان ، ولكنه متواضع متخشع لا تلمح فيه زهواً ولا
كبرياء ، وقد اشتمل برداء الرسول ، وتعمم بعتمه ، وتقلد سيفه وهي
علامات الخلافة في ذلك العهد ، وتزياً بوقاره ، وتهدي بهديه ، ثم صعد
المنبر فملأه ضياء واشراقاً ، وألقى خطبة ألانت القلوب القاسية ، كأنها مبثوث
الزهر ، ومنثور المؤلؤ ، وكان فيها مجارياً آباءه السابقين : كالمصور
والسجاد والحبر •

وهذه المعاني سبق له ان ذكرها في قصيدة سابقة ، وبالإمكان الرجوع إليها للوقوف على ما بينهما من الموافقة والمثابفة :

أبراً على الأنواء نالك الغمسر وبت بفخر ما يشاكله فخر
وانت أمين الله في الموضع الذي أبى الله أن يسمو الى قدره قدر
تحسنت الدنيا بعدلك فاعتدت وآفاقها بيض ، وأكنافا خضر
هنيئاً لأهل الشام انك سائر اليهم مسير القطر يتبعه القطر

وتطلع فيهم مثلما يطلع البدر
 لأننى بما أوليت أيامه الشهر
 أتيت ، فلا لغو لديك ولا هجر
 وكل الذي قدمت من صالح ذخر
 يرفرف في أثناء راياته النصر
 وفيها الضراب الهبر والعدد المنثر
 وما بك زهو بين ذين ولا كبر
 وانت به أولى اذا حصحص الامر
 وسيماء والهدى المشاكل والنهجر
 ضياء واشراقا كما سطع الفجر
 مقام امام ترك طاعته كفر
 بموعظة فصل يلين لها الصخر
 هي الزهر المبثوث واللؤلؤ النثر
 ولا خانك السجّاد فيها ولا الحبر^(١)

تفيض كما فاض الغمام عليهم
 مضى الشهر محموداء ولو قال مخبرا
 عصمت بتقوى الله والورع الذي
 وقدمت سعيًا صالحًا لك ذخره
 لعمرى ! لقد زرت المصلى بجحفل
 جبال حديد تحتها الناس في الوغى
 وسرت بملك قاهر وخلافة
 عليك ثياب المصطفى ووفاره
 عمامته وسيفه ورداؤه
 ولما صعدت المنبر اهتزّ واكتسى
 فقامت مقاما يعلم الله انه
 وذكرتنا حتى ألت قلبونا
 بهرت عقول السامعين بخطبة
 فما ترك المنصور نصرك عندها

بين العراق ودمشق :-

وينطلق البحثري في تدييح التصيد الذي يغرى به المتوكل بالسفر
 ويحبب اليه دمشق ، ولا يفوته في خلال ذلك من التصدي للعراق والنيل
 منه ، امعاناً في اغراء المتوكل وازجائه الى تفضيل بلده على سواه ، فهذه
 احدى قصائده التي يبدو منها انه أشمأها في اثناء سفر الخليفة ، وقد خصص
 نصفها لطريقته التقليدية ، واعنى بها الغزل - وقد نحا فيها منحى السهولة
 والديونة ، كما اختار زناً قصيراً لها ، وكأنى به أراد بها ان تكون أهزوجة
 أو أنشودة يرتلها في ركاب الخليفة ، ويث فيها سروره وفرحه بهذا
 السفر • فبعد التقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى هجاء العراق الذي آواه

(١) الديوان : ٩٩١/٢ - ٩٩٤ .

وأكرم مشواه ، ولكنها العصبية ، فهو يعلن انه قد رحل عن العراق ، ومن
نكد قيظه ، واتجه صوب دمشق ، البلد الجميل ، حيث الليل الخضر
والزمن النضر •

فهذا السفر يجدد اللهو واللذات ، لما فيه من أيام حسنة جديدة ، وقد
خار الله للخليفة فيه سداداً ورشداً ، ولا ينسى البحري ان يمتدح الخليفة
بالقدرة والتمكن والحياطة للمدين والاجتهاد فيه ، كل ذلك ليحشه على
مواصلة السير نحو دمشق :

مخلف في الذي وعد سيل وصلاً فلم يجد
فهو بالحسن مستبدٌ وبالعدل منفرد
قد رحلنا عن العرا ق ، وعن قيظها النكد
حبذا العيش في دمش ق اذا ليلها برد
حيث يستقبل الزما ن ، ويستحسن البلد
سفر جدت لنا ان لهو أيامه الجدد
عزم الله للخليف فة فيه على الرشد
ملك تعجز البرية عن حل ما عقد
يا امام الهدى الذي اتا ط للدين واجتهد
سر بسعد السعود في صحبة الواحد الصمد
وابق في العز والعد و لنا آخر الأبد^(١)

صيف دمشق وشماء العراق :

وتتوالى أغاريد الشاعر وأهازيجه حائناً فيها المتوكل على إغذاء المسير ،
ومواصلة السفر ، وقد عمد أن لا يطيل فيها كما عهدناه في مدائحه الأخرى ،
كما قصد أن تكون سهلة لينة لتكون أعلق بالأذهان ، واسهل دوراناً على
اللسان ، كما بث فيها عواطفه المتأججة ، وأعلن عصبته انطاغية نحو بلده

(١) الديوان ٧٠٧/٢ - ٧٠٨

الشام ، وندد ما وسعه بالعراق ووصمه بوخامة الجوى وسوء المناخ ، فجعفر وهو المتوكل قد جعل الله له حياطة الدين ، والقضاء على المنافقين ، ومن أجل هذا فطاعته فرض على الناس والخروج على طاعته كفر وجحود ونكران ، ومن لم يكن نصحه له من سويداء قلبه خالصاً تقياً فليس له نصيب في دينه ، ولعله يريد بهذا نصيح الخليفة في الانتقال من عاصمته الجديدة الى دمشق^(١) ، وبعد أن يدعوا له بالسلامة وطول البقاء ينتقل الى الغرض الأساس وهو الاشادة بمدينة دمشق ، فها هي قد استحالت جنة زاهية زاهرة ، ذات جو رائع غضّ الندى ، وماء رقرق ، عذب المذاق ، والزمن طلق بين أفيائها الظليلة ، والعيش رغد في اكنافها الممرعة الخضبية ، وهي تنظر بلهفة نحو قاصدها ، وترنو بشوق الى قربه ولقائه ، وكيف لا يتخذها مقراً له على غيرها ، وصيفها في برودته ولطافة جوه كشتاء العراق ، ومعنى هذا ان صيف العراق لا يحتمل ولا يطاق الامر الذي لا معدى للخليفة من التفكير به والتصميم على اتخاذ بلده الشام مستقراً له :

قد جعل الله الى جعفر	حياطة الدين ، وقمع النفاق
طاعته فرض وعصيانه	من أعظم الكفر وأعلى الشقاق
من لم يبحك النصيح من قلبه	فما له في دينه من خلاق
فاسلم لنا يسلم لنا عزنا	وابق ! فان الخير ما عشت باق
ان دمشقاً أصبحت جنة	مخضرةً الروض عذاة البراق
هواؤها الفضفاض غضّ الندى	وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أفيائها	والعيش فيها ذو حواش رقاق

(١) من الجدير بالذكر ان يزيد المهلبى أحد الشعراء المقربين من المتوكل قال حين عزم المتوكل على الانتقال الى دمشق :

اظنّ الشام تشمت بالعراق اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق
انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى .

ناظرة نحوك مشتاقة منك الى القرب ووشك التلاق
وكيف لا تؤثرها بالهوى وصيفها مثل شتاء العراق^(١)
مزايا دمشق :

ويسترسل البحري في أناشيده العذبة يدبّجها برائع لفظه ، ويوشحها
بديع فنه ، وينغمها بعذوبة موسيقاه ، وكيف لا يحشد فيها كل ما اوتي من
طاقة فنية ومكنة أدبية ، وهو يرى ثمرة جهوده قد أينعت ودانت أكلها ، فها
هو قد نجح في حمل الخليفة على ترك عاصمته الاصلية والتوجه الى بلده
ليتخذ مقرأ له بدلاً منها :

وهو ما ينفك يديء ويعيد في اطراء الشام تحيياً للخليفة وتأكيذاً لما
كان يقوله له عنها ، وها هو الخليفة ينزل « دارياً » وهي قرية من قرى
الغوطة تقع على بعد نحو ثمانية كيلومترات الى الجنوب الغربي من دمشق ،
ينزل المتوكل هذه القرية فراراً من وخامة جو دمشق في تلك الآونة^(٢) .
ويرى الشاعر ذلك فيمضي في الثناء على دارياً وليلها البارد ، وتسميله
صنعة البديع فاذا به يجانس بين برودة ليل دارياً ، وبين برودة ماء
« بردى » . فالعيش الهانئ اذن لا يكون الا في اكناف دارياً ذات الجو
الرائق ، وبين مياه نهر بردى الخصرة حين تمزج بالراح والشراب . والشاعر
لا يغفل عن تطعيم هذه الاناشيد بالثناء على الخليفة والاشادة بأحقية خلافته ،
وفيض فضائله ، ونجاح اسفاره ، وها هي دمشق قد جلت محاسنها ، وأبدت
مفاتها ، ناطقة بحقيقة اطراء الشاعر لها ، الذي كثيراً ما رددته على مسامع
الخليفة فهي اليوم - بزيتها وجمالها - خير شاهد على ما كان يعد المتوكل
به ، فهي المدينة التي تملأ العيون محاسن مجالها ، وطلاقة جوها ، ورائق
زمانها ، فهذه السحب تتوزع على قنن جبالها مساءً ، فاذا ما كان الصباح

(١) الديوان ٣/١٥١٤ - ١٥٦٥ .

(٢) انظر : الديوان ٢/٧٠٩ الحواشي .

رأيت النبت منتشرًا في أقطار صحرائها ، وانت لا تبصر فيها الا غيثًا منهمراً ،
وخضرة يانعة ، وطيراً غرداً ، حتى لتحسب أن ليس للصيف وحرارته
وجود ، وكأنما الحياة كلها ربيع في ربيع ♦

وبعد هذا الوصف الرائع الجميل ، المحبب الى النفوس يختم الشاعر
أغروده بالثناء على الخليفة والدعاء له بدوام الحياة والبقاء :

العيش في ظل داريًا اذا بردا والراح نمزجها بالماء من بردى
قل للامام الذي عمت فواضله شرقا وغربا فما نحصى لها عددا
الله ولاك عن علم خلافته والله أعطك ما لم يعطه أحدا
وما بعث عتاق الخيل في سفر الا تعرفت فيه اليمن والرشدا
أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفي لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن ، وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا
كأنما القيظ ولي بعد جيثه او الربيع دنا من بعد ما بعدا
يا أكثر الناس احسانا وأعرضهم سيباً ، وأطولهم في المكرمات يدا
ما نسأل الله الا أن تدوم لك الـ نعمةا فينا ، وأن تبقى لنا أبدا^(١)

غيرة العراق من دمشق :

ويبدو ان البحثري رمى آخر سهام كنانته المستعرة الأوار التي شنها
على العراق ، وكان سهمه هذه الابيات التي أشأها بعد دخول المتوكل دمشق
سنة ٢٤٤ هـ^(٢) ، وعزمه على اتخاذها حاضرة لخلافته ، فقد أفتتحها بالقول :
بانه يصبو الى طيب العراق وحسنها لولا ما فيها من حرارة لافحة ، تحمى
هجيرها ، وتعكر صفو فضولها ، والعراق العشيقة الأولى والخليلة المحببة ،
وان زاحمتها دمشق وأغارتها ، وانه جاب اقطار الدنيا شرقاً وغرباً فلم يجد

(١) الديوان ٧٠٩/٢ - ٧١٠

(٢) انظر : تاريخ الطبري ٢٠٩/٩ ، الكامل في التاريخ ٨٥/٧

كالشام محل إقامة ، يجد فيها المرء ما يشتهي من صحة ولهو ولذة وسرور ،
ويظهر ان الحاح البحري في التحدث عن طيب هواء الشام ، وبرد مناخها في
كل ما أنشأه في هذا الصدد ، يعيد الى الاذهان القول بان من اسباب تفكير
المتوكل في الانتقال الى دمشق هو انه كان محروراً^(١) .

وهي ، اي الشام ، - احبه لها - مقدسة عنده ، وقد أحالت غيوث
الربيع الهائلة دورها الى رياض غن ، وغدر للارواء ، ولا أدل على حفاوتها
بزيارة الخليفة واحتفالها بقدمه من هذه البشري التي تبادلها قطراها ، وهذا
الحسن الذي تضاعف في أرجائها وقد توجه اليها بعزيمة تنبئ عن سداد
رأى ، وحصافة فكر بما بدأ به وبما سيؤول اليه الأمر . وكانت سفرته بل
قدمه دمشق في ابان عيد الربيع ، وهو النيروز ، وانه ليأمل ان تتوالى
الاعوام ، وتتصل وهو في ربوع هذه المدينة التي تقديست أيامها وشهورها
لنزول الخليفة فيها ، ويختتم هذه الانشودة داعياً للخليفة بالبقاء ، لان في
بقائه بقاء المكرمات ، وفي حياته دوام العلاء والفخار :

نصب الى طيب العراق وحسنها	ويمنع منها قيطانها وحرورها
هي الارض نهواها اذا طاب فصلها	ونهرب منها حين يحمي هجيرها
عشيقتنا الاولى ، وختلتنا التي	تحب وان أضحت دمشق تغيرها
عنيت بشرق الارض قدما وغربها	أجوب في آفاقها وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار اقامة	لراح تغاديبها ونأس تديرها
مصحة أبدان ونزهة أعين	ولهو نفوس دائم وسرورها
مقدسة جاد الربيع بلادها	ففي كل دار روضة وغديرها
تباشر قطراها وأضعف حسننها	بأن أمير المؤمنين يزورها
توجهت مصحوبا اليها بعزيمة	مضى بسداد بدءا وأخيرها
وفي سنة قد طالعتك سعودها	وقابلت النيروز وهو بشيرها

(١) أنظر ص ٢٠٨ .

فصلها بأعوام توالى ، ولا تزل مقدسة أيامها وشهورها
وعش أبدا للمكرمات وللمعلا فانت ضياء المكرمات ونورها^(١)
أباب المتوكل من دمشق :

على الرغم من كل ما بذله الشاعر من لباقة أدبية وحذقة شعرية ،
وعلى الرغم من تفانيه في الذود عن بلده ، واطرائه وتحبيبه ، ومن تحامله
على العراق وتجنّيه عليه ؛ فإنه لم ينجح في اقناع المتوكل في الثواء بدمشق
أكثر من شهرين وأيام ، حيث عزم الخليفة على ترك المدينة والأوية الى
عاصمته الاولى سامراء لاسباب عديدة^(٢) .

ويبدو ان اول اشارة لمّح بها الى تغيير المتوكل ، وزعمه في دمشق
هو ما ذكره خلال قصيدته الآتية التي أنشأها وهو في دمشق !

والشاعر حين رأى نفرة الخليفة من المدينة الجديدة ، وعزمه على
القفول الى عاصمته الاولى ، أخذ لهذا الأمر أهبتة ، ونكص عما كان قد
اندفع اليه ، فهو الآن في موقف يحتم عليه ان يعكس الآية ، وينبغي ان
يكيل التقريظ والثناء للمدينة التي كان الى عهد قريب يهجوها ويندد بها ،
وما ذلك الا مراعاة للظرف الطارىء ، والحالة الجديدة وهذا ما كان
بالفعل منه .

والبحثري مهّد للقصيدة بسّة أبيات ذكر فيها ما انتابه من حزن وبثّ
لفقدانه احدى جواريه في دمشق ، ثم انتقل الى ذم المدينة والدعاء عليها
بالمحل والقحط ، وأبدى غبطته وحبوره بزهد الخليفة فيها وفي أهلها ،
وعرّج بعد ذلك الى الثناء على الخليفة الذي وصفه بالحزم والسادد في
الامور ، مشيراً الى الغزوة التي قام بها بعا الكبير من قبل الخليفة لبلاد الروم ،
وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، والتي كان من آثارها فتح
مدينة صُمَّلَة^(٣) .

(١) الديوان ١/٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ .

(٢) أنظر : ص ٢٠٨ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ٩/٢١٠ ، والكامل ٧/٨٥ .

ووصف الشاعر الجيش الذي كان بمعية بغا هذا ، فذكر انه كان جيشاً كبيراً كثير العدة والعدد :

فلا سقيت غيشا دمشق ولا غدت
وقد سرني أن الخليفة جعفر
امام اذا أمضى الامور تتابعت
وما زالت الاعداء تعلم انه
ولما طغت في دارها الروم واعتدت
أعد لها فرسان جيش عرمرم
كتائب نصر الله أمضى سلاحها
فلا تكثر الروم التشكي فانه
ولم ار مثل الخيل أجلى لغمرة
عليها غواذي مزنة لعهادها
غدا زاهدا في أهلها وبلادها
على سنن من قصدها وسدادها
يجاهدنا في الله حق جهادها
سفاها رماها جعفر بحصادها
عداد حصى البطحاء دون عدادها
وعجل تقوى الله أكثر زادها
يراوحها بالخيول ان لم يغادها
اذا اختلفت في كرتها وطرادها^(١)

عدوله عن بغداد الى سامراء :

وينصرف المتوكل عن دمشق قفلاً الى سامراء بعد مكثه فيها مدة قليلة ، وقد سلك في رجوعه طريق الفرات ، ثم عدل الى الأنبار ، ومنها عدل الى طريق الحرّف اليها ، فدخلها يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٤٤هـ^(٢) وعلى هذا فالتقصيدة التالية اذن من منظومات هذه السنة ، لا كما وهم الشارح حين أرخها في سنة ٢٤٣هـ^(٣) . ويبدو ان البحري كان في رفقة ركب الخليفة العائد ، وهذا ما يدل عليه قوله :

وما زال توخيد المطايا وطبها بنا البعد من حزن الملا وسهولة
فبعد ان طوت ركاب الخليفة الفيافي الوسيعة وما فيها من هضاب
وسهول ، لاح لهم حمى العراق ، وانجلت الحجب عن مائه ، ونخيله ،
التي كثيراً ما بعث الحمام المختلف اليها ذكريات الأحبة بهديله ، وجدد

(١) الديوان ٧١٥/٢ - ٧١٦ .

(٢) انظر : تاريخ الطبري ٢١٠/٩ .

(٣) انظر : الديوان ١٦٣٣/٣ الحاشية وص ١٦٣٤ حاشية (١٦) .

الاشواق بترجيحه لأغاريده •

ومن هنا بدأ البحترى يكيل الثناء للعراق ومدنه ، بعد ان ندد به أكثر من مرة كما اسلفنا • وبهذه الأوبة سرت الحياة في نفوس الأحبة ، ومشت الفرحة بين القلوب المتباعدة ، وهذا يعنى ما كان يكابده الكثير ممن رافق الخليفة في سفرته هذه • وبفضل الخليفة وانعامه عاد للعيش غضارته ، والمحياة رفايتها ، فهو امام اجتهاد الله من عباده ، واصطفاه دونهم ، لأنه رآه اولاهم بحق واهداهم لاتباع سبيله ، وهو خليفة في ارضه وابن عم نبيه ، كما انه واسع المعروف ، غزير النوال وقد قدم من الغرب (اشام) في جيش لجب يتخلف الحصى عن عدده ، فأسفر وجه الشرق (العراق) مشرقاً بطلعة الوضاء ، وقد تحفرت بغداد لاستقباله ، واتخذت زينتها لاحتضانه ، ولكنها ما كادت تعلم بعدوله عن زيارتها حتى اشأبت لذلك واستشرفت • ولعل في هذا اشارة الى ان الخليفة كان ينوى المرور ببغداد في أثناء رجوعه ، ولكنه عدل عن ذلك لسبب قد لا يكون كما ذكره البحترى ، الذي يرى ان عدوله كان بسبب اشتياقه الى قصر الجعفري المحدث الذي فيما نظن كان في سامراء قبل ان يبني قصرأ بهذا الاسم في مدينته المتوكلية في سنة ٢٤٥هـ (١) • وفي هذا القصر أحبته الالى الذين يجد في لقائهم أمنيته المنشودة ومطلبه الاول ، ولعل في هذا دلالة على ان المتوكل لم يسطحب معه كل حاشيته وجواريه •

والبحترى الذي ما انفك بندد بجو العراق حين أقام المتوكل بدمشق ، ويحبسّم وخامته وحرارته ، عاد في قصيدته هذه الى الاشادة بذلك المناخ ، فاذا ليله يمتاز بالرقّة ، وضحاها بالخضر ، وأصيله بالاعتدال •

لقد دعاه الهوى من عاصمته الاولى سامراء ، فاذا به يؤوب إليها أوبة

(١) أنظر : كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٧

الليث الى عرينة ، وكان رحيله عنها قد أحالها الى بلد موحش ، لا أثر
للانس فيه ولا للحياة ، ولكنها ما كادت تسمع بقدومه حتى عاد اليها حسنها
ونضارتها ، ومشت في اوصالها الحياة ، وسرت في أرجائها الأفراح • ويظهر
ان ابنه محمداً المنتصر كان قد بقي في سامراء ولم يصاحب أباه في رحلته
هذه ، ومن أجل هذا فقد هنا الشاعر هذا الابن بقدم أبيه اليه (١) • ثم
يختتم القصيدة بالثناء على ولاة العهود ويصفهم بالحلم والتقوى والفضل
فيقول :

وما زال توخيد المطايا وطبيها	بنا البعد من حَزَن المِلا وسهوله
الى ان بدا صحن العراق وكشفت	سجوف الدجى عن مائه ونخله
يظل الحمام الورق في جنباته	يذكرنا أحبابنا بهديله
فأحبيت محبا رؤية من حبيبه	وسرت خليلا أوبة من خليله
بنعمى أمير المؤمنين وفضله	غدا العيش غضا بعد طول ذبوله
امام رآه الله اولى عباده	بحق ، وأهداهم لقصد سبيله
خليفته في أرضه ووليه الـ	رضى لديه ، وابن عم رسوله
أتى من بلاد الغرب في عدد النقا	نقا الرمل من فرسانه وخيوله

(١) مما يدل على بقاء المنتصر في سامراء في أثناء سفر أبيه المتوكل ،
البيتان اللذان رويا له وهما :

الى الله اشكو عبرة تحيّر ولو قد حدا الحادي لظلت تحدر
فيا حسرتا أن كنت في سر من رأى مقيماً وبالشام الخليفة جعفر
(أنظر : سامراء في القرن الثالث الهجري ص ٢٧) •

ومن الجدير بالذكر ان شارح الديوان يفسر كلمة « محمد » في بيت
البحثري بقوله : « محمد : أبو عبيدالله (كذا) المعتز بن المتوكل » •
الديوان ١٦٣٥/٣ هامش ٢٣ • والصواب ان المراد بمحمد هنا المنتصر
لا المعتز ، فالمعتز اسمه الزبير ، كما ان كنيته أبو عبدالله لا عبيدالله •

والبيتان اللذان سقناهما للمنتصر دليل قاطع على ان المراد بمحمد
هنا المنتصر لا المعتز !

فأسفر وجه الشرق حتى كأنما
وقد لبست بغداد أحسن زيتها
ويثنيه عنها شوقه ونزاعه
الى منزل فيه أحباؤه الاولى
محل يطيب العيش رقة ليله
لعمرى لقد آب الخليفة جعفر
دعاه الهوى من سر من راء فانكفا
على انها قد كان بدل طيها
وافراطها في القبح عند خروجه
ليهن ابنه خير البنين محمداً
وان ولاة العهد في الحلم والتقى

احتفاء سامراء بقدم المتوكل :

وينشيء البحري قصيدة أخرى يعيد فيها الكثير مما ذكره في قصيدته
السابقة ، فهذه سامراء قد زهت بقدم المتوكل اليها ، وعاد اليها حسننها
وجمالها بعد ان كانت قد اكفهرت واطلمت في ابان رحيله عنها ، وبعد اطراء
الخليفة ونعته بالاوصاف المكررة المعادة ، ينتقل الى الدفاع عن الخلافة
واستحقاق العباسيين لها دون منافسيهم • والبحري يشير هنا الى الأمويين
ويتهمهم بمناوأة العباسيين واضمارهم الشر لهم ، ويشير كذلك الى ان من
يبدى العداوة للعباسيين يجرى وراء أمل خائب ، وهدف ضائع ، وان السيوف
المرفهة ، والرماح المثقفة خير علاج لمن تسول له نفسه شق عصا الطاعة
والخروج على الخلافة • ولا ندرى ما المناسبة في هجاء الأمويين والتعريض
بهم بعد مرور هذه السنوات الطويلة من حكم العباسيين ، وبعد اضمحلال
قوتهم ، وخضد شوكتهم ، حتى لم يعد لهم من يطالب بالخلافة منذ أمد غير

قصير؟ فهل يعنى ذكرهم هنا انهم حاولوا اقيام بحركة ضد المتوكل في اثناء قيامه بالشام؟ ان المراجع التاريخية - فيما نظن - لم تشر الى شيء من هذا :

زهت سر من را بالخليفة جعفر
صفا جوها لما أتاها وكشفت
وكانت قد اغبرت رباها واطلمت
اذا غبت عن ارض ويمت غيرها
واتم بني العباس عم محمد
وقد سرنى أن الخلافة فيكم
لكم ارثها والحق منها ولم يكن
وان بني حرب ومرؤان أصبحوا
يفضون أبصارا مغيطاً ضميرها
وان الذي يهدي عداوته لكم
متى ما ثنوا أعناقهم نحو فتنة
ودون التي متى الأعدى نفوسهم
مثقفة سمر لدان صدورها

وعاد اليها حسننها وجمالها
ضبايتها عنها ، وهبت شمالها
جوانب قطريها ، وبان اختلالها
فقد غاب عنها شمسها وهلالها
يمين قريش اذ سواكم شمالها
مخيمة ما ان يخاف انتقالها
لغيركم الا اسمها وانتقالها
بدار هوان قد عراقكم نكالها
ويدون الحاظا ميئا كلالها
لمرتكض في عثرة ما يقالها
يكن بالسيوف الماضيات اعتدالها
مناياهم في العالمين نكالها
وهندية بيض حديث صقالها^(١)

وهكذا انقلب البحثري يمتدح العراق وسامراء خاصة بعد ان كال لهما ما كال من الذم والهجاء في غضون رحلة المتوكل الى دمشق كما ذكرنا •

عفوه عن أهل حمص :

وللشاعر مدحة يشير فيها الى صفح المتوكل عن أهل حمص وعفوه عما قاموا به من شق عصا الطاعة على الخلافة •
والجدير بالذكر ان شارح الديوان يرجع تاريخ هذه المدحة الى سنة ٢٤٤ هـ ، واذا علمنا ان خروج أهل حمص على الخلافة او الاصح على عاملهم كان في خلال سنة ٢٤١ هـ ، فان هذه المدحة تكون على الأرجح من

(١) نفسه ١٦٢٩/٣ - ١٦٣٢ •

منظومات هذه السنة ، او بعدها بقليل ، لكي يحلو للشاعر ان يتغنى بهذه الأثر والاشادة بها ، وهي قريبة الوقوع ، اذ من الغريب أو غير المؤلف ان يتأخر نظم هذه القصيدة الى هذا التاريخ ، اي بعد مرور ثلاث سنوات على وقوع الحادث ، خاصة وان الشاعر كان على صلة وثقى بالتوكل في اثناء هذه الفترة •

ويمكن ترجيح التاريخ الذي حدده لها الشارح ، اذا احتمل أن اهل حمص قد عادوا الى شق عصا الطاعة مرة أخرى خلال سنة ٢٤٤ هـ ، وهو أمر لم نتحدث عنه المراجع !

وللبحتري قصيدتان في عفو المتوكل عن أهل حمص ، مدح فيهما الفتح بن خاقان لتوسطه لدى الخليفة في أمرهم • وهما في رأينا أمتن من قصيدته هذه أسلوباً ، وأعلى بلاغة ، وأقوى لفظاً ، واحكم نسجاً ، وقد أرخت احدهما في سنة ٢٤١ هـ ، وأرخت الأخرى في سنة ٢٤٤ هـ ، ولا دليل على التاريخ الثاني !

وبلاحظ ان قصيدة البحتري هذه - التي لا دليل على تاريخها المزعوم - لم تشتمل على مقدمة تمهيدية غزلية كما هي العادة الجارية في مدائحه للمتوكل ، ويبدو انها - كما يخيل لنا - لا تخلو من الخرم في اولها • فالشاعر يبدأ بالثناء على سياسة المتوكل الحكيمة العادلة ، وينعته بترسمه في ذلك سنن الرسول (ص) الذي ترى فيه سيماؤه ومخايله ، وقد تعمم بعمامته التي كانت تنطق بنجاته وعتقه ، ثم ينتقل الى أهل حمص فيشيد بعمل الخليفة في الصفع عنهم بعد ان قاموا ما قاموا به من اجتراح الذنوب ، وشق عصا الطاعة ، ويظهر ان المتوكل قد سار اليهم بنفسه - اذا صح ما زعمه الشاعر في بيته : السادس والسابع ، فأراهم بجيشه اللجب ، قدرته الحربية ، وأراهم - بعفوه عنهم - حبه للسلام ، ولو شاء لجعلهم

(١) أنظر : ص ٧٦ ، ٧٨ •

طعاماً أشفار السيوف ، وأسنة الرماح ، وان منته عليهم بالحياة وانعامه عليهم
بالعفو جعلهم مكلّين باحسانه ، معترفين بفضله ، وان رجلاً هذه سيرته
لحقيق أن تضع الامة فيه ثقته ، وتلجأ اليه كلما حزب أمر وادلهم خطب :

اما والذي أعطاك فضلاً وبسطة
لقد سستنا بالعدل والعدل منعما
وانا نرى سيما النبي محمد
وقد علمت منك العمامة أنها
تداركت بالاحسان حمص وأهلها
طلعت لهم وقت الشروق فعابوا
وما عابوا شمسين قبلهما التقى
أريتهم اذ ذاك قدرة قادر
ولو شئت طاحوا بالسيوف وبالقنا
منت عليهم بالحياة فأصبحوا
وان ولاء المعتفين من الردى
بقيت أمير المؤمنين لامة
بوجهك تستعدي على الدهر كلما

على كل حي واصطفاك على الخلق
وعدت علينا بالاناة وبالرفق
وسته في وجهك الضاحك الطلق
تلاث على تلك التجابة والعشق
وقد قارفوا فعل الاساءة والخرق
سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق
وعفو محب للسلامة مستبق
وباللهذميات المدربة الزرق
موالك فازوا منك بالمن والعشق
يفوق ولاء المعتفين من الرق
سلكت بها نهج السبيل الى الحق
أساء كما كانت بجدك تستسقى^(١)

المتوكل والخراج :

حاول المتوكل القيام باصلاح زراعي يتصل بجباية خراج الارض التي
كانت تفرض على المزارعين في كل سنة ، وفي وقت كان الزرع فيه ما يزال
أخضر ، ولتوضيح هذه المسألة يجمل بنا أن نسوق نبذة مختصرة عنها نقلاً
من كتاب : تاريخ التمدن الاسلامي الذي جاء فيه : « واقتدى بالوائق خلفه
المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخيره ميقات اقتضائه شهرين * وسبب ذلك
ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في الثوروز ، وهو يقع

(١) الديوان : ١٥٤٦/٣ - ١٥٤٧ .

عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكسبون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران • فإذا مضت (١٢٠) سنة أسقطوا شهراً فيجعلون الخمس من حزيران الخامس من أيّار (مايو) لا يعيدون النوروز الى الخامس من حزيران • فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظلّ الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك في ولاية خالد بن عبدالله القسرى على العراق ، فأراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جارى عادتهم فنهاهم خالد وقال (هذا من النسبي الذي نهى الله عنه) ، واستشار الخليفة هشام بن عبدالملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس • فظلّ الحساب الجارى متقدماً شهراً على الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات ، وظلّ الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتمّ لهم ، ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك ، فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم ، فتقول اعداؤه في ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه ، وما زال ذلك الفرق يتعاطم بتوالي الأعوام حتى صار في أيام المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع أخضر • واتفق ان المتوكل مرّ ببستان فرأى الزرع أخضر ، فقال لرفيق له : (ما لي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج) فقصّ عليه السبب ، فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصيرّ النوروز في الوقت اللازم • فأصدر أمره بذلك سنة (٢٤٣) هـ ففرح الناس لا يرفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس « (١) •

بيد ان الطبري أشار الى ان عمل المتوكل هذا كان في سنة ٢٤٥ هـ ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٢٠/٢ لجرجي زيدان • وانه لامر غريب ان يجهل الخليفة امر الخراج وفرضه على الناس ، ولم يفتن اليه الا عن طريق الصدفة ، وأكبر الظن ان المتوكل كان عارفاً بذلك ، وانه لم يحدث ما حدث عن طريق المفاجأة •

وذلك حيث يقول في حوادث هذه السنة « وكن نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج ، بتأخيره اياه عنهم في يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول ، ولسبع عشرة ليلة خلت من حزيران وثمان وعشرين من اردبوهشت ماه فقال البحرى الطائى :

ان يوم النيروز عاد الى العهد — الذي كان سنّه اردشير «^(١) وجاء في أخبار البحرى خبر حدث به البحرى نفسه انه ادخل من قبل الفتح على المتوكل وكان مصطحباً في أحد أيام النيروز هذا فأنتسده قصيدته التي اولها :

لك في المجد اول وأخير

فوهب له الف دينار ، وصينية فيها خمسمائة مثقال من مشام كافور كانت بين يديه^(٢) .

ولا شك في ان المتوكل قد شعر بأهمية عمله هذا مما حدا به ان يصطحب احتفاء به ، وان يستمع الى قصيدة البحرى التي أشاد فيها بالخليفة وبعمله ، فأثابه عليها بما أثابه .

اما القصيدة فتقع في تسعة عشر بيتاً بدأها بالثناء على المتوكل والاشادة بمجده العريق ، ومساعيه الكثيرة ، وانه ابن عم النبي الكريم ، وذو عطاء مدرار يزيل المحل اذا حلّ ، ووجه وضأء يجلو الدجى اذا أطبق ، وقد أحبته القلوب ، وأكبرته الصدور منذ كان وليداً ، واكتنى باسمه كل من الرشيد والمنصور ، لعلمهما الماضى به وبأهميته ، وهو تخريج لا يخلو من الحذقة والمهارة كما ترى ! ويعود فيقول : ان النبي ليرضى بما يتولاه الخليفة من أعمال ، وما يترسمه من خطط ، وانه حاز ميراثه بحق ميين ، وهو سيفه وعمامته وختمه وبرده وعصاه وسريره ، فساس الدنيا بالعدل

(١) الطبرى ٢١٨/٩ ، الكامل : ٨٩/٧ .

(٢) أخبار البحرى ص ٩٥ - ٩٦ .

والقسطنطين متوخياً الرشاد والحق وعمل الصالحات ، وبعد كل هذه المقدمة ، يتوصل الشاعر الى الغرض المطلوب وهو الاشادة بعمل الخليفة في تأخير التبروز الذي سبق الكلام عليه ، فهذا التبروز - وهو عيد فارسي ، ويعني اليوم الجديد^(١) - آل الى عهده الاول الذي سنّه الملك الفارسي اردشير ، وان الفضل في اعادته الى حالته الاولى يرجع الى المتوكل حيث جعله مفتتحاً للخراج الذي أزال عن كواهل الناس أعباءً ثقيله ناعت بها ، فلم يكن لهم الا الدعاء له والتناء على عمله !

ويبدو ان الشاعر - كثيراً ما كان يسلك في قصيدته اكثر من غرض واحد ، فهو بعد التناء على الخليفة والاشادة بعمله هذا استغل بناء المتوكل لأحد قصوره العظيمة ، ولعله الجعفري الذي ابتناه في سنة ٢٤٥ ، فوصفه وان كان وصفاً سريعاً مقتضباً ، بانه من القصور الحسنة التي لها موقع كبير في نفس المتوكل ، وقد رقّ الهواء في جوانبه ، وساحت المياه نثرةً غزيرة في أفنيته ، ثم احتتم مدحته باعادة ما سبق ان ذكره فيه من صفات الكرم والنصرة ، وتمنى له العمر المديد والبقاء الحميد :

لك في المجد اول وأخير	ومساع صغيرهن كبير
يا بن عم النبي لازلت للدين	يا ثمال من راحتك غزير
اي محل عرا فكفك غيث	أو ظلام دجا فوجهك نور
ومقتك القلوب لما تراءت	ك وليدا ، واكبرتك الصدور
واكتسى باسمك الرشيد لعلم	بك ماض ، وجدك المنصور
يتولى النبي ما تتولا	ه ، ويرضى من سيرة ما تسيّر
حزت ميراثه بحق مبين	كل حق سواء افك وزور
فلك السيف والعمامة والخا	تم ، والبرد والعصا والسرير

(١) أنظر : نهاية الارب للنويري ١٨٥/١ - ١٨٦ ، وأخبار البحري ص ٩٥ حاشية (١) ، والديوان ٧٣٤/٢ حاشية (٣٢) .

ان يوم النيروز عماد الى العهد
 انت حولته الى الحالة الاو
 وأفتحت الخراج فيه فللاً
 منهم الحمد والثناء ومنك الس
 وأرى قصرك استبدّ مع الح
 رقّ فيه الدواء واطرد ال
 طاعتك السعود فيه وتمت

ادراك المعترز :

في ليلة الاثني لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس واربعين ومائتين
 بلغ المعترز بالله بن المتوكل الحلم^(٢) ، فأقام المتوكل بهذه المناسبة حفلة كبيرة
 وجلس لاستقبال المهنيين ، وكان في جملة من شارك فيها من الشعراء شاعرنا
 البحجري فقد ذكر الصوالي انه « لما بلغ المعترز مبلغ الرجال جلس المتوكل
 للتهنئة ، وحضر الناس على طبقاتهم ، بدخل البحجري فأشده :

ردى على المشتاق بعض رقاده فلما وصل الى قوله :
 تمت لك النعماء فيه ممتعا بعلو همته وورى زواده

(١) الديوان ٩٠١/٢ - ٩٠٣ .

(٢) أنظر : وفيات الاعيان لابن خلكان ٤٦٩/٣ ، والديوان ٧٠٢/٢

الحاشية .

والجدير بالذكر ان شارح الديوان يشير في الحاشية الى حفلة اعذار (طهور)
 المعترز التي وصفها كل من الشابشتي في الديارات ص ١٥٠ - ١٥٦ ،
 والشعالبي في ثمار القلوب ص ١٦٦ ، كما يشير الى ان البحجري كان في جملة
 من حضر حفلة ذلك الاعذار مستندا في ذلك الى كتاب مطالع البدور .
 والصواب : ان هناك فرقا بين اعذار المعترز وبين ادراكه الحلم ، فاعذاره
 كان قبل هذا التاريخ ، أي قبل سنة ٢٤٥هـ على الاغلب ، اذ من غير
 المعقول أن يتأخر اعذاره الى ان يبلغ مبلغ الرجال ، ويبدو ان الشارح قد
 خلط بين الاعذار والادراك ، فوقع في ما وقع فيه من اللبس والتخليط .

وبقيت حتى تستضيء برأيه وترى الكهول الشيب من اولاده
فقال المتوكل : أعد الايات ، فأعادها ، فقال : آمين ! وقال الناس :
آمين ، وأمر للبحثري بألف دينار « (١) »

لقد انشأ البحثري بهذه المناسبة قصيدة أشاد فيها بالمتوكل وكرر
الاصاف التي بثها في تضاعيف مدائح السابغة ، فالسحب بارعادها
وابراقها وانهمار مياهاها لا يمكنها ان تدانيه في فيض عطائه وغزارة نائله ،
وهو يحاكي في أعماله وصفاته آباءه العظام واجداده الكرام ، لا يتهاون في
مكابدة الاعداء ، ولا يتوانى عن الافضال والاعطاء ، ثم انتقل الى تهنئة
المتوكل بادراك ابنه وبلوغه مبلغ الرجال ، فهذه مخايله تنبئ عن رشاده
وحلمه ، وتدل على وقاره وسداده ، وان مولده مقارب لميلاد خلافة أبيه ،
وهذا يعنى ان تاريخ ولادة المعتز كان في غضون سنة ٢٣١ هـ ، كما ذهبت
الى ذلك بعض المصادر ، كما ان استخلاف أبيه كان في سنة ٢٣٢ هـ ، واذا
صحّ هذا فان عمر المعتز حين ادرك أربع عشرة سنة ، وأختتم قصيدته هذه
بالدعاء للخليفة وطول العمر والتمتع بما أنعم الله عليه بادراك ابنه وبلوغه
مبلغ الرجال :

قد قلت للقيم الركام ولجّ في ابراقه ، وألجّ في ارعاده
لا تعرضنّ لجعفر مشبهاً بندى يديه فلست من أنداده
الله شرفه ، وأعلى ذكره ورآه غيث عباده وبلاده
ملك حكى الخلفاء من آبائه وتقيّل العظماء من أجداده
يزداد ابقاء على اعدائه أبداً وافضالا على حساده

★ ★ ★

يا كالىء الاسلام في غفلاته ومقيم نهجى حججه وجهاده
تهنيك في المعتز بشرى بينت فينا فضيلة هديه ورساده

(١) أخبار البحثري ص ٩٤ - ٩٥

قد أدرك الحلم الذي أبدى لنا
ومبارك ميلاد ملكك مخبر
عن حلمه ووقاره وسداده
تمت لك النعماء فيه متمناً
بقريب عهد كان من ميلاده
وبقيت حتى تستضيء برأيه
وترى الكهول الشيب من اولاده^(١)

حفلة صيد :

ويخرج المتوكل في نزهة على ظهر إحدى السفن العظيمة التي تسمى
« بالزوّ » الى منطقة مشتهرة بكثرة الطيور وهي القاطول^(٢) ، ويدعى
البحثري الى مرافقة الخليفة في نزهته أو حفلته هذه التي وصفها لنا وصفاً
جميلاً في قصيدته الآتية ، فبعد المقدمة الغزلية ينتقل الشاعر الى وصف
ما جرى في هذه الحفلة من أمور ، فيتساءل قائلاً : هل الحياة سوى كأس
مفعمة بالراح ، تدور على الندامى بين أنغام العود ، والحنان الناي ، ولكن
انغام أي عود ، وألحان أي ناي ؟ انها الانغام الشجية التي تنطلق من اوتار
عود بنان ، اشهر عازفي عصره ، والالحان الناعمة التي تبعث من أعماق
ناي زنام أعظم زامري وقته ، ويبدو ان البحثري قد جهر لأول مرة في
قصيدته هذه بذكر الخمر التي كانت تدور في هذه الحفلة ، ولكنه ذكر
لا يخلو من الاقتضاب بل التلميح !

ويبدو ان المتوكل - على ما كان عليه من العكوف على الملذات - لم
يكن راغباً في ذكر ما كان يجري في مجالسه وحفلاته الخاصة من أمور ،
ولعل هذا هو السبب في اغفال الشاعر هذه الناحية ، فهو لم يتطرق اليها من قريب
ولا من بعيد ، وانما استعاض عنها بالاشادة بتقوى الخليفة وعدله وسهره
على الرعية ، وبنسبته الى الرسول وتقيسه لكثير من عاداته وصفاته •

(١) الديوان ٧٠٢/٢ - ٧٠٣ •

(٢) للتوسع في هذا المجال يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في
أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٢ ، ٣٠٦ وما بعدها •

فالיום - الذي قضاه الشاعر على ظهر هذه السفينة التي كانت كالقصر العظيم والتي كانت تسير بفتيان انتشروا على ظهرها من بين قائم وقاعد - يوم مشهود بطيبه وحسنه تمتع فيه بالغناء والمدام ، وكانت البزاة المدربة تنقضّ على فرائسها من الطير ، فتعود بها وهي مخضبة الاظفار ، مدماة المناسر ، وانه لم ير نهرا كالمطول الذي جرى فيه الصيد - يزخر بمياهه ، ويطنى بعبابه ولججه ، ولا جبلا كهذه السفينة - الزوّ - تقف مرة ، وتسير أخرى • ويظهر انها كانت من الضخامة بحيث أوهمت بعضهم بانها جبل^(١) ، وبعد هذا الوصف السريع المقتضب لحفلة الصيد هذه ينتقل البحثري الى الثناء على الخليفة الذي يصفه باليباض وباجتماع المحاسن ، وطلاقة الحياء ، وفيض الكرم ، والدود عن الرعيّة ، وحيطة الدين ، والذّبّ عن الاسلام الى غير ذلك من الثعوت ، ويبدو ان البحثري قد عمد الى الاكثار من هذه الصفات ليغطي على ما فلت منه من الاشارة الى المدام التي دارت في هذه الحفلة :

هل العيش الاّ ماء كرم مصفّق	يرقرقه في الكأس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شجوه	على نغم الألحان ناي زمام ^(٢)
أبي يومنا بالزوّ الا تحسناً	لنا بسماع طيب ومدام
غنيا على قصر يسير بفتية	قعود على أرجائه وقيام
تظلّ البزاة البيض تخطف حولنا	جآجى طير في السماء سوام

(١) أنظر : الديوان ٢٠٠٠/٣ الحاشية ، وأنظر ص ٢٠٠٢ حاشية (٨) •

(٢) قال الثعالبي في ثمار القلوب ص ١٥٥ ما نصه : « كان بنان وزمام مطربي المتوكل ، وكان كل منهما منقطع القرين في طبقته ، فاذا اجتمعا على الضرب والزمز أحسنا وفتنا وأعجبا وعجبا ، وكان المتوكل لا يشرب الا على سماعهما » • وبقي زمام الزامر الى أيام المعتز حيث ضعف وارعش وازمنه النقرس ، أنظر : الديارات ص ١٠٩ الطبعة الثانية •

مخضبة أظفارهن دوام
تدقق بحر بالسماحة طام
وينقاد اما قدته بزمام^(١)
لأبيض من آل النبي همام
علينا ، ولا نزر العطاء جهام
يدافع عن أطرافها ويحامي
الى صارم في الثابت حسام
بأنك عند الله خير امام
صلاتي ونسكى خالصا وصيامي
وقمت بأمر الله خير قيام^(٢)

تحدّر بالدراج من كل شاهق
فلم أر كالقطول يحمل ماؤه
ولا جبلا كالزوّ يوقف تارة
لقد جمع الله المحاسن كلها
نظيف بطلق الوجه لا متجهم
يحييه عند الرعية أنه
لقد لجأ الاسلام من سيف جعفر
نصلى واتمام الصلاة اعتقادنا
حلفت بمن أدعوه رباً ومن له
لقد حطت دين الله خير حياطة

حريق في قصر المتوكل :

وقع يوماً حريق في أحد قصور المتوكل الذي كان في حوزة ابنه
وولى عهده المعتز ، ويبدو ان الحريق كان ضخماً هائلاً مما جعل الشعاع
يحاول التخفيف من اثر وقعه في نفس المتوكل • ولم يفصح لنا البحري
عن اسم هذا القصر كما لم يتناول بالتفصيل ما حل به ، فهو يبدأ آياته
بشكر الله على ما انعم به عليه من احسان وأحاطه به من معروف ، وكيف
لا تكون نعمة سابقة ، واحساناً شاملاً ، وقد حفظ الله صاحب القصر من
المكروه ، وأبعد عنه نازلة مخيفة ، ولكن بإمكانه تعويض ما التهمه
الحريق ، وذهب به الحدثنان ، فهذه الارض ملكه ، وهؤلاء الناس عبيده
وما قيمة هذا الحريق - بجنب ما للخليفة من أملاك وعمائر - حتى نسهر
له قلقين ونبقي مضطربين ، ومع كل ذلك فلست ألوم من يجد لذلك ،

(١) جاء في القاموس المحيط للفيروزبادي ٢٣٩/٤ ان « الزوّ »
سفينة عملها المتوكل لا جبل ، ووهم الجوهرى ، وانما غرّه قول البحري :

ولا جبلا كالزوّ يوقف تارة وينقاد اما قدته بزمام «

(٢) الديوان ٢٠٠١/٣ - ٢٠٠٣

فالإنسان في كل أحواله إنسان ، يتأثر ويتألم لما يحلّ بالأخريين ، وينزل بهم من مكاره وحوادث • والشاعر الذي يجهد ان يسرّي عن الخليفة ، ويخفف من اثر الحادث لديه ، ما يلبث ان يسوق حكمة تنبئ عن ان ما يحل بالإنسان من مكروه لا ينبغي ان ينظر اليه من زاوية الخسران فحسب ، فهذه المكاره ربما كانت سببا في جلب المنافع ، وعلّة في ترادف الفوائد ، وهذا الأمر ينبغي ألا يقلل من قيمة وليّ العهد ، ولا ينال منه ، طالما كان هناك من يعوّض خسارته ويرأب صدعه ، بل ان ما حل من الحريق الهائل والنيران المسعرة ، ما هو الا دليل ساطع وبرهان قاطع على ان في هذا الحريق اشارة الى تملك الدنيا ، وفي هذه النيران أمارات على العز والسلطان ، وهو تعليل فيه من اللباقة والحذقة الشيء الكثير :

منّ من الله مشكور واحسان	ونعمة كفرها ظلم وعدوان
بالقصر لا بمليك القصر ، نازلة	أضحى لها وهو طلق الوجه جذلان
يبنى ويعمر ما يبنيه من أمم	فالأرض دار له والناس عبدان
ما كان قدر حريق أن نبيت له	وكلنا قلق الاحشاء حرّان
بل ما ألوم شفيحاً أن يداخله	وجد لذلك والانسان انسان
وربما جلب المكروه عافية	ترجى وأردف بعد السوء احسان
لا تنتقص لوليّ العهد أهبة	ولا يكن منه للأيام اذعان
عند الخليفة مما فاته خلف	بالمال مال وبالبنيان بنيان
تفائل الناس واشتدت ظنونهم	والفأل فيه لبعض الامر تبيان
وأيقنوا أن تووير الحريق هو الـ	دنيا يملكها والنار سلطان ^(١)

مدينة المتوكل :

» من أعمال المتوكل العمرانية بناؤه مدينة له شمال سامراء ، مدينة

(١) الديوان ٤/٢٢٥٦ وأنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري

ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

والده المعتصم ، وقد اختلفت المصادر القديمة في اسم هذه المدينة ، ف قيل :
« الماحوزة » و « الماخورة » و « الجعفرية » و « المتوكلية » .

وأما بدء البناء في هذه المدينة فكان في سنة ٢٤٥هـ حيث أمر المتوكل
المهندسين أن يختاروا موقعا لها ، فوقع اختيارهم على موضع يقال له
الماحوزة ، وهو الموضع الذي قيل : ان المعتصم حاول ان يبني مدينة
فيه . فأمر المتوكل بحفر نهر يتوسط مدينته الجديدة ، وألقى في حفر
هذا النهر اثني عشر الف عامل ، ومدّ الشارع الاعظم من دار أسناس
التي بالكرخ والتي صارت أخيرا الى الفتح بن خاقان - الى قصور مدينته
هذه ، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جلييلة يدخل منها الفارس
برمحه ، وأقطع ولاية عهوده وابناءه وقواده وسائر الناس ، فشيّدت القصور
وبنيت الدور ، وكان المتوكل يدور بنفسه فمن رآه قد جد في البناء أجازته
وأعطاه . فجدّ الناس في ذلك وارتفع البناء في أقل من سنة . وبنى المتوكل
فيها مسجداً جعل له مئذنة (ملوية) على غرار مئذنة مسجده الجامع في
سامراء ، ثم انتقل اليها بعد ان تكامل بنؤها في أول يوم من المحرم سنة
ست وأربعين ومائتين . ونقل اليها دواوين ملكه حتى أثر ذلك في سامراء
تأثيراً سيئاً ولكنه لم يمكث في مدينته الجديدة هذه الا بضعة أشهر حتى
قتل من قبل الاتراك في قصره المعروف بالجعفري^(١) ، وذلك في سنة
سبع واربعين ومائتين .

وحين ولى ابنه المنتصر الخلافة بعده ، أمر بالانتقال الى سامراء ،
كما أمر الناس بهجر المتوكلية ونقض قصورها ، وحمل الانقاض الى
سامراء ، فخربت المتوكلية وتقوضت وأصبحت قصورها أطلالا ، وعمائرها
آكاماً توحش الناظر اليها ، وتبعث فيه الحزن والاسى^(٢) .

(١) سيأتي الكلام عليه فيما بعد .

(٢) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وللبحتري في وصف المتوكلية قصيدتان تعدان من عيون شعره •
 الاولى ميمية تقع في (٣٥) خمسة وثلاثين بيتاً ، اشتمل القسم الغزلي
 منها على ثلاثة عشر بيتاً ، وهو غزل يذوب رقة ، ويسيل عذوبة ، اكثر
 فيه من التقسيم ، ثم انتقل بعد التمهيد الى تعداد أوصاف المتوكل التي جاء
 الكثير منها فيما سبق من مدائح ، فخلافته أمن وعدل ، وحلمه وسع
 الناس ، وكرمه غريب لفيضه وغازرته حتى ليهين رقاب المال ويذلها ،
 وهو اذا ما وهب واعطى لا ترى في قسما ت وجهه سوى أمارات الرضا
 ودلائل الارتياح ، وهو كفى ان شاء المفاخرة والمساماة ، وجيل ان رام
 غيره مفاخرته ومباهاته ، وقد غمر الناس بفضائله ونعمه وعطاياه ، وورث
 مكارم آبائه وأسلافه : كالسقاية والمصلّى والكعبة وما الى ذلك من المشاعر
 المشهورة ، ويمضى البحتري بعد تعداد هذه الأوصاف والمحامد الى تفضيل
 المتوكل على ما سلف من الخلفاء ، فأولئك الخلفاء لو شاءوا ان يجاروه
 في حلبات الرأي والعزيمة لما وسعهم ان يعلقوا به ، فانه بفوتهم جوداً ،
 ويزكو عليهم عوداً ، يبدهم مضاء وشجاعة •

ثم يلحق الى خلافة العباسيين فيدافع عنها بطريقة لا تخلو من
 الغموض والابهام ، أو قل من الاشارة والرمز ، فيقول : ان من يخرج
 على امرهم يعد من العصاة والخارجين عن طاعة الله ، ومن ينكر حقهم في
 الخلافة لا يجد سوى النكال والخذلان ، بل ان الشاعر ليجرد من يتأخر
 عن تقديم ولاية العباسيين من الاسلام ، وان تظاهر بأداء الصلاة والصيام ؟
 ولكن من هم هؤلاء الذين حمل عليهم البحتري هذه الحملة في مخالفة
 العباسيين ونكران حقهم ، وعدم تقديم ولايتهم ؟ أم العلويون أم الامويون
 أم أناس آخرون ؟ ان الشاعر كما قلنا لم يفصح عن هوية هؤلاء الناس •
 وانتم أيها العباسيون ، حميتم الثغور والتخوم بسيوفكم المسلولة ،
 ورماحكم المشروعة ، وخضتم الغمرات والمعامع على ما في ذلك من المكاره

والاهوال • وبعد هذا يتمنى اولى نعمته السلامة والدوام ، وينتقل الى وصف مدينته المتوكلية التي يراها قد تعالى حسننها ، وتكامل بنؤها ، بما انطوت عليه من القصور اللامعة التي تلوح للناظر كالكواكب الهادية بنورها للمسارين ، في ظلام الليل ، وهو تشبيه رددّه الشاعر أكثر من مرّة في أوصافه لهذه القصور ، وان هذه المدينة كانت قائمة في مكان فسيح موسى بأفانين الزهور والورود ، وما يكاد يلوح برق الربيع له حتى يغمره بمياهه الغزيرة ، ويخطر عليه بانسامه العليقة ، واذا الارض مكسوة بحلّة قشبية من ضروب النبت ذي الازهار الفرادى واتّوام ، وانها لتبدو صاحكة مقترّة المضحى حيناً ، ومغمورة بهواطل السحب حيناً آخر ، ولو لم يتيسر لها ان تسقى بريق الغيث لكفاها الممدوح ذلك :

عذيري فيك من لاح اذا ما	شكوت الحب حرقني ملاما
الأم على هواك ولبس عدلا	اذا أحببت مثلك أن الأما
لقد حرمت من وصلني حلالا	وقد حللت من هجري حراما
اعيدي في نظرة مستثيب	توحى الأجر او كره الأناما
ترى كبدأ محرقة ، وعيناً	مؤرقة ، وقلباً مستهما
خلاقة جعفر عدل وأمن	وحلم لم يزل يسع الأناما
غريب المكرمات ترى لديه	رقاب المال تهضم اهتضاما
غنى ان يفاخر او يسامى	جيل ان يفاخر او يسامى
نعد لك السقاية والمصلتى	واركان النيّة والمقاما
وما الخلفاء لو جاروك يوماً	بمعتليك رأياً واعتزاما
ألست أعمهم جوداً وازكاً	هم عوداً ، وأمضاهم حساماً ؟
مخالف امركم لله عاص	ومنكر حقكم لاق أثاماً
أمين الله دمت لنا سليماً	ومنت السلامة والدواما
أرى المتوكلية قد تعالت	محاسنها ، وأكملت التماما

تصور كالكواكب لامعات
 وبرّ مثل برد الوشي فيه
 اذا برق الربيع له كسته
 تضاحكها الضحى طورا وطورا
 ولو لم يستهلّ بها غمام
 يكدن يضمن نلساري الظلاما
 جنى الحوذان ينشر والخزامى
 غواصي المزن والريح الرخامى (١)
 عليها الغيث ينسجم انسجاما
 بريّقه لكنت لها غماما (٢)

اما القصيدة الثانية ، فهي عينية وتقع في (٢٥) خمسة وعشرين بيتا ، استغرق القسم الغزلي منها سبعة أبيات ، وهو لا يقل روعة ورقة عن مثيله في القصيدة السابقة ، كما اشتملت على دفاع عن الخلافة العباسية ، ووصف للمتوكل لا يختلف في محتواه كما ذكره في قصيدته السابقة أيضا ، هذا الى انها احتوت على أبيات تشير الى جفاء الخليفة له .
 فبعد الغزل ينتقل الى الدفاع عن الخلافة العباسية وأحقيتها للعباسيين مشيراً الى انهم من سلالة العباس عم النبي الذي دعاه عمر الى ان يستسقى للمسلمين من أهل الرمادة في عام (١٧هـ) ، بعد ان حلّ فيهم المحل والقحط ، فاستجبت دعواه وسقى القوم ، وأخضبت الارض ، فاتخذ الشاعر من هذا دليلا على فضيلة العباس الاب الاعلى للعباسيين ، ويقول :
 انه يرى الخلافة وهي اعظم رتبة في الملة الاسلامية ، حق لهم ، ووراثه لا ينزعها احد منهم ، وان الله حين اعطاها لهم فانما أعطاها عن علم بهم ، ومن ذا الذي بمقدوره ان يطاولهم ويساجلهم ، وفضيلة سقاية العباس للمسلمين مشهورة معروفة .

والبحتري في هذه الايات أكثر صراحة في اندفاعه للدفاع عن خلافة العباسيين عما سبق في القصيدة الماضية ، بل ربما كان أكثر حماسة واندفاعا مما أثار عنه في آية قصيدة أخرى !

(١) الرخامى : الريح اللينة .

(٢) الديوان ٢٠٠٨/٣ - ٢٠١٢ .

والخليفة ملك رضاه من رضا الله ، وسخطه موت الأعداء ، وحتفهم المتوقع ، وهو الى ذلك متحلٍ بالكرم ، متجملٍ بالورع ، وانت ايها الملك الذي اسبغت نعمك على الناس وأرويت بفيض جودك غلّة العطاشي ، ليهنيك في مدينتك المتوكلية التي حسن صيفها ، وطاب ربيعها ، وهي واسعة مشرقة ، رقيقة النسيم ، دمثة التربة ، وذات أكفاف فسيحة ، زاد من حسنها ما امتد لها من برّ ، واترع من بحر ، وهذا الوصف نفسه مرّ في القصيدة السابقة ، وكان من سرور الناس بها ان هيء لهم فيها مسجد جامع ، أدوا فيه فريضة صلاة الجمعة^(١) ، ويشير الشاعر على الخليفة أن يضرب المسكوكات باسم هذه المدينة تخليدا لها ، واعتزازا بها ، وينهى قصيدته بخمسة أبيات يشير فيها الى اطراح المتوكل له ، ويأمل ان يعطف عليه ، فيسمح له بالمشول بين يديه ليدافع عن نفسه وليستمع الى ما يقوله في ذلك ، يدفعه الى هذا حسن ظنه بالمتوكل الذي ما زال يعده موثله عند الملمات ، ومفرعه لدى الخطوب ، ثم يتساءل عن سبب انكاره الصديق الذي اغرى به الاعداء فشمتموا به وفرحوا •

وواضح ان منزلة البحتري كانت عظيمة لدى المتوكل حتى تجرأ ان يطلق عليه كلمة (الصديق) ، وان اطراح الخليفة له وابعاده عن مجلسه جعله هدفا لظلم من لم يكن بوسعه ان يفعل به قبل هذا الجفاء ، ثم يختم ابياته بقوله : ان لم يكن هناك من ذنب اجترحه فثقته بعدله الواسع ، أو ان كان له ذنب اقترفه فأمله في عفوه الذي يسع كل ذنب • ونحن لا ندري السبب الحقيقي في جفاء المتوكل للبحتري ، ويظهر ان جفائه له كان في نفس الوقت الذي اطرحه فيه القتح من قبل ، وان

(١) جاء في تاريخ الطبري ٢٢١/٩ ما يأتي : « وصلّى المتوكل فيها (أي في سنة ٢٤٦هـ) صلاة الفطر بالجعفرية ، وصلّى عبد الصمد بن موسى في مسجد جامعها ، ولم يصلّ بسامراء احد » •

أبياته هذه فيها شيء كثير مما عاتب فيه المفتح :

شوق اليك تفيض منه الادمع
وهوى تجدده الملياني كلما
أصفيك أقصى الود غير مقلل
وأراك أحسن من أراه وان بدا
يعتادني طربي اليك فيغتلى
كلف بحبك مولع ويسرني
شرفاً بني العباس ان أباكم
ان الفضيلة للذي استسقى به
وارى الخلافة وهي أعظم رتبة
أعطاكموها الله عن علم بكم
من ذا يساجلكم وحوض محمد
يا أيها الملك الذي سقت الورى
يهنيك في المتوكيلة انها
فيحاء مشرقة يرق نسيمها
وفسيحة الأكناف ضاعف حسنها
قد سرّ فيها الاولياء اذا التقوا
فأرفع بدار الضرب باقي ذكرها
هل يجلبنّ الى عطفك موقف
ما زال لي من حسن رأيك موئل
فعلام أنكرت الصديق وأقبلت
وأقام يطعم في تنضمّ جانبي
الا يكن ذنب فعدلك واسع

وجوى عليك تضيق منه الأضلع
قدمت وترجعه السنون فيرجع
ان كان أقصى الود عندك ينفع
منك المصدود ، وبان وصلك أجمع
وجدي ، ويدعوني هواك فأتبّع
أنى امرؤ كلف بحبك مولع
عمّ النبيّ وعيصه المتفرّع
عمر وشفعّ اذ غدا يستشفّع
حقاً لكم ، ووراثه ما تنزع
والله يعطى من يشاء ويمنع
بسقاية العباس فيكم يشفع
من راحته غمامة ما تقلع
حسن المصيف بها ، وطاب المربع
ميث تدرّجها الرياح واجرع
برّ لها مفضىّ وبحر مترع
بفناء منبرها الجديد فجمعوا
ان الرفيع محلّة من ترفع
ثبت لديك أقول فيه وتسمع
أوى اليه من الخطوب ومفزع
نحوي ركاب الكاشحين تطلع
من لم يكن من قبل فيه يطعم
أو كان لي ذنب فعضوك اوسع^(١)

الجعفري :

« وهو من أعظم قصور المتوكل وأجلها ، بناه في موضع الماحوزة سنة خمس وأربعين ومائتين للهجرة ، وبلغت النفقة عليه ألفى الف دينار • وهذا القصر هو الذي قال فيه أبو العيناء يخاطب المتوكل حين سأله عنه « ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك » وفيه قتل المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة » (١) •

وقد جاء ذكر هذا القصر أكثر من مرة في شعر البحري ، وهذه احدى قصائده المعروفة فيه ، فقد أشار الى اتمام الخليفة « جعفر » المتوكل لهذا القصر ، الذي نعته بانه خير دار أنشئت في خير موضع ينراعى للبادين والحاضرين ، في مكان مشرف ذي أرض طيبة ، دائمة الاخضرار ، كثيرة الاضاءة ، وان لم ينسكب عليها الحيا ، أو يطل عليها البدر ، وان موضعه هذا يقع في مهب الريح الشمال ، ويشارف في سموه وعلوّه السحب الهائلة المدرارة ، وان حسن تقدير المتوكل واختياره لهذه الدار وسخائه وبذله الكثير في سبيلها ، فاق غيره ممن سبقه من الملوك الذين قعد بهم الضن

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٠ ، جاء في كتاب « شاعرية الوليد » لحمدي علي ص ٢٤٥ ما نصه : « والجعفري هو القصر الذي بناه المتوكل سنة ٢٤٥ للهجرة في سر من رأى في مكان يسمى الماحوزة على نهر القاطول ، وهو الآن مندثر ، ولم يبق منه غير الجهة الامامية ، بقيت تشهد على الروعة التي كانت لهذا القصر ، ولقد تمتعت بزيارته في شتاء سنة ١٩٢٩ » •

والمؤلف على ما يبدو قد تمتع بمشاهدة آثار « بيت الخليفة » التي ما زال بعضها قائما الى اليوم ، فظن ما شاهده بقايا القصر الجعفري ، وهو وهم ؛ لان مكان القصر المذكور ليس في هذه البقعة ، وانما هو الى الشمال منها • كما ان القصر المذكور لم يبن على نهر القاطول وانما كان على ضفة نهر دجلة اليمنى ، وقول البحري :

وتسير دجلة تحته ففناؤه : من لجة غمر وروض أخضر

• دليل على ذلك

والشح عن مثلها ، وان ما كان عليه من علوّ الهمة التي استصغرت ما كان يحسب كبيراً ، واستقلت ما كان يعدّ كثيراً ، كل ذلك كان السبب في انجاز هذه الدار واتمامها وفي هذا اشارة الى جسامه المبالغ التي انفتحت على بناء هذا القصر وملحقاته • ثم يمضى الشاعر فيصف علوّ هذه الدار وضخامتها فيقول : ان شموخ البنيان المرتفع في أعالي الفضاء يبدو وكأنه ذرى جبلي : رضوى وصنبر ، وان ليزري على ما للملوك من الهمم العظيمة ، ويحطّ مما بناه كسرى وقيصر ، وان علوّه الذاهب في أجواز السماء ليبود للمعيون الناظرة ، وكأنه بياض كوكب المشتري ، وهذا يشير الى ان القصور العباسية في سامراء كانت ذات لون أبيض عموماً ، كما كانت جوانبه من الضخامة والاتساع بحيث ملأت الفضاء ، وامتدت شرفاته حتى عانقت السحب المطرة ، ولعل هذا ما يذكرنا « بناطحات السحاب » في عصرنا هذا ، وانه واقع على مقربة من نهر دجلة التي ترفده بمياهها الثرّة ، فتحيل فناءه الى لجج غامرة ، ورياض غن ، وان الرياح لتلاعب ما انتشر من الشجر في أرجائه ، فتثني أغصانها ، وتحنى أعطافها في ماء جار منبجس • وانه يدعو لمنشئه ومؤسسه بعد انجازه وتمامه ان يعيش فيه بحبور وبهجة لانه القصر الذي منحه من قلبه الحب المحض ، وخصّه من نفسه بالود الصافي ، حتى أسماء باسمه ، مما كسبه علوّاً وفضلاً وفخراً ، وقد احتفلت الدنيا « بتدشين » المتوكل لقصره هذا ، فالغبار سكن وهدأ ، والغمام بل الارض بوابله ، والدنيا تجملت بأحلى حللها ، وبدت طلقة بمحياها ، وها هو الخليفة بجيئه فينزل في أسعد منزل ، ويتمتع بأجمل مشهد :

ان الطباء غداة سفتح محجّبر هيجن حرّ جوىّ وفرط تذكّر
من كل ساجي الطرف أعيد أجيد ومهفهف الكشجين أحوى أحور

★ ★ ★

ليتمَّ الاّ بالخليفة جعفر
 في خير مبدى للانام ومحضر
 وترايبها مسك يشاب بعنبر
 ومضيئة ، والليل ليس بمقمر
 ظلل الغمام الصيَّب المستكثّر
 أعلام رضوى او سواهاق صنبر
 نيان كسرى في الزمان وقصر
 ينظرن منه الى يباض المشتري
 ربّ الاخاشب والصفاء والتمبر
 شرفاته قطع السحاب المطر
 من لجة غمر ، وروض أخضر
 أعطافه في سائح متفجّر
 سربال منصور اليدين مظفّر
 قصر الجديد وحسنه المتخيّر
 شرف العلوّ به وفضل المفتخر
 وسرى الغمام بوابل متفجّر
 وغدت بوجه ضاحك مستبشّر
 ورأيته فرأيت أحسن منظر
 تبقى بشاشتها بقاء الاعصر (١)

قد تمَّ حسن الجعفري ولم يكن
 ملك تبوأ خير دار اقامة
 في رأس مشرفة حصاها أوأؤ
 مخضرة والغيث ليس بساكب
 ظهرت بمنخرق الشمال، وجاورت
 فرفعت بنياناً كأن مناره
 أزرى على همم الملوك وغض من
 عالٍ على لحظ العيون كأنما
 بانينه بانى المكرمات ، وربّه
 ملأت جوانبه الفضاء ، وعانقت
 وتسير دجلة تحته ، ففناؤه
 شجر تلاعبه الرياح فتثني
 فاسلم أمير المؤمنين مسربلاً
 واستأنف العمر الجديد بهجة الـ
 واسم شققت له من اسمك فاكتسى
 خفت الغبار وقد علوت تريده
 وتحلت الدنيا بأحسن حليها
 قد جئته فنزلت أيمن منزل
 فاعمره بالعمر الطويل ونعمة

الجعفري ايضا :

وهذه أبيات أخرى للبحثري في وصف القصر المذكور بدأها بذكر
 هطول الامطار الغزيرة المتوالية ليلا ونهاراً ثم انتقل الى القول بان بهجة
 النعيم أخذت تتردد بين قصري الصبيح والجعفري ، ثم نعت القصر الثاني

(١) الديوان ١٠٣٩/٢ - ١٠٤٢

بانه عجيب البناء ، أنيس النزول ، جميل المنظر ، تكتنفه رياض مزهرة
تصبو النفوس اليها ، وتلتذ بمحاسنها وأريجها ، وهذا القصر دار ملك
مجتباة لامام المسلمين وهو الخليفة الذي حاز تراث الرسول والذي أخذ
الناس بسيرة عادلة مستقيمة وهو يدعو بعد نعته اياه بانه امام الهدى
وصاحب الحق في الخلافة ، وسليل الرشيد والمهدي - بالعرم الطويل ،
والعيش الرضى ، والدهر الجميل الحبيب :

باكرتنا بواكر الوسمى ثم راحت وأقبلت بالولى
وأرى الغبث ليس ينفك يهمى في غداة مخضلة وعشى

في البناء العجيب والمنزل الآس والمنظر الجميل البهى
ورياض تصبو النفوس اليها وتحيا بوردهن الجنى
دار ملك مختارة لامام أحرزت كفه تراث النبى
وهب الله للرعية منه سيرة الفاضل النقى الزكى
فهى محبوة باحسانه الصا فى عليها وحكمه المرضى
يا امام الهدى ويا صاحب الحدق ويا بن الرشيد والمهدى
ليدم دهرك المحبب فى النا س بعمر باق وعيش رضى (١)
وجاء وصف هذا القصر أيضا فى قصيدة أخرى من قصائده التى رفعها الى
المتوكل مشيداً بتأخير النيروز (٢) .

« وظاهر ان الشاعر قد رسم صورة واضحة لهذا القصر العظيم ،
يد انه لم يتغلغل فى داخله ، ليصور ما كان فيه من ضروب الفنون ،
وانما اكتفى بالوصف الظاهري له ، شأنه فى أكثر اوصافه !

ويبدو ان البحترى لم يلتزم بوحدة الوصف - اذا صح التعبير -

(١) نفسه ٢٤٥١/٤ - ٢٤٥٢ .

(٢) أنظر : ص ٢٢٨ .

وانما كان يطعم وصفه بشيء من المديح للمخليفة ، الامر الذي يفقد الوصف - كما نظن - بعض اساقه وروعته .

وقد كرر الشاعر في المثال الاول أكثر من مرة ، القول بان هذا القصر كان شامخا ذاهبا في اجواز الفضاء ، ولكن البحري - مع كل ذلك - كان متمكنا من الوصف ، موفقاً في اجتباء اللفظ ، بارعاً في الخيال ، ماهرا في التصوير « (١) » .

الصبيح :

وهو أحد قصور المتوكل الجميلة أيضا أنفق على بنائه خمسة آلاف الف درهم ، ويبدو ان المراجع المختلفة لم تتحدث عن هذا القصر كثيرا ، وانما اكتفت بالإشارة الخاطفة اليه ، بيد ان البحري الذي كان شاعر البلاط والذي كان مقيماً في ربوع هذه الحاضرة لم يكن ليغفل عن ذكر أمثال هذه المظاهر العمرانية التي كان لولي نعمته المتوكل شغف عظيم فيها ، لا يقعه عن تنفيذها جسيم الاموال ، ولا يشيه عن اتمامها مشقة الاعمال (٢) .

وللبحري فضيلة ينفرد بها عن باقي الشعراء المعاصرين له الذين كانوا يترددون على سامراء وخلفائها ، تتميز هذه الفضيلة بذكره لكثير من المظاهر العمرانية التي لم تشر اليها المصادر الاخرى ، ولم يتطرق اليها الشعراء في عهده ، ولولا ذكره لها في شعره لجهل أمرها جهلا تاما ، ومن جملة ما أغفلته المراجع من هذه المظاهر العمرانية هذا القصر الذي جاء وصفه له في احدى قصائده المرفوعة الى المتوكل فالشاعر يشير - بعد التمهيد الغزالي - الى صفاء الزمان واعتداله ، والى غضارة الحياة

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) للوقوف على ولع المتوكل في البناء أنظر : سامراء في أدب القرن

الثالث الهجري ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وطيبتها ، وان الهواء قد صفا ، وتصفيق الخمر قد لذت ، وان استتمام
هذا القصر « الصيخ » كان في أحمدة الاوقات وخيرها ، وقد أصبح داراً
تتخذ الأئس كما تتخذ للمسكنى والاقامة وكان بازائه قصر آخر على وزنه
يسمى « المليخ » كاد - لو استطاع الكلام - ان يحييه مسلماً ، وقد
تزيماً القصران بالحلل القشبية وتجملاً ببرود البهجة ، وبدوا ضاحكين
باسمين ، فهما في تقابلهما وتزينهما وابتسامهما كالعشيقين ، لو كان
بوسعهما اللقاء لراحا في عناق متصل والتزام محتدم ، وان الريح الهابئة
بين جنبي هذا القصر العظيم لتكبو مما تلاقيه من الوهن والفتور والملل ،
ولم يكن هذا القصر في مكان جذب ممحل ، بل كان يرفده جدول ذو
عباب يبدو في صفائه وامتداده كالحسام الابيض المجلو ، وان هذا الماء
اذا ما انصب في فناء البركة الواسعة الخضراء استحال لونه الى قطعة
بيضاء صافية من الرخام ، حتى لينخدع البصر فيما يراه منه ، فيحسبه
ماء بحر وهو ماء سحاب ، وان الدواليب المنصوبة لا يديرها من الحيواز
سوى النعام ، وان هذا القصر وهو خير القصور يستحقه على رغم الاعادي
وكرههم له - خير الناس وامامهم ، وقد جاور قصر الجعفري القصر
العظيم الذي مرّ بنا ذكره • كما مال اليه قصر آخر اسمه الشبداز ، وفي
هذا دليل على ان هذه القصور - اذا صحّ قول البحري - كانت متجاورة
متقاربة !

وطبيعي ان امثال هذه المباني وما احتوته من برك وجداول وزينات
لتعد بحق أموراً تستدعي الوقوف عندها طويلاً ، والتأمل فيما انطوت
عليه من الفخامة والروعة والجلال •

فهذه الحلل - المباني - التي اتخذت منازل للملك شامخة ساطعة
في الوانها ، فكأنها النجوم المتألثة في الظلام الحالك والميل البهيم ، وانها
لتسد على الشاعر مسالك الادراك ، وتحول بينه وبين الحقيقة ، فيفزع

الى اوهامه وظنونه يستنطقهما ويستعديهما على تصور ما يراه ، فاذا به يحسب ما يشاهده ضرباً مما يحسه في الاماني ، ونوعاً مما يراه في الاحلام ، فهذه الحلل لم تكن زينة للحياة الدنيا فحسب ، بل هي الى جانب ذلك منازل للمتقوى والعبادة ، ولهذا فانشاؤها والتفنن فيها مما يوجب الله فيه على الناس شكر صاحبها ، كما يجزيه عليها ثواباً وأجراً ، ومن أجل هذا فقد بعثت في النفوس الخشوع والاخبات ودفعتها تزلزلاً من الجنان التي أعدّها الله للمصالحين من عباده - الى النزوع عن اجتراح الذنوب وارتكاب المعاصي ، وهي كذلك مفخرة يباهي بها المسلمون من يكثر ونهم في أمثالها وأشباهها من الامم الاخرى ، وبعد ان يصل الشاعر الى اعقاب غرضه ينهي قصيدته بمباركة الله لهذا الخليفة على ما حباه من مجد معلّى ، وأولاده من مآثر كريمة :

رقّة الماء في مزاج المدام
فهو مغنى أنس ودار مقام
طق حياه معلناً بالسلام
ك ، فمن ضاحك ومن بسام
أفرطاً في العناق والالتزام
ه فتكبو من ونية وسام
ماء كالابيض الصقيع الحسام
سراء ألت عليه صبغ الرخام
يخدع العين وهو ماء غمام
ضح يسقى بهن غير النعام
ه بالرُكن والصفاء والمقام
باً بكسره العدى لخير الأنام
ز اليه كالرأغب المعتام

قد صفا جانب الهواء ولذت
واستتم الصبيح في خير وقت
ناظر وجهة المليح فلو ين
ألسا بهجة وقابل ذا ذا
كالمحين لو أطاقا التقاء
تفد الرياح جريها بين قطري
مستمدّ بجدول من عباب ال
فاذا ما توسط البركة الخض
فتراه كأنه ماء بحسري
والدواليب اذ يدرن ولا نا
بدع أشئت لاولى عباد الل
ان خير القصور أصبح موهو
جاور الجعفرى وانجاز شيدا

حلل من منازل الملك كالآن مفحات تعيي الصفات فما تد فكأنا نحسها في الأماني غرف من بناء دين وديناً شوقتنا الى الجنان فزدنا وبها تشرف الأوائل ملكاً بارك الله للخليفة في المج

جسم يلمعن في سواد الظلام رك الات بالظن والأوهام او نراها في طارق الأحلام يوجب الله فيه أجر الأنام في اجتناب الذنوب والآثام وتباهي مكائري الاسلام مد المعلى والمآثرات الكرام^(١)

البركة :

لم يفت خلفاء بني العباس في سامراء ان يلحقوا بقصورهم ما هو ضروري لزيادة جمالها ، وقضاء ساعات اللهو فيها ، فأنشأوا لذلك البرك الفسيحة الجميلة ، وربما جعلوا لكل قصر بركة خاصة ، وقد ذكر اليعقوبي ان المعتصم حين اختط سامراء « بنى العمارات قصورا » وصير في كل بستان قصرا فيه مجالس وبرك وميادين •

وكان لهذه البرك مداخل للمياه ، كما كان لها مخارج لتصريفها ، وكثيرا ما كانت تحف بالرياض الغن ، والاشجار الوارفة ، كما كانت تزود بالدكات الكبيرة والمصطبات الاصطناعية الفسيحة ؛ نيتسنى لجلساء الخليفة وندمائيه الجلوس عليها ، وتفنونوا في تزيين هذه البرك بالصور البديعة ، والتماثيل الجميلة فجعلوا فرش بعضها مكللة بالجواهر ، كما غشوا ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة ، ولم يكنفوا بنوع واحد من البرك ، بل حاول بعضهم ان يتخذ له بركة مسقوفة يتمتع بها في أوقات النهار ، وأخرى مكشوفة يتخذها للاستمتاع في ساعات الليل ، من ذلك بركتا بيت الخليفة الليلية والنهارية اللتان أشأهما المتوكل ، وكانت تسمى

(١) الديوان ٣/٢٠٠٥ - ٢٠٠٧ يحسن الرجوع الى كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٥٤ - ٢٥٨ للوقوف على أمور أخرى تتصل بهذا القصر •

احداهما بالزندان أو الهبسة أو هاوية السباع (١) .
 أما الدراسات الحديثة المستقاة من اعمال الحفر والتنقيب ، فقد
 زودتنا بكثير من المعلومات عن أبعاد هذه البرك ومساحاتها ، وعن أشكالها
 ومواضعها ، فأشارت تلك الدراسات الى ان البركة الحسنة التي وصفها
 الباحثي تتكون من منخفض اصطناعي مربع الشكل ، يبلغ طول كل من
 اضلاعه زهاء مائتي متر ، وعمقه عن مستوى الارض المجاورة ثلاثة
 أمتار تقريبا . في حين كانت بركة انقصر الجعفري في المتوكلية مستطيلة
 الشكل يبلغ طولها نحواً من مائة وعشرين متراً ، وعرضها زهاء ثمانين
 متراً (٢) .

وشارك الشعر في الاشادة بهذه البرك ، ووصف ما كانت عليه من
 السعة والعمق ، واللطافة والحسن ، وقد أشار أبو الفرج الاصفهاني الى
 ان لابي العبر الهاشمي أشعاراً حميدة في المتوكل يصف فيها قصره وبرج
 الحمام والبركة كثيرة المحال ، مفرطة السقوط ، مما حدا به الى اطراحها

(١) جاء في كتاب « شاعرية الوليد » ص ٢٧٧ عند الكلام على البركة
 التي وصفها الباحثي ما نصه : « البركة ٠٠٠ بناها المتوكل على الله
 العباسي في مدينة سامراء شمال الملوية قريبة من قصر (السباع) ، ولم
 تزل آثارها باقية الى اليوم ، بركتها التي أصبحت الآن على شكل تل يحيط
 بالبركة » ولنا على هذا النص ملاحظتان : الاولى : ان البركة التي أشار
 اليها المؤلف والواقعة الى شمال الملوية ليست هي البركة الحسنة التي
 وصفها الباحثي ، وانها على اكثر الاحتمال البركة المكشوفة التي ما تزال
 معالمها ظاهرة للعيان الى اليوم ، والثانية ، انه ليس هناك - فيما نظن -
 قصر يسمى بقصر السباع ، وانما هناك بركة تسمى بهأوية السباع ،
 أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٨٩ .

اما البركة الحسنة الواقعة على مسافة نحو ستة كيلومترات من مدينة
 سامراء الحالية شرقاً في الموضع المعروف محلياً بالمشرحات . أنظر : ري
 سامراء للدكتور أحمد سوسة ٢٤/١ .

(٢) أنظر سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٨٨ ، ٢٩٠ .

واغفال ذكرها في كتابه .

ومن وصف هذه البرك وأشاد بها علي بن الجهم ، فقد رويت له أبيات يصف بها البركة المحترقة في القصر الهاروني ، تصغر الوائق المشهور (١) .

ويبدو انه على الرغم من وفرة البرك وكثرتها فان البركة الحسنة التي جاءت في قصيدة البحثري كانت أعظمها وأشهرها ، حتى كان يطلق عليها - لشهرتها - اسم البركة فحسب ، غير ان بعض المراجع القديمة كانت تسميها بركة الجعفري (٢) ، وهي تسمية مخطوءة - اذا صح - ان مكان البركة الحسنة كما اثبتته الدكتور سوسة - يقع في الموضع المعروف محليا بالمشرحات على نحو بعد ستة كيلومترات الى الشرق من سامراء الحالية (٣) .

فكان هذا الاسم قد أصبح علماً عليها . فقد روى عن البحثري انه قال : دخلت على المتوكل وهو جالس على (البركة) والطر يقع فيها فيعمل حججاً ، فقال : قل في هذا شيئاً (٤) .

وروى الاصفهاني في أغانيه ان عثت المغني قال : « دخلت يوماً على المتوكل وهو مصطبح وابن المارقي يغنيه في قوله :

أقاتلني بالجد والقدر والخد
وباللون في وجه أرق من الورد
وهو على البركة جالس ، وقد طرب واستعاد الصوت مراراً ، وأقبل عليه ، فجلست ساعة ثم قمت (لحاجة) فصنعت هزجاً في شعر البحثري

(١) أنظر : المصدر السابق ص ٢٩٢ .

(٢) أنظر : زهر الآداب للحصري ١٩٧/١ وجاء فيه « ويتعلق بهذا الباب قول البحثري يصف بركة الجعفري وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى » .

(٣) أنظر : ري سامراء ٢٤/١ .

(٤) أخبار البحثري للصولي ص ٩١ .

الذي يصف فيه « البركة » ،

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء زكبت فيها « (١) فهاتان الروايتان تدلان دلالة واضحة على ان لفظة « البركة » قد أصبحت علماً على البركة التي وصفها البحرى في شعره ، والرواية الثانية قاطعة الدلالة على ذلك ، حيث يقول عثث « نصنعت هزجاً في شعر البحرى الذي يصف فيه « البركة » :

إذا النجوم تراءت في جوانبها ♦♦♦ ومعلوم ان الايات التي غنى فيها هي من قصيدة البحرى المشهورة في البركة المذكورة .
ويبدو انهم لا يستخدمون لفظة (البركة) اذا ارادوا التحدث عن بركة أخرى غير « بركة البحرى » ، فقد روى عن البحرى انه قال :
« كنا عند المتوكل على الله يوماً ، وبين يديه عبادة المخنث فأمر به فألقى في « بعض البرك » في أيام الشتاء ♦♦♦ » .

وواضح من هذه الحكاية ان البركة التي القى فيها عبادة المخنث ، لم تكن بركة البحرى والا لقل « البركة » (٢) .
ولبحرى في بركة المتوكل هذه أرجوزة وقصيدة ، فقد روى عن البحرى قوله : « دخلت على المتوكل وهو جالس على (البركة) والمطر يقع فيها فيعمل حجى ، نقل : قل في هذا شيئاً ، ولم أكن صاحب بديه ، فاعتزلت فقلت أبياتي :

ذات ارتجاز بحنين الرعد

فوافق انشاده الباكورة من ماء الورد الحديث ، فقال : انظروا ما في الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه الى البحرى ، فدفعوا منه شيئاً كثيراً بعته بمال ♦♦♦ « (٣) .

(١) الاغانى ٢٩/١٣

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤٣٠/٦

(٣) أخبار البحرى ص ٩١

أما الايات التي أنشأها الشاعر فهي :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقيد
فراحت الارض بعش رغد من وشي أنوار الربى في برد
كأنما غدرانها في الوهد يلعبن من حباها بالترد^(١)

وواضح ان البحترى انصرف الى وصف السحابة وشكلها والريح التي تسبقها عادة ، والجهة التي قدمت منها ، كما وصف هطولها على الارض وانتعاشها بها حتى بدت مزدانة بزهورها وانوارها كالبرد الموشي ، وانه لم يخص من أبياته لوصف ما طلب منه سوى البيت الاخير . وهذا ما دفع الصولي الى التعليق على هذه الايات بقوله : « ولئن كان البحترى أحسن في أبياته ، فما أتى بما أمر به وأراد منه ؛ لانه أراد منه وصف الحجى ، واحدها حجة ، وهي كالقباب الصغار ، فاقصر على وصف السحابة والمطر ولم يصفها ، وهو يفعل مثل هذا بعينه : وصف شيء مع طبعه وتقدمه ، فيأخذ عفو طبعه ، ولا يتعب فكره »^(٢) . وان أصاب الصولي في تعليقه على انصراف الشاعر عن وصف ما طلب منه ، فانه غير محق في حكمه على اوصاف الشاعر عموماً ، فالبحترى لم يفعل مثل هذا بعينه - كما يقول الصولي ، وشعره الوصفي على اختلاف ضروره واتجاهاته خير دليل على بطلان هذا الزعم .

أما قصيدته في وصف البركة فهي هائتة الشهيرة في دنيا الادب العربي ، وتقع في (٤٠) أربعين بيتاً ، عشرة الايات الاولى منها في الغزل

(١) الديوان ١/٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٢) أخبار البحترى ص ٩١ .

التقليدي وعشرة الايات الاخيرة في مدح المتوكل ، وما بقي منها كان في وصف البركة المذكورة • فبعد المقدمة الغزلية ينتقل الشاعر فجأة الى الوصف ، ويشير كالمسائل عن رأى جمال هذه البركة ، وقد نظرت الغواني الى مقصايرها المنشأة في جوانبها ، وانها - أي البركة - لرتبتها العالية ، ومنزلتها الكبيرة ، تخال نفسها لا مثيل لها ، وانها الاولى في عظمتها وأهميتها ، وان البحر يأتي في المرتبة الثانية بعدها ، بل ما لدجلة الكائنة على مقربة منها تنافسها في الحسن تارة ، وتباهيها تارة أخرى ، أما علمت بانها محاطة برعاية خير الناس ، ومنشأة من قبله •

وانها لتخل - من دقة الصنعة ، ومهارة الفن - من عمل الجن ، جن سليمان الذين تفتنوا في ابداعها ، وتلطفوا في دقايق معانيها ، حتى لو مكن بلقيس ان تمرّ بها لحسبتها الصرح المرّد الذي بناه لها الملك سليمان ، فكشفت عن ساقها عند دخولها فيه لحسبانها ايام لجة •

وان المياه الدافئة الى جوف هذه البركة تبدو في سرعتها واندفاعها كاليخول المنطلقة من جبل السباق ، وانها لتخال وهي جارية في القنوات اشبه بسبائك الفضة السائلة في قوالبها ، واذا ما خطرت أنسام الصبا على صفحة هذه البركة عملت فيها حبكا شبيهة بما يتراءى على الدروع المجلّوة من طرائق ، وانها لتضاحك الشمس حين تطلّ عليها ، وتباكي الغيث حين يتساقط فيها ، واذا ما جنّ الليل وانعكست أضواء النجوم على صفحتها خلت ما تكون من ذلك سماء مركبة فيها ، وانها من فرط عمقها ، وتباعد أقطارها لا يكاد ما بداخلها من السمك المحصور ان يبلغ غايتها ومنتهاها ، وانه ليرى في عومه - وقد تفتحت زعانفه - كالطير المنفوضة خوافها في أعالي الجو ، فاذا ما رام الهبوط الى أسافلها لقي متسعاً رحباً له ، واذا شاء الصعود الى أعاليها وجد بهواً كبيراً أيضاً •

وانه لينظر نظرة انحاء والتواء الى صورة الدلفين - وهو نوع من

الحيثان - الذي - كما يبدو - وضع في داخل البركة ليزيد من حركة السمك واضطرابه ، وان غزارة مائها لتتوب عن السحب في ري ما قصى من بسايتها ، وانها لتحاكى في انداقها يد الخليفة حين تدفع في اسباغ النعم والعطايا •

ومما زاد في زيتها انها سميت باسم منشئها ، كما انها اكتفت بالرياض الغن ذات الزهور والورود التي تحكى في الوانها وشياتها الوان الطواويس وشياتها ، وأنشئت لها دكتان عظيمتان متقابلتان ، ويظهر انهما خصصتا لجلوس حاشية الخليفة للتمتع بمنظر هذه البركة وما فيها •

وبعد ان انتهى الشاعر من وصف البركة انتقل الى الثناء على صاحبها وبانيها وهو الخليفة ، فأشار الى خلفته التي استحقها والتي اختالت هي الاخرى به ؛ لانها وجدت فيه مستحقها وصاحبها ، كما انى على كرم أصله ، وعراقه محتده والى رعايته الامة ، وحياطته لها ، باشاعة العدل فيها ، وافاضة العطايا عليها :

يا من رأى البركة الحسنة رؤيتها	والآسأت اذا لاحت مغايتها
يحسبها انها من فضل رتبها	تعدّ واحدة ، والبحر ثانيا
ما بال دجلة كالغرى تنافسها	في الحسن طوراً ، وأطواراً تباها
أما رأّت كالىء الاسلام يكلاها	من أن تعاب ، وباني المجد بينها
كأن جن سليمان الذين ولوا	ابداعها فادقوا في معانيها
فلو تمرّ بها بلقيس عن عرض	قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها
تنحط فيها وفود الماء معجلة	كالخيل خارجة من جبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة	من السباك تجرى في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً	مثل الجواشن مصقولاً حواشياً
فرونق الشمس أحياناً يضحكها	وربّق الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها	ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

لا يبلغ السمك المحصور غايتها
يعمن فيه بأوساط مخنحة
لهن صحن رحيب في أسافلها
صور الى صورة الدلغين يؤنسها
كأنها حين لجت في تدفقها
وزادها رتبة من بعد رتبتها
محفوفة برياض لا تزال ترى
ودكتين كمثل الشعرين غدت
إذا مساعي أمير المؤمنين بدت
ان الخلافة لما اهتز منبرها
إذا تجلت له الدنيا بحليتها
ما ضيع الله في بدو ولا حضر
ما زلت بجرأ لعافينا فكيف وقد
أعطاكها الله عن حق رآك له

لبعد ما بين قاصيها ودانيها
كالطير تنفض في جوارفها
إذا انحططن وبهو في أعاليها
منه انزواء بعينيه يوازيها
يد الخليفة لما سال واديهها
أن اسمه حين يدعى من أسامها
ريش الطواويس يحكيه ويحكها
احدهما بازا الأخرى تسامها
للواصفين فلا وصف يدانيها
بجعفر أعطيت أقصى أمانها
رأت محاسنها الدنيا مساويها
رعيّة أنت بالاحسان راعيها
قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
أهلاً ، وأنت بحق الله تعطيها^(١)

« ومن الواضح ان البحري قد نجح في وصفه لهذه البركة ، فقد وفق في الملاءمة بين الالفاظ والمعاني ، كما أبدع في تشبيهاته التي بثها في ثنايا القصيدة ، ولم يكن اختياره للقافية بأقل مهارة من اجتنائه للالفاظ والصور البيانية الأخرى !

ومن غير شك ان وصف حركة المياه المتدفقة الى داخل البركة وتشبيهها بحركة الخيول المنطلقة من جبل السباق ، وتشبيه تلك المياه - جارية صافية في قنوات البركة - بسبائك الفضة المنسابة في مجاريها ، لا يخلو من روعة الحركة ، وجمال التصوير ، كما لا يخلو من المهارة والبراعة وصفه لما يطرأ على ماء البركة حين يتعرض للرياح أو تساقط عليه أشعة الشمس ، أو قطرات

(١) الديوان ٢٤١٤/٤ - ٢٤٢١

المطر ، او حين تطل عليه النجوم في الليل ! ولعل ما في تشبيهه للمسمك المحصور في هذه البركة من الطرافة ، وما في تصويره لحر كاته التي كان يقوم بها في ارجائها من البراعة ، خير ما يبوئه مركزاً فريداً بين الشعراء ، ويخيل لنا ان أحداً من الشعراء لم يسبقه في هذا المجال ، ومن أجل هذا كله يخيل لنا كذلك ، ان البحري يعدّ الممهد الاول لهذا الضرب من الفن الوصفي « (١) » .

والواقع ان هذه القصيدة تعد من غرر قصيد البحري ، وكان ابن المعتز على حق حين قال : « لو لم يكن للبحري من الشعر الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى ، فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته في وصف البركة :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ••• لكان اشعر الناس في زمانه ••• » (٢)

الدكتان :

وللبحري قصيدة أخرى يشير فيها الى الدكتين المنشأتين على البركة الحسنة ، ويلمح الى قصر لعله قصر الحير الذي كان مشيداً بالقرب من البركة .

ومن الطريف ان شارح الديوان يعلق على هذه القصيدة بقوله : « اما الدكتان فقد وصفهما البحري في القصيدة ٩١٥ التي وصف فيها بركة قصر الجعفري فقال : البيت (٣٠) :

ودكتين كمثل الشعريين غدت احداهما بازا الأخرى تسامها »
وواضح ان في هذا الكلام تخلیطاً ، اذ ان الدكتين اللتين ذكرهما البحري في البيت المتقدم كانتا منشأتين على البركة الحسنة ، الواقعة على بعد نحو

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٩٤ .

(٢) أخبار البحري ص ٧٢ - ٧٣ .

سته كيلو مترات شرق سامراء الحالية ، كما ذكر ذلك الشارح نقلاً عن
ريّ سامراء (الديوان ٢٤١٤/٤ الحاشية) •

أما القصر الجعفري فيقع في المدينة المتوكلية الواقعة على نحو عشرين
كيلو متراً شمال سامراء ، وقد أشار الشارح الى هذا القصر بقوله :
« الجعفري ! قصر بناه المتوكل قرب سامراء بموضع يسمى الماحوزة ،
واستحدث عنده مدينة وانتقل اليها ••• (الديوان ١٠٣٩/٢ الحاشية) •
كما أشار الى المتوكلية بقوله : « المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله
قرب سامراء ، بنى فيها قصرأ ، سماه الجعفري أيضاً •• (الديوان ٢٠١١/٣
الحاشية رقم ٢٩) •

ويبدو من هذه التعليقات ان الشارح يجهل - في الحقيقة - مكان
الجعفري ومكان البركة الحساء ، ولو لم يكن جاهلاً بذلك لما وقع فيما
وقع فيه من وهم وتخليط ، على الرغم من ان كتاب « ريّ سامراء » للدكتور
سوسة الذي يشتمل على كثير من الخرائط كان مصدره الأساس في هذا
الشأن •

والقصيدة تتألف من ستة عشر بيتاً ، ستة الأبيات الاولى منها في الغزل ،
وما تبقى منها في ذكر الدكتين ، ومدح المتوكل ، فالشاعر يشير الى الرياض
الكثيرة المنتشرة بين هاتين الدكتين والتي وشحت بضروب من النرجس
الغض ، وصنوف من الأس والزعفران وان هناك قصرأ مباركاً ، سامق
البيان ، شامخ العلو ، تقصر العيون من الوصول الى ذراه ومنتهاه ، ويبدو
انه كان يتخذ للعبادة بدليل قول البحثري ان الخليفة نال في بنائه تكريمة
الله ، وفضل عطائه واحسانه • وبعد هذه اللمحة الخاطفة للدكتين والقصر
ينتقل الى مدح المتوكل فيتمنى ان يقيه الله لاتمام أيامه الحسنة وزمانه
الطيب ، وهذا ما رده الشاعر اكثر من مرة في ثنايا مدائحه له ، كما اكرّر
انتسابه الى النبيّ الكريم ، والى فرح الخلافة به ، وغبطة الرعية بعدله

وأيامه ، والى ان الله علم بمكاته ومقامه في الذود عن الدين والرعاية
للمدنيا ، فأعطاء ما أعطاه من جاه وسلطان :

وأرى الدكتين بينهما أف - وواف روض كالوشي في ألوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغض - ومن أسه ، ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الأع - ين دون الرفيع عن بنيانه
فيه نال الامام تكرمه الد - ه وفضل العطاء من احسانه
نسأل الله أن يتم فينا - حسن أيامه وطيب زمانه
يا بن عم النبي واللاس الفخ - ر من نوره ومن برهانه
أضعفت بهجة الخلافة وارت - د شباب الدنيا الى عنفوانه
ورآك العباد من نعم الد - ه عليهم وطوله وامتنانه
علم الله كيف انت فأعطا - ك المحلل الجليل من سلطانه
جعل الدين في ضمانك والذ - يا ، فعش سالما لنا في ضمانه (١)

حديقة الحيوانات :

« لم يأل خلفاء بني العباس جهداً في انشاء الحدائق والبساتين ، وفي
اتخاذ الرياض والجنائن في عاصمتهم الجديدة سامراء • اذ ما كاد المعتصم
ينتهي من تخطيط المدينة واقطاع القطائع حتى أمر بحمل الغروس المختلفة
من سائر البلدان والامصار ، وكان لوفرة المياه ، وجودة التربة ، وملائمة
المناح أكبر الاثر في انتجاح هذه الغروس من النخيل والبقول والرياحين ،
فكثرت لذلك الجنائن والبساتين ، وانتشرت الاوراد والازهار • وتلا
المعتصم في الحكم أبنائه وأحفاده الذين كانوا شغوفين بالعمارة ، وكان
يستتبع ذلك بطبيعة الحال الاهتمام بالرياض والحدائق التي لا بد منها
ليستكمل البناء جماله وروعته ، فكان لكل قصر من قصور الخلفاء ووزرائهم
وقوادهم رياض غن ، وبساتين فيح امتدت من المطيرة الواقعة في جنوب

(١) الديوان : ٢١٧٠/٤ •

سامراء الى الدور الكائنة في شمالها • فكانوا يلجأون اليها في أوقات الاستجمام وساعات اللهو •

ولعل أكبر الحدائق التي أنشئت في سامراء هي « حير الوحوش » للمتوكل • وتقع هذه الحديقة خارج مدينة سامراء ، وهي مسورة بمرور من الطين يحيط بها من جميع جهاتها ، وتحتل مساحة واسعة تبلغ حوالي ثلاثة وخمسين كيلومترا • وما تزال آثار سور هذه الحديقة شاخصة الى اليوم • وكانت تضم عددا كبيرا من الحيوانات المختلفة • وقد أشار اليعقوبي الى هذه الحديقة وسياجها وما كان فيها من أنواع الحيوان ، فقال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطا غيره ، وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير والوحش والايابل والارانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء واسعة » • وكانت هذه الحديقة تضم الى جانب ذلك البركة الحسنة التي وردت في شعر البحتري ، كما كان فيها وبالقرب من البركة قصر جميل ما تزال آثاره شاخصة ، كان معداً لنزهة الخليفة وراحته « (١) » •

وللبحتري مدحة في المتوكل أشار فيها الى حيوانات هذه الحديقة الكبيرة ، وتقع في (٢٥) خمسة وعشرين بيتاً ، استلها بالغزل الرقيق العذب ثم انتقل بلطف وتمكن الى امتداح المتوكل ، واذا صحّ قوله في البيت الذي انتقل فيه الى غرضه فيكون قد قصد الخليفة من بلده !
والبحتري في قصيدته هذه يلحّ كثيرا في اسباغ الصفات الدينية العظيمة على المتوكل فهو الامام الذي له شرف يعدّ في سلف الدنيا وابقاها ، وهو خليفة الله الذي يرفع بأعطياته ونعمه الامجاد ، فليس هناك من فضيلة الاّ به ، ولا من رعية الاّ اذا كان راعيها ، وان ملكه في اتساعه وعظمته

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٠١ - ٣٠٢ •

كملك النبيّ سليمان الذي سخر الله له الريح عاصفة ، كما سخر الجن • وان مما يدل على قربيه من الله وزلفته عنده ، ما قام به من الدعاء لاستسقاء المسلمين حين حلّ فيهم القحط والمحل ، ويبدو ان البحري تفرّد بذكر هذا الخبر ، اذ لم تشر اليه - فيما نحسب - المراجع الاخرى !

وأشار البحري أيضا الى طاعة الحيوانات التي كانت في الحديقة التي أسأها لها ، فقال : ان هذه الحيوانات جاءت طيعة وهي من بين ظبي أحوى اللون ، وطيبة مكحولة العينين وقد بلغت الألفين ، فكانت طوع يديه ، تسير ان أراد ، وتقف ان شاء ، وهي مسددة النظر اليه ، شاخصة نحوه ، يراعينه ويستلهمن من محيآه الذي تزينه جلاله يكثر رائيها التسيح والتمجيد ، وقد قطع بتلك الحيوانات نهر القاطول ثم انتشرت في عرصة الحير الفسيحة الارحاء ، وان نهر نيزك الذي كان يمد الحديقة والبركة بالمياه أحد موارد تلك الحيوانات ، وان ساحة التل التي كانت في الموضع نفسه احدى مغايبها ، وان ما فيه من جلاله ، كانت السبب في طاعة الوحش والعاصين في أقاصي البيد والمهامه ، وان هاتين صفتان انفرد بهما دون الملوك ، ولكنهما لم تدفعا الى الكبرياء ولا التيه •

واستكرت ظعنى عنها ، فقلت لها : الى الخليفة أمضى العيس ممضيها الى امام له ما كان من شرف خليفة الله ما للمجد منصرف فلا فضيلة الا انت لابسها ملك كملك سليمان الذي خضعت وزلفة لك عند الله تظهرها لما تعبد محل الارض واحتبست وقعت مستسقىا للمسلمين جرت الى الخليفة أمضى العيس ممضيها يعدّ في سالف الدنيا وابقبها الا الى أنعم أصبحت تولبها ولا رعية الا انت راعبها له البرية ، قاصبها ودانبها لنا ببرهان ما تأتي وتبديها عنا السحاب حتى ما نرجبها غرّ الغمام ، وحثت من عزابها

فلا غمامة الا انهبلّ وابلها
 وطاعة الوحش اذ جاءتك من خرق
 كالكاعب الرود يخفى في ترائبها
 الفان جاءت على قدر مسارعة
 ان سرت سارت وان وقتتها وقتت
 يرعن منك الى وجه يرين له
 حتى قطعت بها القاطول وافترقت
 فنهز نيزك ورد من مواردها
 لولا الذي عرفته فيك يومئذ
 فضلان حزتهما دون الملوك ولم

من أجل القصور :

ان شغف المتوكل بتشييد القصور وابتناء العمائر ، كلفه أموالاً
 طائلة فكان من جراء ذلك يعتمد الى كل وسيلة ممكنة لتوفيرها وتحصيلها •
 ويبدو ان للخصومة التي كانت قائمة بين رجال البلاط أثرها البعيد
 في التنكيل والصفاق التهم ببعضهم البعض ، وبخاصة فيما يتعلق باحتجان
 الاموال واحتزانها •

وتحدثنا كتب التاريخ ان نجاح بن سلمة الذي كان على ديوان
 التوقيع ، وتبع العمال في عهد المتوكل والذي كان يقرّبه ، وربما ينادمه
 - قد زين له توفير ما يحتاجه من أموال لتشييد قصوره ، واتهم اثنين من
 المنقطعين الى وزير المتوكل عميد الله بن يحيى بن خاقان ، وهما : الحسن
 ابن مخلد ، وموسى بن عبد الملك ، بالخيانة والتقصير ، وطلب دفعهما اليه
 لينظرهما ويستخرج منهما أموالاً ضخمة ، فسرّ المتوكل بذلك وأدناه
 وشاربه في تلك الليلة • بيد ان تدبيره هذا قد باء بالفشل : اذ كان الوزير

(١) الديوان ٢٤٠٩/٤ - ٢٤١٣ •

أكثر دهاء منه ، وأشدّ تيقظاً ، حيث استطاع ان يحمل ابن سلمة على كتابة رقعة الى الخليفة يتصل فيها عما قاله في الليلة التي شاربه فيها ، في حين اوعز الى مقربيه ان يكتبوا في نجاح وأصحابه بسبالغ كبيرة ، واوصل الرقعتين الى المتوكل ، فأمر بدفعه الى احدهما فضربه وعذبه حتى مات وكان ذلك في سنة ٢٤٥هـ ، وصودرت امواله واموال ابنه وقصورهما وفرشهما ، ومستغلاتهما بسامراء^(١) .

والبحتري بحكم كونه شاعر البلاط ، والمسجلّ لاعمال الخليفة ، قد تناول في شعره هذا الحادث ، فهجا ابن سلمة الذي وصمه بالمين والخيانة ، والسعاية والغش :

دواعي الحين سقن الى نجاح	ركوب البغي للأجل المتاح
ولو نصحاً أراد لكان فيه	عبيد الله أسبق من نجاح
فحاق برأسه ما كان ينوي	وحلّ بأهله سوء الصباح
مدلّ بالسعاية والتبدي	بها قتل الامام بلا جناح
وأكذب من مسيلمة بن صعب	وأفصح في العشرة من سجاح
بدت لخليفة الرحمن منه	مزايين خائن نطف وقاح ^(٢)
فكان يريد نصحاً وهو مصب	على غش كأطراف الرماح
فأبسل بالذي كسبت يداه	وعمّ الناس ذلك بالصلاح
فلا عدم الامام صواب رأي	نفي الجبراء عن عطن الصحاح
وأبقاه الاله بقاء نوح	لتشييد المكارم والسماح ^(٣)

(١) أنظر : تاريخ الطبري ٩/٢١٤ - ٢١٨ ، الكامل في التاريخ ٧/٨٨ - ٨٩ ، تاريخ يعقوبي ٣/٢٢٤ طبعة النجف وفيه ان ذلك كان في سنة ٢٤٦هـ .

(٢) النطف : النجس ، المريب .

(٣) الديوان : ١/٤٦٣ - ٤٦٤ .

مدحتان بلا مناسبة :

وللبحثري مدحتان أخريان في المتوكل ، ويبدو انه أنشأهما فيه دون ان تكون هناك مناسبة ، ولعله من أجل هذا أكثر من الغزل فيهما حتى كاد يقرب من نصف كل منهما أو يزيد ، كما انه نحا في الغزل منحى فيه من الاحتفال بالصنعة ومتطلباتها الشيء الكثير ، وقلّ فيه الابداع الذي لمحناه في مطالع مدائحه السابقة .

فلمدحة الاولى من خمسة عشر بيتاً ، استغرق الغزل منها سبعة أبيات ، وقد أكثر فيها من التقسيم كما جانس وطابق في كثير منها ، ولعل طالع القصيدة خير مثال على احتفاله بالصنعة وتكلفه التجنيس بين لفظتي الاعطاف والعطف في الصدر ، وبين الاطراف والطرف في العجز ، واما التطابق فيبدو واضحاً جلياً في بقية الابيات .

وبعد المقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى المدح فيسرد الاوصاف والنعوت التي سبق له ان كررها في ثنايا مدائحه في الخليفة ، فهو خير من يكفى النوائب ، ويتصدى لها ، وهو كهف المسلمين ، والحامي ذمارهم ، وهو الكريم المعطاء ، الذي يحسن الى المعروف حين الاستهام الى من يهواه ، وانه لا يجد راحة الا اذا أنجز موعوده ، واذا ما تعرض الشاعر لوصف أخلاقه اعترضته أفعاله العظيمة التي تعلو على الوصف وتزيد ، وينتهي المدحة بطلب جدواه الذي حدده بألف :

ومهتزة الاعطاف نازحة العطف	منعمة الاطراف ، فاترة الطرف ^(١)
اذا بعدت أبلت وان قربت شفت	فهجرانها يبلي ، ولقيانها يشفى
دنواً فقد تيمت بالبعد والنوى	ووصلاً فقد غنيت بالصد والصدف
لعمر أمير المؤمنين لقد كفى	نوائب دهر ، مثله مثلها يكفى

(١) الاعطاف : جمع العطف : الجانب • العطف : الميل • الاطراف من البدن • اليدين والرجلان والرأس الطرف : العين •

غدا وهو كهف المسلمين وردهم
 يحن الى المعروف حتى ينيله
 متى ما أصف أخلاقك الغر تعترض
 واما أعد نفسي عليك رغبة
 وما ألف الف من جdak كثيرة
 فأكرم به من ردد قوم ومن كهف
 كما حن الف مدتهم الى الف
 غرائب أفعال تزيد على الوصف
 من النيل أصبح في أمان من الخلف
 فكيف أخاف الفوت عندك في الف^(١)

اما المدحة الثانية فتتألف من (٢٣) ثلاثة وعشرين بيتاً ، يقع القسم
 الغزالي منها في خمسة عشر بيتاً ، وهو غزل بادي الكلفة ، ينحط كثيراً
 عن مشهور غزله ، يشير فيه الى تقدمه في السن ، واطراح الغواني له ،
 ثم يعرّج بعد ذلك على الممدوح الذي ينعتة بالكرم والجود ، وبانه جواد
 بنبي العباس وزينهم ، ويشير لاول مرة الى لمعان التاج فوق رأسه ، كما
 ينهى القصيدة بالتمدح بعدله ، وابعاده الشبهات عن حمى الاسلام ، ولعله
 يريد بذلك احياء السنة وابطاله القول بخلاق القرآن • والقصيدة عموماً
 لا ترتفع الى مصاف مدائحه الجيدة في المتوكل :

سلام - وان قلّ السلام - مضاعفاً
 علينا بحمد الله لله نعمة
 اذا نحن جددنا له الشكر جددت
 جواد بنبي العباس قد تعلمونه
 له عند تجديد السؤال طلاقة
 كأن وميض التاج فوق جبينه
 أماط حمى الاسلام من كل شبهة
 على ذاك من لهو وشكل مشكل
 تروح وتغدو من يد المتوكل
 له نعم أخرى بذل معجل
 وزين بنبي العباس في كل محفل
 محققة بالغيب ظنّ المؤمل
 على قمر الشعريين مكلل
 وقام بعدل واضح غير مشكل^(٢)

رثاء أم المتوكل :

أم المتوكل اسمها « شجاع » ، وكانت امرأة سالحة ، كثيرة المعروف

(١) الديوان ١٣٦٩/٣ - ١٣٧٠ .

(٢) نفسه ١٩٢٢/٣ - ١٩٢٣ .

تخرج في السرّ على يد كاتبها أحمد بن الخصب ، كما كانت تتعهد الانفاق على بعض العيون في مكة وبخاصة في اوقات الازمات ، من ذلك انفاقها على « مشاش » حين غارت في سنة ٢٤٥هـ ، فارتفع من جراء ذلك ثمن الماء حتى بلغ سعر القربة منه ثمانين درهماً .

وكانت تدعى « السيدة » في عهد أبنها المتوكل ، وتوفيت بالجعفرية (المتوكلية) لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٧هـ ، وصلى عليها المنتصر بن المتوكل ، ودفنت عند المسجد الجامع^(١) .

وللبحتري مرثية في أم المتوكل هذه تقع في عشرين بيتاً ، يعزى فيها الخليفة ، ويعدّد بعض مآثر المرثية وفضائلها ، وما انتاب الناس من حزن عليها ، ويشير فيها الى اللقب الذي كانت تعرف به وهو « السيدة » ، كما يشير الى ما أثار عن المتوكل حين وفاتها من نظمه بيت شعر فيها وهو قوله :

تذكرت لما فرّق الدهر بيننا فعزيت نفسي بالنبيّ محمد
والبحتري لم يفته ان يتخذ من هذه المناسبة ذريعة للشاء على
المتوكل ، والاشادة بفضائله ، وذوده عن حوزة الاسلام ، وايصائه بالصبر
والجلد ، وافتداء الناس كلهم « لنعله » اذا ما أصابه مكروه ، وهو كما
ترى اغراق في التزلّف ، وافراط في التملّق ، ثم أخذ يخفف عنه المصيبة
بتذكيره ان مصير كل حيّ رهن بقدر محتوم ، حتى الانبياء والرسول .
والمرثية - كما يخيل الينا - ليست ذات مستوى يرتفع بها الى
غرر قصائده فهي تنقثر الى الحرارة ، وصدق الشعور ، كما يغلب عليها
طابع التكلف ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من التقسيم الذي كان الشاعر
كثير الاحتفال به عموماً :

(١) أنظر : الطبري ٢١٣/٩ ، ٢٣٤ ، مزوج الذهب ٣٦/٤ ،
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣٢٣/٢ وجاء فيه ان وفاتها كانت سنة
٢٤٦هـ .

وحرقة بغليل الحزن تشتعل
 على الجوانح الا انواكف الخضل
 او قل صبر ، فلا لوم ولا عدل
 منا ، وأية نفس غالها الاجل
 ومن لها المآثرات السبق الأول
 مكروهه ، وقضاء موشك عجل
 وكل قلب له من حسرة شغل
 كما يعمّ سحاب الديمة الهطل
 باق لفقدانها والسهل والجبل
 وبشره أمل وسخطه وجل
 والعمر يمتدّ بالنعى ويتصل
 فداء نعلك أن يقاتلك الزلل
 والحبر أجمل ثوب حين يتدل
 في الخلد بعد النبي المصطفى أمل^(١)

غرّوب دمع من الاجفان تنهمل
 وليس يطفىء نار الحزن اذ وقدت
 ان ليجّ حزن ، فلا بدع ولا عجب
 لله اي يد بان الحمام بها
 سيّدة الناس حقاً بعد سيدهم
 جرى لها قدر حتم ، فحلّ بها
 فكل عين لها من عبرة درر
 عمّ البكاء عليها والمصاب بها
 فالشرق والغرب مغموران من أسف
 قل للامام الذي آلاؤه جمل
 لك البقاء على الايام يقبيل
 والناس كلهم في كل حادثة
 صبراً ومعرفة بالله صادقة
 عزيت نفسك عنها بالنبي وما

في مجالس المتوكل :

مرّ بنا ان البحري كان من المقربين لدى المتوكل والمختصين به ؛
 فكان يجالسه ويناديه ، حتى كانت له نوبة خاصة به ، فكان يحضر المجالس
 التي تهيأ للخليفة ، والتي كانت لا تخلو من العلمان الذين يعهد اليهم
 القيام بادارة شؤون هذه المجالس ، وكانوا على شيء كثير من الوسامة
 والملاحاة •

وعلى الرغم من ان البحري لم يصوّر لنا في شعره شيئاً ذا بال عن
 مجالس الأنس التي كان يحضرها - وربما كان السبب في ذلك رغبة
 الخليفة في اخفاء جانبه اللاهي عن الرعية - فانه ألمح في أبيات أربعة الى
 احد تلك المجالس ولعله مجلس الخليفة المتوكل ، فقال :

(١) الديوان ١٨٨٧/٣ - ١٨٨٨ •

قلوب شـجتهن الخدود الملائح وساق بدا كالصبح والميل جانح
يدير كؤوساً من عقار كأنها من النور في أيدي السقاة مصباح
فلراح ما تجرى عليه دماؤهم وللمشوق ما ضمت عليه الجوانح
وندمان صدق في جوار خليفة غدا بين كفيّه الندى والصفائح^(١)

وكان الخلفاء الى جانب انهوهم واستمتعاهم ومشاركتهم الندماء في كثير من الامور التي تجري في تلك المجالس - يراقبون جلساءهم وحاشيتهم ، ويحاسبونهم على ما يبدر منهم تجاه اولئك الغلمان من تحرش أو مداعبة ، فكانوا يظهرون من الحرص والغيرة على غلمانهم وجواريتهم ما يحمل ندماءهم - خشية النقمة عليهم والاطراح لهم - على الحيطه والحذر في كلامهم ونظراتهم وحرركاتهم •

فهذا البحتري يتحدث عما وقع له في احد مجالس الخليفة المتوكل فيقول : « من لابس الخلفاء وخدمهم ، احتاج الى احتراس شديد ؛ كان يقوم على رأس المتوكل خدم وغلمان روقة ، وكان فيهم غلام يشبه ابنا لي كان اول ولد رزقته ، وكان حسن الوجه ، فكنت أشبهه به ، والمحه كثيرا فدمع لذلك عيني ، فلحظني المتوكل يوما وقد نظرت اليه وتغرغرت عيني •• وشرب المتوكل بعد هذا بمدة طويلة ، وطلبني في غير نوبتي ، فجنّت وانا ثمل لا فضل فيّ ، فقل : اسقوا البحتري رطلين في قدح ! فأومأت الى الفتح مستغيثاً به ، فشفع لي اليه ، وقال : سكران لا ذنب له ، طلب في غير نوبته ، نغفيه من هذا ، قال : فاسقوه رطلا ، فأومأت اليه بأنه لا فضل فيّ ، فعاوده ، فقال له وانا أسمع : ان أردت أن يشرب فقل لبرد حتى يجيء فيسقيه ! فلما سمعت ذلك فقدت عقلي ، وذهب عليّ أمري ، وشربت الرطل ، وقام المتوكل ، فصرت بعد ذلك الى الفتح

(١) الديوان ٤٨١/١ وأنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري

مستجيراً به • وعرفته حقيقة أمري ، فقال : الرأي ألاّ تعيد في هذا شيئاً ، فما زلت والله أخاف ذلك الى ان فارق الدنيا « (١) •

والخبر اذا صح شاهد على ما ينبغي لمجالسي الخلفاء من التحلّي بالحيطة والحذر في أثناء منادمتهم ومجالستهم لهم ، كما ينطوي على أمور أخرى : منها ان للبحثري ولداً وسيماً ، ولكن من هو هذا الولد ؟ ليس في الخبر ما يشير الى شيء من هذا • فللبحثري ولدان : احدهما ، يحيى المكنى بأبي الغوث ، والآخر ، كان معاصراً للاصطخري (٢) • واذا صح الخبر فيكون زواج البحثري قد تمّ قبل ان تتقدم به السن ، خلافاً لما يراه بعض دارسيه (٣) • فقول البحثري « وشرب المتوكل بعد هذا بمدة طويلة » دليل على انه كان له ولد قبل ان يجوز العقد الرابع من عمره ، كما ان قوله في أعقاب الخبر : « فما زلت والله أخاف ذلك الى ان فارق الدنيا » دليل آخر على قدم زواجه •

ومنها : ان للبحثري نوبة ، وانه كان يستدعى أحيانا في غير نوبته ، ومنها : ان البحثري لم يكن يصطحب معه أسرته في اثناء إقامته في ربوع هذه المدينة ، فقوله : « وكان فيهم غلام يشبه ابنا لي كان اول ولد رزقته ، وكان حسن الوجه ، فكنت اشبهه به ، والمحه كثيراً فتدمع لذلك عيني » دليل على تذكر ابنه الذي لم يكن مقيماً معه •

وروى الخطيب البغدادي حكاية شبيهة بالحكاية السابقة وقعت للبحثري في احد مجالس المتوكل أيضاً ، فقال : حدثنا محمد بن علي بن السماك ، أخبرنا العباس بن أحمد بن أبي نواس الكاتب ، أخبرنا أبو علي الطوماري ، قال : حدثني أبو العباس طومار قال : كنت أنادم المتوكل فكنت عنده يوماً ، ومعنا البحثري ، وكان بين يديه غلام حسن الوجه يقال

(١) أخبار البحثري ص ٨٩ - ٩٠ •

(٢) نفسه ص ٩٠ هامش ٥ •

(٣) حياة البحثري وفنه ص ١١٨ •

له « راح » فقال المتوكل للفتح : يا فتاح ان البحثري يعشق راحاً ، فنظر اليه الفتح وأدمن النظر فلم يره ينظر اليه • فقال له الفتح : يا أمير المؤمنين أرى البحثري في شغل عنه فقال : ذاك دليلي عليه ، ثم قال للمتوكل : يا راح خذ رطل بللور فاملأه شراباً وادفعه اليه ففعل • فلما دفعه اليه بهت البحثري ينظر اليه ، فقال المتوكل للفتح كيف ترى ؟ ثم قال : يا بحثري قل في راح بيت شعر ، ولا تصرح باسمه ، فقال :

(حار) بالودّ فتى أمسى رهيناً بك مدنف

اسم من أهواه في شعـ رى مقلوب مصحف (١)

وعلى الرغم من ورود هذه الحكاية في تاريخ بغداد والنجوم الزاهرة فإن شيئاً من الشك يساورنا في صحتها ؛ فالبحثري لم يكن من ذوى البداهة ، كما اعترف هو نفسه بذلك (٢) كما لم تشر المصادر الاخرى الى تكليفه بامثال هذه الامور التي فيها قلب للكلمات وتصحيف لها • وما نظن ان البحثري كان يميل الى امثال هذه الامور ، ولعل الحكاية لا تخلو من التلفيق والوضع ! هذا الى ان الحكاية مع شبهها بالحكاية السابقة لم يشر فيها الى غضب الخليفة الذي كان قد أفزع الشاعر وأرهبه حتى كان يتوقع ان يفتك به في يوم من الايام ولم يهدأ باله الا بعد مقتل المتوكل • ولعل من الغريب ان يطلب الخليفة من الشاعر ان يقول في « راح » هذا دون ان يصرح باسمه ، وهو يعلم انه يهواه ويميل اليه •

وطلب المتوكل الى البحثري مرة أن يقول شعراً فيه وفي الفتح ، يذكر فيه محبته له وانه لا يودّ ان يفقده أو يتأخر عنه ، فأبتدأ الشاعر قائلاً :

(١) تاريخ بغداد ٤٤٩/١٣ ، وأنظر الديوان ٢٦١٠/٤ ، ورويت الكلمة الاولى من البيت الاولى (جاز) ، وكذلك وردت الكلمة مع البيتين واختصار للقصة في النجوم الزاهرة ٩٧/٣ .
(٢) أنظر : ص ٢٥٠ .

سيدي انت كيف اخلفت وعدي وتناقلت عن وفاء بعهدي
لا أرتني الايام فقدك يا فتى ح ولا عرفتك - ما عشت - فقدي
أعظم الرزء ان تقدم قبلي ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسداً ان تكون الفأ لغيري اذ تفرّدت بالهوى فيك وحدي

غير ان البحترى عقب على هذه الايات بانه عملها في غلام كان يكلف به ، فلما طلب اليه المتوكل ما طلب ، تنحى فقال الايات وأراه انه عملها من وقته^(١) . وهذا دليل آخر على ان شاعرنا لم يكن من المرتجلين أو ذوي البداهة الحاضرة في قول الشعر !

مقتل المتوكل :

ويستمر البحترى على أحسن ما يكون في علاقته بالمتوكل وصلته بالبلاط العباسي ، ويصبح له مركز مرموق ، ومنزلة كبيرة ، ولكن هذه المكانة أصيبت بهزة عنيفة انهارت معها أساطين بناء الشاعر الضخم ، وكانت تلك الهزة العنيفة منبعثة من نكبة الخليفة والخلافة في آن واحد . لقد قتل المتوكل بسيف الاتراك بمواطأة ابنه المنتصر قتلة كان لها الاثر البعيد في تضعف كيان الخلافة الذي كان من آثاره اضمحلالها ثم سقوطها فيما بعد .

ولو اردنا ان نتلمس الاسباب الحقيقية لاغتيال الخليفة لوجدناها تتحل الى الامور الآتية :

١ - نفرة القواد الاتراك ومن في معيهم من الجنود من المتوكل ، فهم قد حاولوا منذ أول استخلافه ابعاده عن الخلافة ومبايعه ابن المعتصم (المستعين) بدلا منه ، بعد وفاة الواثق ، ولكن صغر سنه حال دون ذلك ، وزادت هذه النفرة بعد اغتيال المتوكل لايتاخ التركي الذي كان يعد من كبار قادتهم ، وكان مسؤولا عن كثير من الامور الحيوية المهمة

(١) اخبار البحترى ص ٨٥ - ٨٦ .

في الدولة^(١) .

٢ - محاولة المتوكل الانتقال بعاصمته الى دمشق - تنكيلا بالاتراك ،
وتقرّباً من العرب - احدثت في نفوس قادة الاتراك فزعاً ورهبة ، وتبهوا
الى ما كان يراد بهم من الابعاد وخضد الشوكة ، فعقدوا العزم على التخلص
من الخليفة بأي ثمن كان .

٣ - مصادرتة ضياع كبار قادة الاتراك واقطاعها احد المقربين اليه
من الوزراء .

٤ - نفرة ولده (المنتصر) مما قام به تجاهه ، الامر الذي اوغر
صدره ضده فتأب مع قادة الاتراك للفتك بأبيه^(٢) .

٥ - ولعل انحراف المتوكل عن الطالبين ، وميل ولده المنتصر
اليهم ، مما ساعد على وضع حد لنهاية الخليفة القليل .

٦ - ويرى بعضهم ان من أسباب مصرع الخليفة اسرافه في أموال
الدولة لتشييد القصور والعمائر^(٣) .

هذه هي الاسباب التي يظن انها تضافرت في قتل المتوكل . أما من
قام بتدبير خطة القتل وتنفيذها ، وكيف كانت طريقة القتل هذه ؟ فتكاد
المصادر تجمع على ان « بغا الصغير » المعروف بالشرابي كان الرأس المدبّر
لهذه المؤامرة ، يؤازره المنتصر بن المتوكل ، وعدد من رجال الاتراك^(٤) .
ويروي المسعودي في المروج بشيء من الاطناب الطريقة التي

(١) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٣٥ .

(٢) هناك روايات كثيرة في معاملة المتوكل لابنه المنتصر ، ويخيل
لينا ان الكثير منها لا يخلو من الزيادات والاضافات .

(٣) أنظر : تاريخ الطبري ٢٢٢/٩ ، زهر الآداب ١/٢٢٧ ، تاريخ
الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٠ ، حياة البحثري وفنه ص ٩ ، مجلة الضياء
٣٢٩/٦ .

(٤) أنظر المراجع السابقة ، وثمار القلوب للثعالبي ص ١٩٠ .

استدرج بها بغا الصغير أحد الاتراك المههورين لتنفيذ خطة القتل ، ويخيل لنا ان ما ذكره المسعودي لا يخلو من الطابع القصصي ، وان بغا لم يكن بحاجة الى اتباع هذه الطريقة التدريجية - اذا صحّ التعبير - حتى يتأكد من صلابه من رشح لهذا الامر ! ولعل حشر المنتصر في عداد من ناصبوا الاتراك العداء ما يوهن هذه الحكاية ، اذ المعروف عنه ميله انيهم ، ومحاباته لهم الامر الذي جذبهم اليه في حوك المؤامرة ضد أبيه (١) .

كما يروي المسعودي عن البحتري بشيء من الافاضة ما سبق مقتل المتوكل من مصادفات رأها في مجلس المتوكل ، وان الطابع القصصي كذلك واضح في أكثر أجزاء الرواية (٢) .

ويبدو ان مقتل المتوكل كان حدثاً جليلاً ، مما دعا المؤرخين الى الاكثار من سرد الروايات المتعلقة بمصرعه هذا .

والحق ان اغتيال الخليفة قد أحدث موجة من السخط والأسى والاسف لدى الكثير من الناس ؛ لما كان عليه من السمعة الطيبة ، والاخلاق الدمثة ، ولما تجاسر عليه الموالي في الاقدام على قتل الخليفة والتطويح بهية الخلافة (٣) .

ويبدو ان مقه الناس للمتوكل هي التي دعتهم الى اختلاق الاحلام التي زعموا أنهم رأوا فيها امارات تنبئ عن مصرعه ومصرع وزيره المتفح (٤) .

ان الميللة التي قتل فيها المتوكل أصبحت تسمى « ليلة المتوكل » ؛ لانها كانت « ثلثة الاسلام وعنوان سقوط الهيبة ، وتاريخ تراجع الخلافة » كما يقول الثعالبي (٥) .

-
- (١) أنظر : مروج الذهب ٣٤/٤ - ٣٦ .
 - (٢) أنظر : المصدر نفسه ٣٦/٤ - ٣٩ .
 - (٣) أنظر : الكامل في التاريخ ١٢١/٧ .
 - (٤) أنظر : تاريخ الطبري ٢٢٩/٩ - ٢٣٠ .
 - (٥) ثمار القلوب ص ١٩٠ .

لقد قتل المتوكل قتلة شنيعة وهو في مجلس أنسه ولهوه ، وذلك في ليلة الاربعاء بعد العتمة بساعة لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ^(١) .
 رثى المتوكل غير واحد من الشعراء ، ولعل من أجود ما رثى به قصيدتان احدهما ليزيد بن محمد المهلبى ، والاخرى للبحترى ، وقبل ان نسوق القصيدة الثانية يجدر بنا ان نتحدث قليلا عن حضور الشاعر مجلس الخليفة ساعة القتل به ، فبعض المراجع التاريخية لم تنوّه بمن كان في مجلس المتوكل ساعة القتل وانما اكتفت بذكر أسماء عدد من الذين اشتركوا في هذه المؤامرة^(٢) . في حين أشارت أخرى الى بعض من كان حاضرا في مجلس الخليفة - ولم يكن للبحترى منهم ، حين القتل به ، فذكرت ان بعا الشرابي رأس المتآمرين « أمر الندماء بالانصراف الى حجرهم ... فلم يبق الاّ الفتح وعتثت واربعة من الخاصة ، وأبو أحمد بن المتوكل ... »^(٣) .

بيد ان مصادر أخرى أشارت بوضوح الى ان البحترى كان حاضرا المجلس ليلة اغتيال الخليفة ، فقد روى الصولي خبراً حدث به البحترى نفسه قال فيه : « قال لي المتوكل يوماً : قل في شعراً وفي الفتح ، فاني أحب أن يحييا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ، ولا يفقدني فيذلّ ، فقل في هذا المعنى ، فقلت أبياتاً :

سيدي انت كيف أخلفت بعدي وثاقلت عن وفاء بعهدي
 وقلت فيها :

لا أرتني الايام ففقدك يا فتى سجح ولا عرفت - ما عشت - ففدي

(١) أنظر : الطبري ٢٣٠/٩ ، والمروج ٣٦/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢٢٥/٣ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ ، وثمار القلوب ص ١٦٠ ، وجاء في المصدر الاخير : ان مقتل المتوكل كان في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وهو خطأ بالطبع فهذا هو تاريخ استخلافه لا مقتله .

(٢) أنظر : تاريخ اليعقوبي ٢٢٥/٣ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٠ .

(٣) الكامل في التاريخ ٩٨/٧ ، وتاريخ الطبري ٢٢٤/٩ - ٢٢٩ .

أعظم الرزء ان تقدم قبلي ومن الرزء أن تؤخر بعدي
حسداً ان تكون الفأ لغيري اذ تفردت بالهوى فيك وحدي
فتفألت لهما بأن يموتا جميعا ، فقتلا جميعا ، وكنت حاضراً فريحت
هذه الضربة وأوماً الى ضربة في ظهره « (١) » .

كما جاء في المروج على لسان البحجري أيضاً في صدد مقتل المتوكل
ما يدل على حضور الشاعر المجلس وشهوده الحادثة بنفسه ، فقد جاء
قوله : « ... وكان من عادته (أي المتوكل) انه اذا تمايل عند سكره
أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه ، قل فينا نحن كذلك ومضى نحو ثلاث
ساعات من الليل اذ أقبل « باغر » ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم
متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع فهجموا
علينا ... » (٢) .

وجاء في ثمار القلوب عند الكلام على حادثة مقتل المتوكل أيضاً
ورثائه من قبل الشعراء ما نصه : « وأكثر الشعراء في وصف هذه
الوقعة ، فمنهم أحمد بن يزيد الاسدي ... ومنهم البحجري ، شهد
القتل فقال من قصيدة :

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم وجنح الميل سود دياجره « (٣)
وأشار الحصري الى هذه الحادثة فقال : « ورثاه البحجري ويزيد
المهلبى بمرثيتين من أجود ما قيل في معانها ، وكانا حاضرين ليلة قتله ،
فاختفى أحدهما في طي الباب ، والآخر في قناة الشاذروان ... » (٤) .
أما البحجري نفسه فيشير بوضوح في مرثيته للمتوكل الى حضوره

(١) أخبار البحجري ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٣٨/٤ .

(٣) ثمار القلوب ص ١٩٠ .

(٤) زهر الآداب ٢٢٨/١ .

الوقعة وانه دافع عن وليّ نعمته بيديه ، ولو كان معه سيفه لما تردد في امتشاقه واستخدامه فهو يقول :

صريع تقاضاه السيوف حشاشه
أدافع عنه باليدين ، ولم يكن
ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
يدرى القاتل العجلان كيف أساوره^(١)

ويبدو لنا ان حضور الشاعر ساعة القتل ليس بغريب ولا بمستبعد ، فقد كان شاعر البلاط ، وأحد ندماء الخليفة والمقرين لديه .

لقد خلّد البحثري هذه الوقعة المؤلمة بمرثية تعدّ من أجود المراثي في بابها ، وهي تقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وقد استهلها بنذب قصر الخليفة ومشواه الذي كان في منطقة القاطول ، حيث المدينة المتوكلية ، والقصر الجعفري العظيم الذي قتل فيه المتوكل ، فلمحل الذي على القاطول قد مشى فيه الخراب والدمار ، وتعاورته نواب الدهر بالفناء والاندراس ، وفي هذا اشارة الى ما قيل عن المنتصر بعد نجاح المؤامرة ، حيث أمر بالانتقال الى سامراء ، كما أمر الناس بهجر المتوكلية ونقض قصورها وحمل الانتقاض الى سامراء^(٢) . وكأن الصبا في هبوبها المستمر على بقايا الرسوم والاطلال توفى نذوراً لها ، واذا كانت الوحشة والكآبة والاندراس تبدو واضحة على هذا الموضع ، فرب وقت مضى كان فيه مشرقاً مزهراً ناضراً . وهذا الجعفري القصر المشهور الذي قتل الخليفة في صحنه قد تغير حسنه ، وتبدل أنسه ، وسرى الهدم في أقطاره ونواحيه ، وان ارتحال ساكنيه عنه فجأه قد أحال دوره ومقابه سواء ، وان زيارته تبعث في النفوس الاسى والحزن ، بعد ان كانت تبعث فيها البهجة والانشراح .
وان الشاعر لا ينسى - وقد رأى بأم رأسه ما أصاب نساء الخليفة

(١) الديوان ١٠٤٨/٢ .

(٢) أنظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٠ .

وجواريه بعد مصرعه من دعر وفزع ، وما آل اليه أمرهن بعد ذلك من
تشتيت وتفريق ، وتحكى المصادر انه كان للمتوكل أربعة آلاف جارية ،
ويرى البعض ان البحري يشير في هذا البيت الى حيوانات حير الوحوش
للمتوكل لا الى النساء ، في القصر الجعفري ، غير ان الشاعر - كما
نرى - ما زال يصف القصر الجعفري ، أعظم قصور المتوكل ، وان ما
أصابه من اندثار واندراس بعد ان انتقل المنتصر عنه الى سامراء ، دليل
على انه المقصود بهذا البيت والابيات الخمسة الاخرى بعده ، فالقصر
الذي كان في حير الوحوش لم يكن من الاهمية ما كان عليه الجعفري ،
وان تشبيه النساء واطفالهن بالوحش والاطلاء والجاذر مألوف في أدبنا
العربي ♦

ومن غير شك ان وصف الذعر الذي اتاب نساء الخليفة واطفاله بعد
مصرعه اعظم تأثيراً في النفوس من وصف ما أصيبت به حيوانات الحير ؟
فهو لا ينسى ما ألمّ بالقصر الجعفري من تقويض الاستار ، وتهتك
الستائر بعد ان صيح فيه بالرحيل ، ونودي على أهله بالانتقال ، كما
لا ينسى الوحشة التي كانت تعمه ، والكآبة البادية عليه ، وكأنه لم يكن
دار أنس ومتعة ، ولم تكن له مناظر خلابة ، تسرّ العيون وتبهج القلوب ؟
وكانه لم يكن مأوى الخلافة أيام عزها وبشاشتها ، ومقر الملك أيام
اشراقه ونضارته ؟ وكأنه لم يكن القصر الذي جمعت اليه الدنيا كل
ما لديها من بهاء وجمال ، فكان فيه العيش الغض ، والحياة الناعمة ، ثم
يتساءل الشاعر بمرارة عن الحجاب الصعب لأبواب هذا القصر ومقاصره ،
لقد تهتك هذا الحجاب وتمزق ، فلم يعد كما كان قبل مصرع الخليفة !
فهذه الاوصاف كلها تشير بوضوح الى ان المقصود - كما أسلفنا - بهذا
القصر القصر الجعفري !

ويتساءل الشاعر كذلك عن مصير عميد الناس (الخليفة) الذي

كان يتحمل أعباء الناس في الملمات والنوائب ، والذي كان ينهى الدهر
اذا أراد ، ويأمره اذا شاء !

لقد اغتيل اغتيالاً وكان على معتائه لو كان شجاعاً مقداماً أن يظهر
له ويجاهره في أمره ، ولكنه النجبن والخيانة والتآمر ، انه قضى دون أن
تدراً عنه جنوده الموت ، ومات ولم تند عنه أملاكه وذخائره ، وتأخر عن
نصرة ولده المعتز من كان يأمل فيه العون والمعاضدة ، ولا غرو فالعزير
من يعزّ ناصره ، ولا سيما في الملمات والمكارة ، وان الموت قد تخرّم
الفتح خدين الخليفة ووزيره ، كما ان معاضديه من الامراء كانوا في منأى
عنه ، ولو بقي الفتح حياً وقرب النائي لكان الامر على غير ما كان عليه ،
ولو كان لعبيدالله بن يحيى بن خاقان - وهو ابن أخي الفتح ووزير
المتوكل - من الاعوان والانصار لما كان بوسع من تصدى لاغتيال الخليفة
من الوصول الى عرضه وهدفه •

بيد ان الطبري أشار في تاريخه الى قعود عبيدالله عن نصر الخليفة
حين سمع باغتياله ، وان أصحابه اجتمعوا اليه ، ووضعوا أنفسهم تحت
امرته ، ولكنه تخاذل واحجم ، وقد أخذ عليه ابن الجهم هذا القعود
فهجاه في قصيدته التي رثى فيها المتوكل^(١) ، قال الطبري في هذا الصدد :
« فذكر ان ابا نوح احتال في الهرب من ليلته ، وعبيدالله جالس ينفذ
الامور ، وبين يديه جعفر بن حامد ، اذ طلع عليه بعض الخدم ، فقال :
يا سيدي ، ما يجلسك قال : وما ذاك ؟ قال : الدار سيف واحد ، فأمر
جعفر بالخروج ، فخرج وعاد ؛ فأخبره أن أمير المؤمنين والفتح قد قتلا ،
فخرج فيمن معه من خدمه وخاصته ، فأخبر أن الأبواب مغلقة ، فأخذ
نحو الشط ، فاذا أبوابه أيضا مغلقة ، فأمر بكسر ما كان مما يلي الشط ،
فكسرت ثلاثة أبواب حتى خرج الى الشط ، فصار الى زورق ، فقعده فيه

(١) أنظر : ديوان علي بن الجهم ص ١١٨ •

ومعه جعفر بن حامد وغلام له ، فصار الى منزل المعتز ، فسأل عنه فلم يصادفه ، فقال : انا لله وانا اليه راجعون ؟ قتلني وقتل نفسه ، وتلف عليه ، واجتمع الى عبيدالله أصحابه غداة يوم الاربعاء من الابداء والعجم والارمن والنزواقيل والاعراب والصعاليك وغيرهم وقد اختلف في عدتهم ، فقال بعضهم : كانوا زهاء عشرين الف فارس ، وقال آخرون وكان معه ثلاثه عشر ألف رجل ، وقال آخرون : كان معه ثلاثه عشر الف لجام ، وقال المقللون : ما بين الخمسة آلاف الى العشرة آلاف ، فقالوا له : انما كنت تصصفينا لهذا اليوم ، فأمر بأمرك ، واذن لنا نمل على القوم ميلاً ، تقتل المنتصر ومن معه من الاتراك وغيرهم ، فأبى ذلك ، وقال : ليس في هذا حيلة ، والرجل في أيديهم - يعنى المعتز « (١) » .

ان ما اجترحه الجناة من الاقدام على القتل كان بدافع الاماني والاحلام التي عقدها على ذلك فأضلتهم ، وأعمت بصائرهم ، وان موت الخليفة كان قدراً من الاقدار ومدة بلغت منتهاها ، فصرع ولم يحسب لرهنه حساب ، ولم يلتفت الى أسبابه وذوي رحمه ، وقد تناوشته السيوف فقضى بين أشفارها بوجود نفسه والموت من حوله أحمر الاظفار ، دامى المناسر ، وان الشاعر كان يذود عنه بيديه اذ كان أعزل من السلاح ، ولو قيض لسيفه ان يكون معه لعلم ذلك القاتل العجلان كيف يواتبه ويصاوله ، وفي هذا اشارة الى الرهبة التي كانت تسيطر على المعتالين من الاقدام على هذه الفعلة الشنيعة . والشاعر بعد ان تحسّر على تخلفه في الذود الفعال عن ولي نعمته آل على نفسه ان يمتنع عن احتساء الراح الا اذا أخذ بذحل القتيل (٢) ، ولكنه رجع الى نفسه واليأس بعصره ، والألم

(١) تاريخ الطبري ٢٢٨/٩ - ٢٢٩ .

(٢) يبدو ان البحثري برّ بما أخذ به نفسه من الامتناع عن احتساء الراح لفترة تربى على السنة ، حداداً على المتوكل والفتح ، وقد أشار الى ذلك أكثر من مرة في ثنايا شعره ، فقال من قصيدة يمدح بها عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابن أخى الفتح :

يحزّر في قلبه ، فكيف يمكن الأخذ بوتر وليّه والموتور هو الواتر ، وتبلغ الثورة في نفس البحترى ، وتهيج عاطفته ، وتلهب مشاعره فاذا به يصرخ من اعماقه صرخة مدوية فيها كل دلائل الاتهام المنتصر ولىّ عهد والده القتل ، هل أضمر ولىّ العهد هذا الغدر بأبيه ، واذا كان ذلك كذلك أفليس من العجب العجاب أن يعهد بولاية العهد لغدّار مثله ؟ ولكن الشاعر لا يكتفي بهذا ، فهو يدعو لهذا الغدّار ان لا يتمتع بملك أبيه ، وألا يسمع صوته او دعاء الآخرين له على المنابر ، بل هو يقول كالمتهدد والمتوعد لهذا الولي العهد ، ولمن شاركوه في مؤامرتهم ، بأن لا أمل له في طلب النجاة ، ولا لمشاركيه في الاثم والاجرام .

وبعد هذه الثورة الطاغية والاتهام الصارخ يهدأ الشاعر بعض الشيء فيشوب الى نفسه ليقدر بان دم الخليفة المسفوح من الدماء الطاهرة الزكية ، وان الليلة التي قتل فيها لهولها ورهبتها أسماها « ليلة جعفر » ، فهذا الدم المطول أهرق في ليلة داجية مظلمة ، ويمضى البحترى متوعداً للجنة ، ومحفزاً لعواطف ابن القتل ولعله يريد به المعتز ، فيقول : كأن الجنة لم يدروا من سيخلف المتوكل من ولاية عهده ، الذي سينتقم لدم أبيه بقتل القتلة بالمرهفات من السيوف ، والمواضي من الصوامر ، غير ان المعتز على الرغم من بسالته وقوته - لم يكن بوسعه ان يثأر لابيه ، كما توقع الشاعر ، وقد أشار الثعالبي في ثمار القلوب الى هذا فقال : « وعلى ذكر هذا القميص (أي قميص عثمان) فان المتوكل لما قتله الاثراك بمواطأة المنتصر وأفضى الأمر بعده وبعد المنتصر والمستعين الى المعتز ، لم تزل أمه قبيحة

أمتّ اليك بالذمام الذي خلا
وانى هجرت الراح حولا مجرماً
(الديوان ١/٥١٧) . وقال أيضاً من قصيدة في مدح ابراهيم بن المدير :
وانى هجر للمدام وقد جلا
وكيف تعاطى اللهو والرأس مخلص
ومنزلة من جعفر ليس تجحد
له ، وشهودي بالذي قلت شهيد
لنا الصبح من قطربل وبلشكر
مشيباً وشرب الراح من بعد جعفر
(الديوان : ١٠٦٢/٢) .

تحرّضه على الإيقاع بقتلة أبيه وتلومه على ميله لهم دون طلب الثأر منهم ، وكان المعتز يبعدها ويمنيها ، وهو يعلم انه لا يقوى عليهم مع كثرة عددهم ، وشدة شوكتهم وغلبتهم على أمور الخلافة ، فأبرزت قبيصة يوماً للمعتز قميص المتوكل الذي قتل فيه وهو مضرّج بالدم ، وجعلت تبكي وتبالغ في التقرّيع والتحرّيس كل المبالغة ، فلما طال ذلك منها قال لها المعتز : يا أمي ارفعي القميص والاّ صار قميصين ، فعندها أمسكت ولم تعد لعادتها « (١) » .

وينهى الشاعر مرثيته راجياً ان تردّ أمور الناس الى خلف شبيه بشخصية الخليفة القليل ، شخص تتجلى فيه قوة الأناة ، وحصافة الرأي ، وتقليب الآراء في الشدائد والملمات ، اذا ما تسرّع الاخرق العجل حين يدهمه الامر ، ويفجأه الخطب :

محلّ على القاطول أخلق دائره
 كأن الصبّا توفي ندورا اذا انبرت
 ورب زمان ناعم - نمّ - عهده
 تغير حسن الجعفري وأسنه
 تحمل عنه ساكنوه فجاءة
 اذا نحن زرناه أجد لنا الاسى
 ولم أنس وحش القصر اذ ربيع سربه
 واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت
 ووحشته حتى كأن لم يقم به
 كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة
 ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
 فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت
 وأين عميد الناس في كل نوبة

وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
 تراوحه أذيالها وتباكره
 ترقّ حواشيه ، ويونق ناضره
 وقوض بادى الجعفري وحاضره
 فعادت سواء دوره ومقابره
 وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
 واذا ذعرت أطلاؤه وجأذره
 على عجل أستاره وستائره
 أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره
 بشاشتها ، والملك بشرق زاهره
 وبهجتها والعيش غض مكاسره
 بهيتها أبوابه ومقاصره
 تنوب ، وناهي الدهر فيهم وأمره

وأولى لمن يقاتله لو يجاهره
 ولا دافعت أملاكه وذخائره
 له ، وعزير القوم من عز ناصره
 وغيب عنه في خراسان طاهره
 لدارت من المكروه ثم دوائره
 لضقت على وراذ أمره صادره
 تناهت ، وحتف أرشكته مقادره
 ولم يحتشم أسبابه وأواصره
 بوجود بها والموت حمر أظافره
 ليشي الاعادي أعزل الليل حاسره
 درى القاتل الجعلان كيف أساوره
 دما بدم يجرى على الأرض مائره
 يد الدهر ، والموتور بالدم واتره ؟
 فمن عجب أن ولي العهد غادره
 ولا حملت ناك الدعاء منابره
 من السيف ناضي السيف غدر او شاهره
 هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره
 وناعيه تحت المرهفات وثائره
 الى خلف من شخصه لا يغادره
 اذا الاخرق العجلان خيفت بوادره (١)

تخفَى له مقاتله تحت غرة
 فما قاتلت عنه المنايا جنوده
 ولا نصر المعتز من كان يرتجى
 تعرض ريب الدهر من دون فتحه
 ولو عاش ميث ، او تقرب نازح
 ولو لعبيد الله عون عليهم
 حلوم أضلتها الاماني ومدة
 ومغضب للقتل لم يخش رهطه
 صريع تقاضاه السيوف حشاشه
 أدافع عنه باليدين ، ولم يكن
 ولو كان سيفى ساعة القتل في يدي
 حرام على الراح بعدك او أرى
 وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر
 أكان ولي العهد أضمر غدره
 فلا ملّى الباقي تراث الذي مضى
 ولا وأل المشكوك فيه ولا نجبا
 لنعم الدم المسفوح ليلمة جعفر
 كأنكم لم تعلموا من وليه
 وانى لارجو ان ترد أموركم
 مقلب آراء تخاف أناته

لقد اطرى هذه المرثية عدد من الادباء القدامى والمحدثين ، فقال
 ثعلب من القدامى : « ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرح فيها تصريح
 من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » (٢) .

(١) الديوان ١٠٤٥/٢ - ١٠٤٩ .

(٢) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١١٨ .

اما المحدثون فقد أشادوا بحسن تصرف الشاعر في مرثيته هذه ،
وبجودة سبكه لها ، واحتفاله بوحدة الموضوع ، فقال الدكتور البصير في
ذلك : « على انك اذا تأملت رائية شاعرنا في رثاء المتوكل على الله رأيت
انه يتصرف فيها تصرف الشاعر المثقف الذي يعرف كيف يعبر عن مشاعره
وانفعالاته ، وكيف يصف عظامم الامور ، وجلائل الاحداث وصفا صادقا
مستقيضا ، وكيف يبتدىء بسرمد ما لديه ، وكيف يتدرج في ذلك حتى
يبلغ قمة بيانه ، وكيف ينتهى •• وهكذا ينشئ من مرثيته هذه وحدة
بيانية مطردة الاجزاء ، متماسكة الاطراف ، منسجمة كل الانسجام » (١) .
ولعل أحسن من درس هذه القصيدة دراسة فيفة تتصل بموسيقى
الالفاظ ومشاكلتها للمعاني هو الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : « ومع
ذلك نستطيع ان نلاحظ بوضوح ان البحثري كان يشاكل بين الفاظه
ومعانيه مشكلة دقيقة ، واقراً له رثاء للمتوكل اذ يقول :

محل على المقاطول أخلق دائره

فانك تحس بالقوة والعنف في هذا الرثاء ، اذ اختار البحثري الفاظه
من ذوات الحروف الضخمة ، أو من هذا النوع الذي كانوا يسمونه
بالجزل ؛ لانه غاضب ثائر ، وكأنه ينحت الالفاظ نحتاً يعبر عن هذا
الغضب وتلك الثورة التي أعلنها فيما بعد من القصيدة ، اذ دعا الى
الانتقاض على من قتلوا المتوكل ، وكان الخليفة الجديد هو الذي دبر هذه
المؤامرة ، وليس من شك في ان البحثري كتب هذه القطعة بمفتاح موسيقى
محكم ، فقد عبر بهذه الالفاظ الضخمة عن عاطفة الحزن الثائرة ، حتى
لكأن الالفاظ لها قعقة السلاح ودوي المواقع التعمسة الحزينة ، وقد وفق
في ربط القوافي بالهاء الساكنة ، فجعل الصوت بعد انطلاقه على الكلمات
والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية ، وكأنه لم تعد فيه بقية ، ثم يعلو وينطلق

(١) في الادب العباسي ص ٢٥٢ - ٢٥٣ الطبعة الثانية .

في الاندفاع على البيت الثاني ، وما يلبث ان ينخفض فجأة كرة أخرى ، وهكذا ما يزال الصوت بين ارتفاع وانخفاض كأن الشاعر نائح ، فهو يرتفع بالصوت ، وما يلبث ان ينخفض به لشدة التأثر والتعب ، وبذلك مثل البحترى زفرات الحزن تمثيلاً جيداً ، وندب المتوكل الملك المقتول على عرشه ندباً خالداً « (١) » .

فالقصيدية اذن مكتملة الاجزاء ، تامة الوحدة العضوية ، لا تنقضها العاطفة المشبوبة ولا الشعور الفياض ، ولا يتخلف شيء فيها من الالفاظ أو المعاني ، وهي الى جانب كل ذلك صرخة مدوية في وجه المتأمرين الذين اشتركوا في اغتيال الخليفة ، وهي تمثل أقصى ما بلغه شاعر في الاندفاع العاطفي والوجداني حتى ليخيل اليانا ان البحترى في هذه القصيدة نسيج وحده ، ولعل هذا ما دعا ثعلبا الى القول ، وقد لمح فيها هذا الاندفاع العنيف « ... » وقد صرح فيها تصریح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب « . وهذا التصريح الواضح في هذه القصيدة يجزنا الى مسألة أخرى وهي متى أنشأ البحترى هذه المرثية ، هل أذاعها على الناس في عهد المنتصر المتهم باغتيال والده ؟ أو انه أنشأها في عهد المعتز بن المتوكل في أيام استخلافه ؟

ولعل أول اشارة الى انشاء الشاعر لهذه القصيدة في عهد المنتصر هو ما ذكره ثعلب فيها آنفاً ، أما شارح ديوان البحترى فيقول : « نرجح ان الشاعر نظمها يوم مصرع المتوكل بالذات ، فإن الى جانب التأثر السريع للمحدث الذي شهده أبياتا تبنى عن أملة في ان يلي الخلافة المعتز دون المنتصر ، أي يوم (٤) شوال سنة ٢٤٧هـ » (٢) .

في حين يذكر الصولي انه سأل عبدالله بن المعتز في أمر هذه القصيدة قائلاً : « أكان البحترى يجسر أن يقول لما قتل المتوكل في يوم المنتصر :

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) الديوان ١٠٤٥/٢ الحاشية .

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم وجنح الليل سود دياجره
 أكان وليّ العهد أضمر غدره ومن عجب أن وليّ العهد غادره
 فلا ملىّ الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
 فقال لي : انما عمل هذه الاشعار في أيام المعتز ، يتقرب بها اليه « (١) » .
 واغلب الظن ان الشاعر نظم هذه القصيدة بعد اغتيال ولي نعمته
 المتوكل ولكنه لم يشعها في الناس ، ويذعها عليهم الا بعد انقضاء عهد
 المنتصر ؛ اذ من العسير على شخص كالمنتصر الذي اشترك في مؤامرة
 الاغتيال ، وفي التطويح بحكم أبيه ان يتقبل - مهما كان مسامحاً راجح
 الحصاة - مثل هذا الشعر الذي يشير بصراحة متناهية الى اتهامه بالقتل
 والى الدعاء عليه ومؤازريه من القتلة بالموت والدمار ، واذا صح هذا فان
 ما ذكره الصولي أقرب الى الصواب ، وادعى الى القبول . أما ان في
 القصيدة أبياتاً تنبئ عن أمل الشاعر في أن يلي الخلافة المعتز دون المنتصر
 فهو أمر لا يعنى كونها أنشئت في عهد المنتصر ، ولكن من المستبعد أن
 تكون أذيعت في عهده لما قدمناه .

ونحن نعرف ان البحري كان كثير التقلب والتلون والمداراة للخلفاء
 والامراء ورجال الدولة ، وان له في المنتصر مدحة بعد استخلافه يشيد فيها
 بأخلاقه وصفاته ومعاضدته للطالبيين ، فلو عرف عنه انه قال القصيدة
 المذكورة لما تردد في عقابه أو عتابه على الاقل .

غير ان المرزباني ذكر في موشحه ما يشير الى غضب المنتصر على
 البحري واطراحه له ، وانه لم يرض عنه الا بوساطة أحمد بن الخصب
 الذي تمكن - لقربه من المنتصر - أن يسترضيه له ويوصل اليه مديحه ،
 ويأخذ له منه مالا قال : « ومثل حديث البحري مع المسعفين ما أخبرني
 محمد بن يحيى ، قال : ما رأيت أقل وفاء من البحري ، ولا أسقط ؛
 رأيت قائماً ينشد أحمد بن الخصب مدحا له فيه ، فحلف عليه ليجلسن ،

(١) اخبار البحري ص ١٠٢ .

ثم وصله واسترضى له المنتصر ، وكان غضبان عليه ، ثم اوصل له مديحا
اليه ، وأخذ له منه مالا فدفعه اليه » (١) •

ونحن بالطبع لا نعرف سبب غضب المنتصر هذا على الشاعر ، ويخيل
لينا انه ليس بسبب المرثية الآنف الذكر ، ولعل تأخر الشاعر في مديحه له
هو السبب في هذا الغضب ، اذ من المعلوم ان الشاعر لم يقصد الخليفة
الجديد الا بعد ان تظاهر بالحج ، فرارا مما ألمّ به من جراء مصرع
المتوكل •

الامام البحر :

وفي الديوان خمسة أبيات في امتداح المتوكل وهي منسوبة للبحثري
في حين تسبها بعض المراجع الاخرى الى علي بن الجهم ، وقد علق
شارح الديوان عليها بقوله : « وفي يقيننا انها للبحثري ، ولعل ابن الجهم
تحدث بنسبتها الى نفسه ليسيء الى البحثري الذي كان يبغضه ، وللبحثري
فيه هجاء ، وقد تكرر فعل هذا الصنيع من ابن الجهم » (٢) •

ويخيل لينا ان ما ذهب اليه الشارح بعيد عن الحق ، وان اتخذه من
العداء القائم بين الشعراء سببا لادعاء ابن الجهم انها له ، غير كاف ، ومن الغريب
حقا ان يعمد شاعر كبير كابن الجهم الى مقطوعتين للبحثري فيتملهما (٣)
متوخيا من ذلك الاساءة الى شاعر شهير كالبحثري •

ولا ندري هل ان اتحال ابن الجهم المزعوم لهاتين المقطوعتين قد
أثر على سمعة البحثري وحط من منزلته الشعرية ؟

وقد لا نعدو الصواب اذا ما زعمنا ان هذه المقطوعة تقرب في روحها
وأسلوبها من شعر ابن الجهم ، وتبعد فيهما عن قريض البحثري !

(١) الموشح ص ٥١٥ وأنظر : أخبار البحثري ص ١١٢ - ١١٣ •

(٢) الديوان ١٠١٣/٢ الحاشية •

(٣) أنظر : ص ١٥٥ حيث أشرنا الى المقطوعة الاولى هناك •

أما الايات فهي :

سـرّ من رانا امام تغرف من بحره البحار
خليفة يرتجى ويخشى كأنه جنة ونار
كلنا يديه تفيض سحاً كأنها ضرة تغار
فليس تأتي اليمين شيئاً الا أت مثلها اليسار
فالمك فيه وفي بنيه ما بقى الليل والنهار^(١)

بعد مقتل المتوكل :

ان حادثة مقتل المتوكل والفتح قد اثرت تأثيراً بعيداً في نفس البحري كادت ان تكون الحد الفاصل بين ما كان يلقاه الشاعر في بلاط الخليفة من منزلة كبرى ، ونعيم سابغ ، وبين هبوط ساحق ، ومسألة ملحة • وعلى الرغم مما وصله به الخلفاء والوزراء بعد اغتيال ولي نعمته ، ولا سيما ابنه المعتز ؛ فان البحري ظل يحن الى ايامه الاولى في كنف المتوكل والفتح ، وكان يهتبل كل فرصة مواتية ليعلم تشوقه وحنينه الى تلك الايام الجميلة التي عاشها رخيّ البال ، مهيب الجانب ، فهو اذا ما تصدى لهجاء شخص ولو كان قائداً شهيراً كعلي بن يحيى الارمني ، لم يجد مادة لهجائه سوى المفاضلة بينه وبين ممدوحيه السابقين : المتوكل والفتح ، فيقول :

أمن بعد وجد الفتح بي وغرامه ومنزلي من جعفر ومكاني
أكلّف مدح الارمنيّ علي الذي لديه من البغضاء والشتان
ومن خلق يستنكف الكلب أن يرى له جار بيت او رضيع لبان
نديميّ ! لا زال السحاب موكلًا بجودكما بالسح والهطلان
فلو كان صرف الدهر حرّاً عداكما اليّ ، وما ناصاكما وعداني^(٢)

(١) الديوان ١٠١٣/٢ - ١٠١٤ وأنظر الحاشية حيث أشار الشارح

الى المصادر التي نسبت هذه الايات الى علي بن الجهم •

(٢) الديوان ٢٢٧٩/٤

أو يقول أيضا من قصيدة يهجو فيها الارمني المذكور ويشير الى عطايا المتوكل ونعمه عليه :

تخل من الاطماع اما تخلت وولّ صروف الدهر ما قد تولت
لقد كان لي فيما تطول جعفر به من أباد أنهضت وأفلت
ذخائر تنهى النفس عما تجشمت وما استحسنت من عذرها واستحلت^(١)

وهو حين يتعرض لامتداح شخصية مهمة تسبغ عليه ما تسبغ من الاموال الطائلة ، وتتشله من وهدة الفاقة ، وتنقذه من برائن العوز ، تتراعى له صلته بالمتوكل والفتح فيحن اليها ، ويحلوه له ان يذكرها في معرض امتداحه ، فهو يقول من قصيدة يمتدح بها محمد بن عبدالله بن طاهر :

تداركني الاحسان منك ومسنني على حاجة ذاك الجدا والتطول
ودافعت عني حين لا الفتح يبتغي لدفع الذي أخشى ولا المتوكل^(٢)
ويقول من أخرى له في عبيدالله بن يحيى بن خاقان :

اعتدّ عزك من وفود مذهبني وسعود أيامي وحسن زماني
واذا المسافة دون نائل جعفر بعدت علىّ فان نيلك دان^(٣)
ويقول كذلك من قصيدة في مدح ابي الصقر اسماعيل بن بلبل ، وكتب بها الى المبرد :

مضى جعفر والفتح بين مرمل وبين صبيغ في الدماء مضرّج
أأطلب أنصارا على الدهر بعدما نوى منهما في التراب اوسي وخزر جي؟
اولئك ساداتي الذين بفضلهم حلبت أفلوبق الربيع المشيخ

(١) نفسه ١/٣٦٧ .

(٢) الديوان ٣/١٧٩٥ ، وأنظر : زهر الآداب ١/٢٢٩ وجاء فيه :
» وقد كان البحثري يرتاح في كثير من شعره الى ذكره وذكر الفتح بن خاقان « .

(٣) الديوان ٤/٢٢٤١ .

مضوا أمماً قصداً وخلفت بعدهم أخاطب بالتأمير والى منبج^(١)
 بل ان البحترى ليردد حنينه واشتياقه الى أيام المتوكل والمفتح حتى
 في شعره الذي ينشئه حين يؤخذ منه غلام ، فهو يقول من أبيات له في
 غلام له ، أخذته منه ابو الصقر اسماعيل بن بلبل ، ويشير فيها الى قصور
 دمه في امداده وتقصير وجده في التخفيف عن تباريحه حين وقعت الواقعة
 بممدوحيه :

عسى آيس من رجعة الين يوصل	ودهر تولى بالأحبة يقبل
أيا سكناً فات الفراق بأنسه	وحال التعادي دونه والتزييل
بكرهي رضا العذال عني ، وانه	مضى زمن قد كنت فيه أعذل
فلا تعجبين ان لم يغل جسمي الضنى	ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عني مودعاً	وفارقني شفعاً له المتوكل
فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجى	ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل نيران الجوى نحرق الحشا	ولا كل أدواء الصباية تقتل ^(٢)

وواضح ان البحترى في هذه الامثلة يمثل الشاعر النوفى ، الذي لم
 ينس أو يتناس من أحسن اليه ، وأفاض عليه من نعمه !

(١) نفسه ٤١٨/١ ، وأنظر : زهر الآداب ٢٢٩/١ .

(٢) الديوان ١٨٩٢/٣ - ١٨٩٣ ، زهر الآداب ٢٢٩/١ .

الفهرست

٤ - ٣	مقدمة
	تمهيد
٨ - ٥	بناء سامراء
١٧ - ٨	البحثري قبل اختلافه الى سامراء
	الفصل الاول
	صلة البحثري ببعض الرجال والكتاب
٥٣ - ٢٥	آل الحسن بن سهل
٦٧ - ٥٣	الحسن بن وهب
٧١ - ٦٧	محمد بن عبد الملك النزيات
٧٥ - ٧١	اسماعيل بن شهاب
٨٣ - ٧٥	كاتب الفتح بن خاقان
	٨٣
٨٥ - ٨٣	نجاح بن سلمة
٩٥ - ٨٥	حبس التغري
	مع علي بن يحيى المنجم
	الفصل الثاني
٩١	في ظل الفتح بن خاقان
	الفصل الثالث

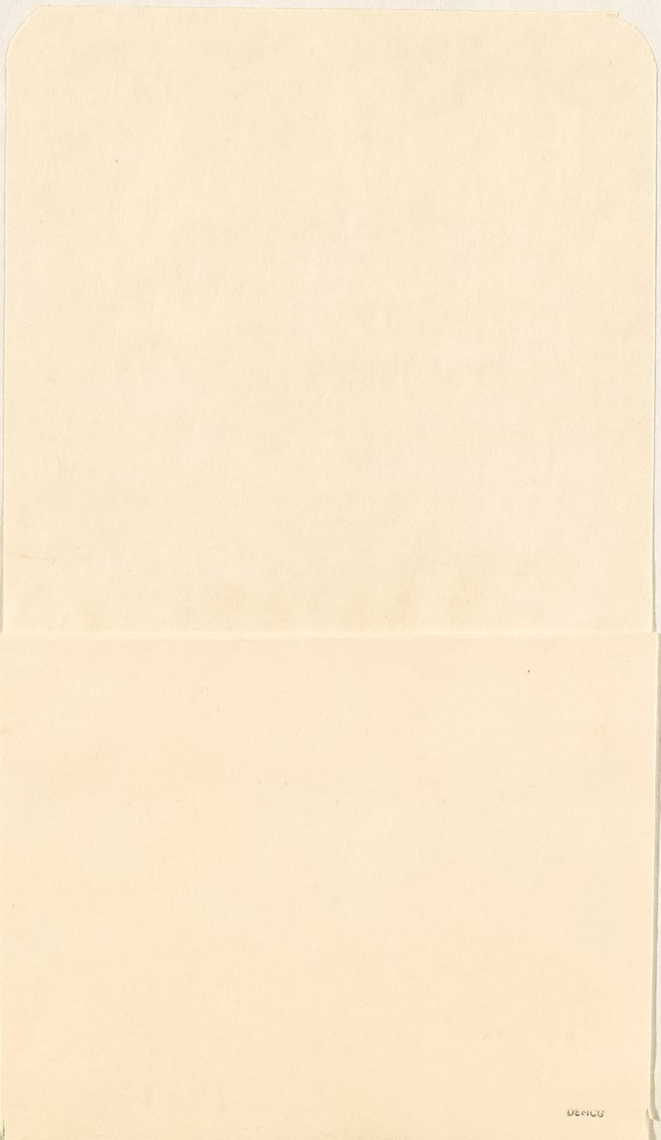
تنبيه : وقعت في ثنايا الكتاب - على الرغم من الحيطة والحذر - بعض الأخطاء المطبعية ، ارتأينا ابقائها على حالها ثقة بنهاة القارىء وفطنته .

١٩٧٠/٧/١٤/١٠٠٠/٣٠

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036761265



SEP 28 1982

0036761265

